

الدكتور الصديق تاوتي

المُبعَدون إلى كاليدونيا الجديدة

مأساة هوية منفية

نتائج و أبعاد ثورة المقراني و الحداد

Dar El Oumma دار الأمة

الدكتور الصديق تاوتي

المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة

مأساة هوية منفية

أبعاد ونتائج ثورة المقراني والحداد





شركة دار الأمة

للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب 109 برج الكيفان 16120 الجزائر

E-Mail: Dar-el-Oumma @ mail.com

تصفيف ومعالجة النص: ياسين أصدام

الطبعة الأولى

2007

إيداع قانوني: 2007 / 1682

ردمك: 6 213 67 9961 978


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لكتاب السيد تاوتي

بقلم الدكتور أبو عمران الشيخ

بعد أن تصفحت مليا كتاب السيد تاوتي، قبلت أن أقدم له وهذا نظرا لأصالة الموضوع وبساطة الأسلوب والأهمية التي يمثلها للتعرف الأفضل على تاريخنا المعاصر. فالموضوع الحقيقي لهذا الكتاب هو تلك المأساة التي عاشها بعض إخواننا في الوطن بعد انتفاضة المقراني والشيخ بالحداد. فالنظام الاستعماري الفرنسي انتقم منهم وقرر كإجراء انتقامي أن ينفي كل من شاركوا في انتفاضة 1871 إلى جزيرة بعيدة، وقد كان أغلبيتهم من القادة البارزين والمقاومين الممتازين.

ولقد كان الدافع إلى تأليف هذا الكتاب مصادفة عجيبة، فأثناء مهمة قصيرة له بماليزيا قابل الكاتب لاجئين مسلمين كمبوديين من الذين أفلتوا من اضطهاد الخمير الحمر. وقد استرعوا انتباهه، وأثناء حديثه معهم أخبره سائح أسترالي عن المنفيين الجزائريين في كالدونيا الجديدة والذين لم يهتم بشأنهم أي إنسان. فكان ذلك نقطة انطلاق هذه المغامرة الاستكشافية التي نسج الكتاب حولها.

فقد قرر السيد تاوتي أن يزور الجزيرة في أول فرصة ممكنة. وبعد أن قرء مطبوعة تحمل عنوان (عرب كالدونيا الجديدة) كان المسافر الأسترالي قد أعطاه إياها، استحوذ الموضوع على المؤلف وقرر الخوض فيه قصد تبيانه. وتعد نتائج تحرياته خير دعامة ومبرر للعنوان الفرعي «قصة هوية في المنفى». فعند قراءة الكتاب نكتشف حقيقة عذاب هؤلاء الإخوة الذين

مازالوا ضحية «إدماج» قهري أراده النظام الإستعماري بنية اجتثاثهم عن تاريخهم الموروث وثقافتهم الأصلية.

وقد سعى هذا الجيل من المنفيين بكل حيوية إلى الارتباط من جديد بأصولهم، واسترجاع هويتهم التي طمست معالمها، والتعرف على بلد آبائهم وربما حتى الالتقاء بأقارب لهم في ناحية أو أخرى من ربوع وطننا. وهو ما يرويه ويفصله السيد تاوتي في كتابه هذا.

وحِرْصًا على راحة القارئ الكريم، قسم الكاتب بحثه إلى قسمين مستقلين يكتسي كل واحد منهما نفس الحجم تقريبا. فهو في الفصل الأول يسرد تفاصيل انتفاضة 1871 التي مازلت غير معروفة بالقدر اللائق، رغم بعض الدراسات القليلة؛ فالكاتب في الحقيقة يريد أن يشرح الخلفيات التي أدّت إلى قرار النفي الذي اتخذته السلطات الاستعمارية. أما في القسم الثاني فإنه يعرفنا بأحفاد المنفيين الذين نجدهم في أغلبيتهم غاية في اللطف، وبالجهود التي بذلها لمساعدتهم، حتى أنه قد نجح بعد مثابرة في تنظيم جولة لبعضهم إلى ربوع الجزائر.

هذا، ولن يفوتنا هنا أن نشيد بما قام به السيد تاوتي، فقد سدّ فجوة في معارفنا، حيث أننا لم نكن من قبل نعرف شيئا يذكر عن هؤلاء الإخوان في الوطن الذين أبعدت المسافة ما بيننا والذين لم يكن البعض منا ليتصور حتى مجرد وجودهم، فبفضله تمكنا من إدراك مساوئ وآثام النظام الاستعماري، وبفضله كذلك يمكننا الشروع في تقديم مجهود تضامني فعال لصالح جزائريي كاليدونيا الجديدة الذين ظلوا أوفياء لوطن أجدادهم.

د.أبو عمران الشيخ – أستاذ بالجامعة

الجزائر: أكتوبر 1996.

مقدمة الترجمة العربية

بقلم الأستاذ الدكتور: يحي بوعزيز



يعتبر كتاب «المنفيون إلى كاليدونيا الجديدة، قصة هوية بالمنفى» لمؤلفه: الأخ الفاضل الدكتور الصديق تاوتي، وثيقة هامّة، استكشفت وكشفت الغطاء عن حياة وتاريخ شريحة جزائرية هامة وأصلية طردها جيش الاحتلال من بلادها، ونفاها وأبعدها على مراحل، منذ منتصف القرن التاسع عشر، إلى كاليدونيا الجديدة في أقصى شرق المحيط الهادي على بعد اثنتي وعشرين ألف كيلومتر من الجزائر. وتواصل هذا النفي والإبعاد إلى ثورة الأوراس الغربية عام 1916، خلال الحرب العالمية الأولى.

وقد تنوسي أمر هؤلاء المبعدين والمنفيين هناك هم وأبناؤهم وأحفادهم قرنا ونصف القرن، إلى أن كشف الغطاء عنهم، وعن مآسيهم، وحياتهم الشاقة، وأوضاعهم المتدهورة، الدكتور الصديق تاوتي في كتابه هذا الذي صدرت طبعته الفرنسية عام 1995م، وهاهي طبعته العربية تظهر اليوم وتقدم معلومات جديدة ومهمة عن حياتهم وأوضاعهم المؤلمة، دون أن ينسوا أصلهم وبلدهم الأصلي، وأجدادهم، ودينهم الإسلامي، وعاداتهم، وتقاليدهم، رغم بعد المسافة، وطول المدة الزمنية، وقساوة المعاملة التي ووجهوا بها طوال قرن ونصف القرن.

ومع أن الكتاب يتألف من جزئين في مجلد واحد، إلا أن الجزء الأول منه يعتبر بمثابة مدخل وتمهيد للموضوع الأساسي، تحدّث فيه المؤلف عن بدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830، ولخّص بتوسّع أحداث ثورة الباشا محمد المقراني، والشيخ محمد أمزيان بن علي الحداد الرحماني عام 1871، التي كانت السبب في نفي وإبعاد هؤلاء الجزائريين إلى هناك، والتي بحثناها نحن في دراسة جامعية موسعة وموثقة بأرشيف مكثف، وأصدرناها عام 1978، وكانت من أهم مراجعه عنها على أي حال، كما أشار إلى ذلك في صدر الكتاب.

ويعتبر الجزء الثاني منه، هو صميم الموضوع المعنون له، تتبع فيه الأخ تاوتي مراحل حياة هؤلاء المنفيين والمبعدين الجزائريين ابتداءً من محاكمتهم في الجزائر، إلى ترحيلهم إلى هناك بحرا على السفن واستقرارهم في بوراي، ونيسباديو، ونوميا، واستعرض الحالة المزرية والتعسة التي عاشوها هناك تحت سياط التعذيب، والتنكيل، والقهر والإذلال، والمهانة، والتجهيل، والتفقير، والإكراه على الأعمال الشاقة والمرهقة.

ومما يعطي الأهمية لهذا الكتاب أن الأخ الصديق تاوتي، زار بنفسه كاليدونيا الجديدة مرتين، الأولى عام 1984، والثانية بعد ذلك، واتصل بأبناء المنفيين وأحفادهم وتناقش معهم، واستفسرهم عن أحوالهم وأوضاعهم، ومشاكلهم، ودرسها على الطبيعة، ولم يكتف بهذا فاطّلع وقرأ الكتابات التي تحدثت عنهم وأرّخت لبعض مشاكلهم خاصة ما كتبه المعلم كوليني في دراسته: «العرب في كاليدونيا الجديدة»، فتجمعت لديه معلومات كثيرة وجديدة، ومهمة، سمحت له أن يؤلّف هذا الكتاب، يثريه بالكثير من الحقائق، والمعلومات، والأحداث، فَمَا رَاءٍ كَمَنْ سَمِعَ، كما يقول المثل العربي.

وهكذا تحدث الأخ الصديق تاوتي عن محاكمات الثوار الجزائريين عام 1873 بالجزائر، وعن بدايات ترحيلهم إلى كاليدونيا الجديدة عبر قوافل بحرية أربعة:

- الأولى يوم 5 جوان 1874م، ووصلت إلى هناك يوم 16 أكتوبر 1874م.
- والثانية يوم 2 سبتمبر 1874م، ووصلت إلى هناك يوم 18 جانفي 1875م.
- والثالثة يوم 13 جوان 1876م، ووصلت إلى هناك يوم 6 جانفي 1877م.
- والرابعة يوم 1 أكتوبر 1877م، ووصلت إلى هناك يوم 24 جانفي 1878م.

وتواصل بعد ذلك النفي والإبعاد لهم ولغيرهم أفرادا وجماعات إلى عام 1916م. وشرح الأخ تاوتي أسلوب حياتهم هناك وسلوكهم، ومعاشهم، ودور بومزراڤ المقراني ورفاقه في مقاومة ثورة الكاناك عام 1878م، وعلاقة المنفيين الجزائريين بمنفيي بلدية باريس، والسنوات الأخيرة من حياة بومزراڤ هناك، ومطالبته هو، وسي عزيز الحداد، بحق العودة إلى الجزائر بعد صدور العفو العام عام 1880م، ولكن الحكومة العامة بالجزائر كانت ترفض ذلك باستمرار حتى لا يطالبوا باسترجاع أملاكهم التي ملّكت للمعمرين الأوروبيين المهجّرين من أوروبا، مما دفع بسي عزيز الحداد إلى الفرار من هناك إلى الحجاز، عبر سيدني، واليمن، عام 1881م. وحتى الموتى كانت الحكومة العامة ترفض دفنهم في مسقط رأسهم كما حصل للشيخ الحداد نفسه عام 1873، ولإبنه سي عزيز عام 1895م.

لقد استعرض المؤلف الأخ تاوتي حياة المنفيين الجزائريين بالمنفى، بعد إطلاق سراحهم، وأورد قائمة بأعدادهم، وأماكن إقامتهم، والأعمال الفلاحية والرعوية والتجارية التي يمارسونها، ومساكنهم القصديرية، وشرح كيفية دفن موتاهم، وطريقة احتفالهم بالزواج والأعراس، واضطرارهم للتزوّج بالعاهرات الأوروبيات المرحلات

إلى هناك، ومنعهم من تسمية أبنائهم بالأسماء العربية، وإرغامهم على التسميات الأوربية، ومحاولة تنصيرهم وتمسيحهم مع إبقائهم في الدرجات الدنيا في مجال الحالة المدنية، وتسليط حياة الجهل والأمية عليهم وعلى أبنائهم وأحفادهم، بحيث لم يفتح قسم مدرسي إلا عام 1928، ولم يلتحق به إلا عدد قليل جدا يعدّون على الأصابع، ولم يتطور الأمر إلا بعد عام 1956.

تطور الأوضاع في عقد الستينيات:

وقد بقي الأمر والوضع هكذا متدهوراً وسيّئًا إلى مطلع الستينيات من القرن العشرين، ثم بدأت الأمور تتغيّر، وتتبدّل، وتتطوّر شيئًا فشيئًا، تبعا للتطورات العالمية، وظهرت هناك عدة جمعيات محلية طالبت بالتغيير من أهمها:

- جمعية العرب وأصدقاء العرب.
- الجماعات المسلمة المختلفة الجنسيات (جزائرية وأندونيسية ويمنية وجيبوتية).
- جمعية العرب.
- جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة.
- جمعية الدعوة الإسلامية.

وقد قامت هذه الجمعيات بجهد محترم في عملية التغيير، والتطوير، واستعملت وسائل متنوعة، وتنفّس المنفيّون الصعداء، وأخذوا يحسنون ظروفهم، وأوضاعهم المعاشية، والصحية والتعليمية والاجتماعية. وحتى السياسية، مما سمح للبعض منهم أن ينتخبوا رؤساء لبعض البلديات هناك.

الدور الرائد للأخ الصديق تاوتي:

وكان للمؤلف الأخ الصديق تاوتي، دور رائد في هذه النهضة الجديدة، وعملية التغيير هذه، لحياة وأوضاع المنفيين الجزائريين، وذلك بزياراته إلى هناك، واطّلاعه في عين المكان على الأوضاع، ومساعدته لهم، عن طريق البنك الإسلامي للتنمية الذي يعمل به، في إنشاء بعض المدارس، والنوادي، والمساجد، والمراكز الثقافية، وفي إرسال بعض المعلمين، والوعاظ لتعليم اللغة العربية، وتحفيظ القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي.

وبفضله رجعت الروح لهم، وتمكن وفد منهم يتألف من 13 شخصا من زيارة بلادهم الجزائر لأول مرة 1986، والتقائهم بذويهم وأبناء عمومتهم، كما تمكن البعض من زيارة الحجاز لأداء مناسك العمرة وفريضة الحج لأول مرة كذلك.

وكتابه الذي نقدّم له اليوم، إلى جانب غناه بالمادة التاريخية هو غني كذلك بالصور والأشكال التذكارية الموضحة والمشوقة، وإليه يعود الفضل في النهضة الجديدة التي يعرفها اليوم أبناء وأحفاد المنفيين والمبعدين الجزائريين إلى كاليدونيا الجديدة، فله كل الشكر والتقدير، والتحية على ذلك، وهنيئا لقراء الحرف العربي بهذه الطبعة العربية الجديدة لكتابه: «المنفيون إلى كاليدونيا الجديدة قصة هوية بالمنفى»، الذي سيستفيدون منه كثيرا، ويستمتعون بما فيه من المعلومات، والأخبار، والطرائف والحكايات والأقاصيص.

والله الموفق والسلاح

الأستاذ الدكتور يحي بوعزيز

وهران - حي جمال الدين

الإثنين 09 ربيع الأول 1421 هـ

الموافق لـ 12 جوان 2000 م

تشكرات

لقد كتبت هذه الأسطر – في المقام الأول – تخليدا لذكرى ثلاثة من أبناء المنفيين الجزائريين رحلوا عنا إلى دار البقاء وهم:

1 – العربي فرانسوا المولود في 1905: «لا، لا أنا لست فرانسوا، أنا العربي ميسوم بلحاج.»

2 – شيخة، بنت رابح بن عيسى المولودة في 1907: «أجل أنا عربية، أجل أنا مسلمة، نعم مازلت أصلّي.» وكيف تصلين؟ «أنا دائما أذكر الشهادة قبل أن أنام.»

3 – بن حميش سعيد لويس المولود في 1908: «لقد أوصاني والدي القبائلي الأصل قبل مماته بأن أبقى عربيا، ومسلما وأن أحافظ على التقاليد طالما حييت.»

وقد رحل عنا ثلاثتهم بعد بضع سنين من لقائنا في نيساديو سنة 1984. عسى الله أن يرحمهم أجمعين.

كما أني كتبت من أجل أبناء الجيل الثاني والثالث من أبناء المنفيين الجزائريين. مثل عبد القادر بوفناش «الذي عاد إلى البلاد بعد تأديته للعمرة وكأنه إنسان آخر... وهو يتحدث عن زيارته القصيرة إلى مكة والقلب مُفْعَمٌ بمشاعر فياضة وحماسة بالغة.» وعبد القادر هذا هو نفسه الذي يبذل قصارى جهده لتعلم العربية وتطبيق تعاليم الإسلام ومازال يكاتبني ويسأل بشغف: «متى سيحضر المعلم الجزائري الذي سيعلم السكان اللغة العربية ودينهم الإسلامي؟»

وليس هو الوحيد الذي يتحدث عن هذه المسألة. فقد كاتبني آخر ليقول: «وفيما يخص المشكلة التي يمثلها تعليم اللغة العربية في كاليدونيا الجديدة، وبالنسبة لعشيرتنا في بوراي على وجه الخصوص، أين يوجد تمركز كبير لبني جلدتنا، منذ خمسة أجيال تعاقبت حتى الآن.»

«فإننا نطلب تعيين معلم جزائري.» وقد أجبت طلبه بعون الله ومشيئته. وقد كاتبني ليخبرني بأن المعلم باشر مهمته وأنه: «يدرس منذ أسبوع حوالي عشرين من شبابنا، وكلهم من أصل عربي، ويعلمهم اللغة والثقافة العربية.. كما أن هناك عدداً من الكبار في السن يتابعون دروسه كل مساء.»

«فلتبذلوا مجهودكم على أن يبقى عندنا، وهو ما يعدّ أكبر فائدة لمجموعتنا التي في حاجة لتعلم لغتها، ومعرفة ثقافتها، وجذورها، وأن تتشبع بروح الحكمة منها، ونتمكن بذلك من استرداد ما أضعناه بسبب الاستعمار.» والرجل الذي يتحدث هكذا هو شيخ بلدية بوراي –بوغان– نيساديو، وهي مهد العائلات ذات الأصل الجزائري. وهو على رأس هذه البلدية المهمة منذ 1977.

وإبن المنفي الجزائري هذا، حدث وسبق له أيضا أن ترأس ولمدة خمس سنوات أعلى مؤسسة تشريعية في البلاد: وهي المجلس الإقليمي لكاليدونيا الجديدة، هذا السليل هو الطيب العيفة المولود ببوراي يوم 31 أكتوبر 1938 وهو إبن عيفة العيفة بن سعيد المولود في 1875 بالعلمة (ولاية سطيف) ولويز المولودة بكاليدونيا الجديدة وبنت أحد المنفيين الأوائل وهو الطيب بن حسان المولود في 1843 ببني شقران (ولاية معسكر).

وإنني لم أكن لأكتشف هذا المجتمع الخاص لولا «فضل الله ويلموت» ذلك المسلم الأسترالي الذي تقابلت معه في كوالا لمبور؛ ولولا أخي ورفيقي الدكتور صالح مهدي ساماراي الذي –بعد إقامة قصيرة بنوميا– وعد أبناء المنفيين، أي العرب مؤكدا: «إننا سنبعث لكم الرجل الذي

سيساعدكم على اكتشاف جذوركم.» وقد كتب لي يقول: «إنك الوحيد الذي بإمكانك أن تساعد أفراد هذه المجموعة على استرجاع عروبيتهم واسلامهم». وقد كان أخي الدكتور صالح يعلم ما يقول.

أجل لقد كان يعلم أن الدكتور أحمد محمد علي رئيس البنك الإسلامي للتنمية لم يسبق له قط أن رفض أو حتى عدّل المبالغ التي كنت اقترحها لإقامة مشاريع الإعانات الخاصة. بل على العكس، فإن الدكتور كثيرا ما لفت انتباهي إلى أني قد خففت بعض المصاريف أو أني قد أسقطت أخرى كانت ضرورية للمشروع. وها أنا ذا أعبر عن كل امتناني وشكري له ولمختلف أعضاء مجلس المديرين التنفيذيين الذين تعاقبوا في فترة رئاسته. وقد أدار هذا الرجل هذه المؤسسة الإسلامية الكبيرة منذ انتخابه من طرف مجلس المحافظين في 28 جويلية 1975 حتى تلك الأمسية من أواخر شهر شعبان من سنة 1414 هجري التي أقام فيها مستخدمو البنك على شرف الرئيس أحمد محمد علي مأدبة عشاء لتوديعه، إذ كان عليه أن يلتحق بوظيفته الجديدة كأمين عام لرابطة العالم الإسلامي ابتداءا من يوم 12 مارس 1994 بعد 19 سنة قضاها على رأس البنك الإسلامي للتنمية. وقد كنت من الحضور وأقول: «حظا سعيدا سيدي الرئيس في هذه الوظيفة الجديدة لخدمة المسلمين والإسلام في العالم.»

ولكن بعد أقل من سنتين، عاد الدكتور محمد علي إلى منصبه على رأس البنك الإسلامي للتنمية.

وهناك رجل آخر كان دائما يوافق بابتسامته العريضة على كل طلباتي بخصوص الأقليات المسلمة، وأذكر هنا بالاسم الدكتور عبد الله عمر نصيف الذي أقول له أيضا بملئ الفم «شكرا».

ولا أنسى طبعا تشكراتي إلى كل المستخدمين في البنك الاسلامي للتنمية الذي كنت دائما أجد عندهم خير العون والمساعدة .

ومع أنني لم أعد من بين قائمة الموظفين منذ شهر أوت 1987، فإنني في كل زياراتي مازلت أستقبل كعضو كامل العضوية في هذه العائلة التي كانت مع نهاية 1993 تتكون من قرابة 700 مستخدم، البعض منهم من البلدان الخمسة والثلاثين الأعضاء في البنك، والآخرون من البلدان الأربعة والأربعين غير الأعضاء. وكلهم مسلمون ويعتبرون أنفسهم في خدمة المجتمع الإسلامي، أما اليوم فأصبح عدد البلدان الأعضاء أربعة وخمسون وعدد الموظفين حوالي 800 موظف. ولا يمكنني أن أكمل هذه السطور دون أن أذكر بصفة جد خاصة ثلاثة من الأصدقاء بالجزائر.

أولهم الشيخ عبد الرحمن شيبان الذي لجأت إليه عندما كان يترأس وزارة الشؤون الدينية لأرجو منه التوسط حتى نتمكن من دعوة بعض من إخواننا وأخواتنا في كاليدونيا الجديدة لزيارة الجزائر. وقد كانت استجابته دون تردد، فتحقق بذلك حلمٌ طالما راود العديد من إخواننا هناك! فشكرا للشيخ عبد الرحمن وإني أعلم أنه لم يكن وحده؛ فأوسع شكري إلى العديد ممن لا تُعرف أسماءهم والذين ساعدوا على تحقيق هذا الحلم. أما الآخر الذي أعبر له عن كامل شكري وامتناني فهو الدكتور يحي بوعزيز، الذي وضع بين يدي النسخة الأصلية من الأطروحة التي ناقشها في جامعة الجزائر في 1975.

وقد استغللت هذا الملف الثمين أيما استغلال في إنجاز الجزء الأول من عملي هذا. فشكرا مرة أخرى للدكتور يحي بوعزيز.

وأخيرا، فإن الإسم الثالث الذي وجب ذكره في هذه الصفحة ليس إلا أخي عباس عبد الحق، رفيق الدرب الذي بدأناه سويا في 1957 والذي مازلنا عليه بحول الله ورعايته.

فهو الذي قرأ المخطوط الأولي للكتاب وأعانني عند إعادة النظر في هذا الجزء أو ذاك أو تغيير هذه العبارة أو تلك، فشكرا للأخ عباس.

المقدمة

لقد وجد كتابي «المنفيون الجزائريون بكاليدونيا الجديدة» الصدر باللغة الفرنسية في أواخر سنة 1995 إقبالا كبيرا من طرف القراء الجزائريين، وأصبح مفقودا في السوق بعد فترة وجيزة من صدوره.

وعملا باقتراح أخينا الدكتور الشيخ بوعمران، تمكنت من تقديم الطبعة الثانية للكتاب سنة 1997، وحظي هو الآخر بإقبال واسع اضطرنا إلى التفكير في طبعة ثالثة.

في نفس الوقت طلب مني بإلحاح أن أترجم الكتاب إلى اللغة العربية، فلبيت الطلب وها هو الكتاب في طريقه إلى دار الأمر للطباعة والنشر، وإن شاء الله يجد هو كذلك نفس الإقبال خاصة بعدما أثريته بمعلومات لم أكن أعرفها، وهي جدّ مفيدة.

في البداية وصلتني رسالة بعثها صاحبها يوم 1997/10/19 من نوميا عاصمة كاليدونيا الجديدة جاء فيها: «لقد نشرت كتاباً حول المنفيين الجزائريين بكاليدونيا الجديدة، نرجو أن ترسل إلينا بعض النسخ». وقد لبّيت له طلبه، ورجوته أن يزودني هو كذلك بما لديه من معلومات خاصة بإخواننا هناك.

وبعد أشهر قلائل وصلتني عدة مؤلفات أهمها كتاب زتاريخ كاليدونيا الجديدةس، أصدره عدد من المؤلفين، وكان المنسق بينهم هو السيد زفريدريك أنجليفيالس أستاذ التاريخ المعاصر والمشرف على المعهد العالي بنوميا، الكتاب يتألف من 225 صفحة منها صفحتان خصصتا لإخواننا تحت عنوان «العرب».

الموضوع مهم جدا، يشير صاحبه إلى أن: «هذا العنوان يشمل العرب والقبائل في كاليدونيا الجديدة... يعني 1800 محكوم عليهم من المحاكم الجنائية من المغرب، وحوالي 120 جزائري منفي بعد الثورة، وفيما يخص المنفيين كان أول «عربي» وصل سنة 1864 في أول دفعة هو إبراهيم بن محمد»[1].

هاتان الصفحتان هامتان جداً لما تحملانه من معلومات جديدة كنا نجهلها، خاصة بالنسبة للتاريخ والعدد. وهنا لابد من توضيح لكلمة «مغربي» المذكورة، فالكل يعلم أن الموضوع خاص بالجزائريين، فتونس لم تحتلها فرنسا إلاّ سنة 1881، والمغرب في سنة 1912، فالعدد هنا هو خاص بالجزائريين فقط.

وفي آخر الصفحة الثانية جاء: «من يعلم بأن أصغر رئيس بلدية في كاليدونيا انتُخب عام 1989 في بومنبوت هو من أحفاد عبد الله بن معمر».

هكذا يتضح أن بداية الترحيل إلى كاليدونيا الجديدة كانت عام 1864، ونحن نعلم من خلال كتب التاريخ أن ثورة الحضنة قد اندلعت سنة 1860 ووصلت إلى منطقة القبائل الصغرى، ومات فيها عدد من الأوروبيين[2] كانت متبوعة كذلك بالجهاد الذي أعلنه سيدي سليمان باسم أولاد سيدي الشيخ يوم 7 أفريل 1864 فقامت مجموعة بالهجوم يوم 8 أفريل على الموقع الذي كان فيه العقيد بوبراتر (Beauprêtre) فقتل معه مساعديه. أما «القوم» فإنهم انضموا إلى المجاهدين، وكلنا يعلم أن ثورة أولاد سيدي الشيخ لم تتوقف حتى سنة 1882[3]، مما يجعلنا نستنتج من

(1) أنجليفيال (فريدريك) تاريخ كاليدونيا الجديدة دار النشر بنوميا، جوان 1997، صفحة 17.

(2) مونتنيون (بيار) تاريخ الجزائر، دار النشر بيحماليون، باريس 1998، صفحة 185.

(3) صاري (الجيلالي) ثورة 1881 – 1882، دار النشر الوطنية الجزائر، صفحة 38.

كل هذه المعلوماتأن أبطال الجهاد_كانوا ينفون إلى فرنسا أو إلى إحدى مستعمراتها البعيدة، والمستعمرة التي استقبلت عدداً أكبر من الثوار الجزائريين هي كاليدونيا الجديدة، ومن يدري؟ لعل إبراهيم بن محمد الذي ذكره «فريديريك أنجليفيال» يكون من ثوار أولاد سيدي الشيخ الأوائل.

زيادة على كل هذه المعلومات لابد من الإشارة إلى ما قاله لي الطيب العيفة بأن والده وصل إلى كاليدونيا الجديدة عام 1916 مع مجموعة من الرافضين للتجند في الجيش الفرنسي في بداية الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918).

هذا وقد أفادني أخونا الدكتور الشيخ بوعمران عندما أخبرني بصدور كتاب في باريس لمؤلفه المهدي العلاوي بعنوان «قبائل المحيط الهادي»، وهو كتاب قيّم فعلا، استفدت منه كثيراً بعد أن تمكنت من اقتنائه، ثم كتبت إلى صاحبه فهنأته عن العمل الجبار الذي قام به، كما بعثت إليه كتابي.

أما إخواننا في كاليدونيا الجديدة فمازلت أتابع أحوالهم وقضاياهم عن طريق الرسائل التي يبعثها إليّ السيد عبد القادر بوفناش، فأحسن خبر وصلني كان يوم تمّ تشييد المجمع الإسلامي في نيساديو، وهو مكان تجمع السكان من ذوي الأصل الجزائري.

المجمع به قاعة للصلاة وأقسام للدراسة ومسكن للمعلم الذي لم يتعين بعد! ففي كل رسالة تصلني من الأخ عبد القادر يكرر فيها هذا الطلب: أين المعلم الجزائري الذي يعلم أولادنا لغة أجدادنا ويفقهنا في ديننا الحنيف؟ متى يصل هـذا المعلـم؟ كما أفادني في إحدى رسائله أن ابنه أصبح يصلي ويحفظ نصيباً من القرآن.

هذا والجدير بالذكرأنني منذ أكثر من عشر سنوات وأنا أدعو وأطلب من المختصين في بلادنا أن يوظفوا إماما قادراً على مساعدة إخواننا في كاليدونيا الجديدة ولم أنجح، أسأل اللّه تعالى أن يسخّر من عباده الصالحين العاملين من يحقق هذا المطلب.

هناك معلومة أخرى جديدة وصلتني وهي أن السيد عبد القادر بوفناش تمكن من إقناع إدارة البريد بكاليدونيا الجديدة (وقد لبّت دعوته القديمة) لإصدار طابع بريدي يوم 4 سبتمبر 1988 بمناسبة مرور قرن على الوجود العربي مع صورة لفارس بلباسه العربي وبندقيته.

وفي الختام أشير إلى العفو الذي صدر في حق الفرنسيين والجزائريين بالعودة إلى وطنهم، إلاّ أن القرار طبّق على الفرنسيين ولم يستفد منه الجزائريون خوفاً من مطالبتهم باستعادة أملاكهم التي استولت عليها السلطة الاستعمارية وأهدتها للمعمرين الفرنسيين فبقيت مجموعة ثوار بلدية باريس تطالب بتنفيذ قرار العفو.

الصديق تاوتي

الجزائر – مارس 2000

مقدمة الطبعة الثانية (للنسخة الفرنسية)

من خلال الصفحات الموالية سنحاول تعريفكم بأبناء المنفيين الجزائريين الموجودين بكاليدونيا الجديدة، تلك الجزيرة التي يطلق عليها سكانها إسم الكايو[1].

فما الذي جرى حتى وجد هؤلاء الأبناء أنفسهم في أرض تبعد عن الأرض الأم بحوالي 22 000 كلم ؟

قبل الدخول في صلب الموضوع، سنرى أولا كيف شدت القضية اهتمامي.

بدأ كل شيء في سنة 1975 حين قبلت الجزئر -عضو في منظمة المؤتمر الإسلامي- المشاركة في إنشاء مؤسسة مالية عالمية «لتشجيع التطور الاقتصادي والتقدم الاجتماعي للدول الأعضاء والمجتمعات الإسلامية»، وهكذا أُنشئ البنك الإسلامي للتنمية الذي أُقيم مقره بمدينة جدة.

وقد كان لي الحظ في أن أكون ملحقا بالبنك وعضوا بالمجلس الأول للمديرين التنفيذيين، الذي كان عليه أن يتقيد في نشاطاته بقواعد الشريعة الإسلامية.

عند انتهاء مدة عملي في مارس 1979 عُيّنت كمساعد رئيس البنك مكلف ببرنامج المساعدات الخاصة. وكان عليّ في منصبي الجديد أن أدرس وضعيات الأقليات الإسلامية واقتراح نوع المساعدات التي يمكن للبنك أن يمدّهم بها في كل من ميادين التعليم والتكوين المهني والصحة.

---

(1) لم الكايو (Caillou) «الحجيرة»؟ لاكتشاف النيكل في الشهور الأخيرة من سنة 1873 حين جاء أحد المعمرين يدعى كوست، بحجر ذي لون وشكل غريبين، وجده صدفة بجبل «الموندور» المتراءى من مدينة «نوميا» التي لا يفصل بينها وبينه سوى خليج بولاري. لم يشك أحد في أن هذا الحجر الغريب هو عبارة عن نيكل خام، مأخوذ من التاريخ الموجز والحقيقي لمناجم كاليدونيا الجديدة من طرف «برنار بريدون»، ذكرها «برو» في تاريخ كاليدونيا الجديدة. نُشرت من طرف شركة الدراسات التاريخية لكاليدونيا الجديدة. رقم 4، نوميا ص.154.

في 1980، أثناء زيارة قمت بها إلى ماليزيا (لزيارة اللاجئين المسلمين الذين فروا من كمبوديا إثر التصفية العرقية التي تعرض لها شعب هذا البلد مع دخول الخمير الحمر وعلى رأسهم «بول بوت» المشؤوم)، أخبرني أعضاء منظمة إسلامية محلّية بوجود مجموعة معتبرة من أصل جزائري تعيش بكاليدونيا الجديدة و تحتاج إلى مساعدة.

ومن أجل إعطائي فكرة أوسع حول الموضوع، زودوني بوثائق مكتوبة باللغة الفرنسية تحمل عنوان «عرب كاليدونيا الجديدة» و التي نقرأ فيها: «توجد بكاليدونيا الجديدة مجموعة من العرب تمثل عشيرة متميزة وسط هذا المجتمع المتعدد الأجناس الذي يعمر الإقليم. إلى متى يعود قدوم هذه المجموعة العربية؟ كم تُقدر نسبة منفيي انتفاضة المقراني 1871؟ ما هي الملحمة التي قام بها هؤلاء المُهجّرون السياسيون الذين أدمجوا مع منفيي أحداث بلدية باريس المشهورة؟

بفضل هذه الوثيقة التي تتضمن 36 صفحة استطعت تكوين فكرة حول الموضوع، لكنها لم تكن كافية. لذلك حاولت الاتصال بكل الذين تمكنوا من زيارة هذا الجزء من العالم، وهكذا تحصلت على كثير من المعلومات، خاصة من المنظمات الإسلامية. لم يبق لي بعدها إلا أن أجد الفرصة للتنقل والتعرف على الجزيرة وسكانها بالخصوص ذوي الأصل الجزائري منهم.

وقد أتيحت لي الفرصة وتمكنت من زيارة كاليدونيا الجديدة مرتين؛ وهكذا، اكتشفت هذه العشائر وتحدثت مليا مع خلف المنفيين الجزائريين.

وقد وجدت أنه من واجبي أن أعرف بوضعية هؤلاء المقطوعين عن أصولهم والذين على الرغم من بعدهم يفعلون كل ما بوسعهم للاتصال بجذورهم وهويتهم الثقافية و الدينية.

ولقد مرّت مدة طويلة لم أستطع خلالها أن أفعل شيئا، بسبب الظروف والمشاغل، إلا أنني قررت أن أشرع في العمل بعد أن قرأت في جريدة

جزائرية، في بداية 1993، مقالا مطولا عن الموضوع يحمل عنوان «كلدوش من البرج» – قصة غريبة حول المنفى».

«إن الجيش الفرنسي ومنذ احتلال البلاد لم يكتف فقط بتقتيل الجزائريين. بل إنه قد ملأ بهم بواخر بأكملها، وبدأ منذ سنة 1871 ينفي الآلاف منهم نحو مستعمراته و معتقلاته بالمحيط الهادي ...

«وربما لم يحتفظ أبناؤهم عن الجزائر بشيء على الإطلاق، ولكن في سنة 1987 زار الجزائر وفد من خلف المنفيين الى كاليدونيا الجديدة عقب انتفاضة 1871»[1].

وقد توجب عليّ أن أوسع من دائرة بحثي لأنه بالإضافة إلى المسائل العديدة التي تطرحها الوضعية الحالية لأحفاد المهجّرين الجزائريين وتطلعهم الدائم إلى هويتهم، كان عليّ الرجوع إلى الأسباب التي كانت من وراء النفي في حد ذاته.

وحول هذا الموضوع، اكتشفت أشياء عديدة، ومنها على الخصوص:

– الطابع الوطني لاتساع انتفاضة المقراني والحداد.
– الطابع الشامل والشنيع لعمليات القمع والاضطهاد التي تواصلت حتى من بعد النفي بطرق كانت ترمي كلها إلى مسح كامل لِمَا في ذاكرة المنفيين وأبنائهم ممّا له علاقة بجذورهم العميقة.

وبعبارات أخرى فإنه كان عليّ أن أجيب على ثلاثة تساؤلات:

كيف وصل هؤلاء المنفيون إلى الجزيرة؟ ولماذا؟ وكيف أصبحت وضعيتهم بعد ذلك؟

احتلال الجزائر، رفض الجزائريين، المقاومات التي اندلعت، تعامل القوات الفرنسية تجاهها، التصفية العرقية للأهالي، تدخلات الكنيسة، الكوارث، المجاعة، الأوبئة. مرسوم كريميو، والجزائر مستعمرة استيطانية.

(1). قصباجي (إبراهيم). كلدوش من البرج ،– قصة منفى. جريدة لاناسيون بتاريخ 30–12–92، ص 23.

ثم من تكون عائلتا المقراني والحداد؟ هاتان العائلتان الكبيرتان اللتان أوقدتا لهيب الانتفاضة عقب المقاومة الباسلة التي قادها الأمير عبد القادر.

اعلان الانتفاضة من قبل الباش أغا الحاج محمد المقراني يوم 16 مارس 1871. والمعارك التي خاضها ، واستشهاده يوم 6 ماي 1871.

إعلان الجهاد الذي بثّه الشيخ الحداد. وجهاد إبنيه وكل أتباع الطريقة الرحمانية. الثورة في بلاد القبائل، وأخيرا استسلام قادة القبايل وعائلة الحداد.

الدور الذي لعبه بومزراق أخو الباشا أغا عند اندلاع الكفاح وبعد وفاة أخيه وبعد استسلام آل الحداد وقادة القبايل، انطلاقته مع رفقائه إلى جنوب البلاد وإلقاء القبض عليه مع واحد من بني عمومته بعد أن أوصل 500 من عائلة المقراني إلى الأراضي التونسية.

النتائج التي حلّت بالعائلتين ومن رافقهما. الأحكام العقابية، المصادرات، الغرامات، والنفي.

حياة أبناء المنفيين، البحث عن الجذور ، العودة إلى الإسلام و الاتصال بالعالم الخارجي. زيارة الجزائر من قبل مجموعة من أبناء المنفيين .

طلب المعونة لبناء مركز اسلامي مزود بمدرسة في كل من نوميا ونيساديو. العرائض من أجل المطالبة بإمام جزائري والتجربة التي خاضها شاب جزائري في المنطقة .

كل هذه النقاط ستعرض في جزئين، الأول مقسم إلى خمسة أجزاء والثاني مقسم إلى سبعة. الجزء الأول يتناول الانتفاضة «الوطنية» التي أوقد نارها الباشاغا الحاج محمد المقراني والشيخ الحداد. أما الثاني فقد خصص -بعد نبذة تاريخية وجغرافية وجيزة عن كاليدونيا الجديدة- لعملية النفي والتهجير الفعلي التي تعرض لها المجاهدون الجزائريون والنظام القمعي، ومحاولات مسخ الهوية، والحياة التي عاشها أبناؤهم في بحثهم الدائم و المستمر عن هويتهم وشخصيتهم .

الصديق تاوتي - الجزائر 1996.

الجزء الأول

الفصل الأول
الأسباب الرئيسية لانتفاضة 1871.

1 - احتلال الجزائر

لكي تتضح أمامنا الأسباب التي أدّت إلى هذه الانتفاضة ربما وجب علينا الرجوع قليلا إلى الماضي، أي الرجوع إلى نقطة البداية. والبداية طبعا هي صبيحة الخامس من جويلية 1830 حيث أنه « ابتداء من الساعة الحادية عشرة صباحا من 5 جويلية 1830 كان الفرنسيون في شوارع الجزائر... وقد يتظاهر الموريسكيون والعرب بعدم ملاحظة هذا الوجود الفرنسي إلا أن اليهود (...) اظهروا علنا فرحهم وابتهاجهم بالحدث. »

« واذا كانت سلامة الأشخاص قد احترمت، (حرفيا)، فإن الحال غير ذلك بالنسبة للممتلكات... إذ لم يتخذ أي إجراء للحؤول دون أعمال السطو التي بدأت مبكرة. »

« لقد ضربت القطط السمان ضربتها. »(...) مثل « المقتصد العسكري العام دينيي (Denniée) الذي أصبح أكثر براعة في معاينة الأقمشة والسجاجيد عنه في العمل على بناء المستشفيات والمرافق» (...) « وعند عودته إلى فرنسا أرجع ثراءه المفاجئ إلى إرث لحقه من أحد أعمام زوجته، وإذا بروسيني (Rossini) يرد عليه قائلا: « لم أكن أعلم أن داي الجزائر يعد من أعمام زوجتك. »[1]

---

(1). بيار لافون (Laffont Pierre) ، تاريخ فرنسا في الجزائر ، نشر «بلون» (Plon) ، باريس 1980، ص 105.

ويعلق كاتب آخر على هذه القضية قائلا : «وقد حوّل المقتصد دينيي لحسابه الخاص قسما من خزينة أيالة الجزائر...

ماذا كان يفعل الجزائريون في هذه الأثناء؟ لقد كانوا يقاومون على حسب استطاعتهم؛ وعلى إثر اختلال الأمن، «قرر بورمون (Bourmont) الذهاب بنفسه حتى مدينة البليدة في مقدمة طابور طويل لمعاقبة المذنبين. ولقد كان الذهاب دون حادث يذكر إلا أنهم في عودتهم تعرضوا لهجوم فقد فيه الفرنسيون ثمانين جنديا... وقد كان لانتشار هذا الخبر أثر عميق في الرأي العام أدى إلى عقد اجتماع للأعيان المحليين والمرابطين قرروا فيه أن ينظموا الجهاد ضد المشركين الذين احتلوا البلاد. عندها اكتشف الفرنسيون بدهشة ان احتلال مدينة الجزائر لا يعني التحكم في كامل الأيالة بطبيعة الحال.»

لم تكن هذه إلا البداية. ففي شهر نوفمبر 1830، قاد كلوزيل (Clauzel) جيشا قوامه عشرة آلاف جندي لترسيم باي جديد على مدينة المدية. وعند عودته وجد هذا الجنرال «مدينة البليدة وقد امتلأت شوارعها بالجثث... بعد أن غزت المدينة إحدى القبائل المجاورة، لم يجد الرائد ريليار (Rullière) الذي كان مسؤولا عن النظام حلا سوى أنه أمر بضرب أعناق كل سكان المدينة. وقد وبخهم كلوزيل بشدة واستنكر هذه الطرق في التعامل، إلا أن الشر كان قد وقع: لقد ذُبِّح خمسون جنديا مدفعيا عن آخرهم كان قد بعث بهم لإحضار التموينات. ومن هنا بدأ التصعيد الجهنمي، تعديات، وتعسفات، وثأر وما هي إلا البداية.»

... «وردا على دينيي الذي كان يبرر ثروته التي قدرت بمابين خمسة إلى ستة ملايين بأنه قد تلقاها وفي وقتها المناسب من عند عم زوجته، فأجابه الملحن روسيني صاحب معزوفة «الإيطالية في الجزائر» على الفور: «لم أكن أعلم أبدا أن داي الجزائر هو عم زوجتك.»

عن ش. جوليان، تاريخ الجزائر المعاصرة، ص .57، (من التقديم) مذكورة في المرآة لحمدان خوجة، نشر سندباد، باريس، 1985 ص. 182.

طلب الباي الجديد الذي عينه الفرنسيون في المدية نجدة عسكرية، فأرسل الحاكم الجديد بعثة تتكون من 4 500 جندي. ونحن الآن في شهر جوان 1831. وهذه المرة أيضا كانت العودة بثمنها. «كان الانسحاب شاقا فالتحرشات والمناوشات التي لم تتوقف إلا عند بوابات المدينة راح ضحيتها ثلاثة وستون قتيلا، وحيث أن البعثة السابقة كانت قد فقدت مائة واثنين وستين فردا فإن القائد العام كان جد مبسوط بالمائة المقتصدة هذه المرة.»

وقد عرف الجنرال الجديد الذي نصب مؤخرا بوهران سياسته مع الأهالي قائلا: «يجب أن ندخل الحضارة إلى هذا البلد بوسائل غير حضارية. نتائج هذه الطريقة أنه بالإضافة إلى الانسحاب من المدية ها قد جاء الدور للانسحاب من بونة (عنابة).»

«قائد عام رابع يبعث إلى الجزائر، إنه سافاري دوق روفيـڤو (Savary duc de Rovigo) وهو في الأصل رجل شرطة». كان هذا الدوق منذ وصوله مثالا للمحتل الروماني في تصرفه «كيف يمكن أن نخفق في استيطان بلد لا تفصله عن أراضي بروڤانس سوى 150 فرسخا، وتمتاز أراضيه بخصوبة لا تنافسها فيها أجود مقاطعات فرنسا، ومن الشساعة بحيث يمكن أن نوطن به مليونا من العائلات الفرنسية دون أن نمس بملكية أي أحد من الأهالي.» كيف سيتصرف هذا الدوق يا ترى؟ «تعدم قبيلة بأكملها عدد أفرادها يفوق المائة، أبيدوا عن آخرهم وبأوامر مباشرة من سافاري نفسه» والذريعة هي تهمة السرقة (سيتضح فيما بعد أن القبيلة لم تكن لها يد فيها).[1]

---

(1) لافون بيار مرجع سبق ذكره (م.س.ذ.) ابتداءا من ص 105.

لسنا بحاجة الى التطرق للمعارك التي قادها الأمير عبد القادر منذ مبايعته في شهر نوفمبر 1832، حتى 23 ديسمبر 1847 وهو التاريخ الذي أوقف فيه القتال وسلم نفسه للاموريسيار ودوق دومال،

2 - سياسة إبادة الأهالي.

بعد أن أتلف الجنود الفرنسيون المحاصيل وأتوا على الأخضر واليابس؛ لم يبق عند الجزائريين ما يأكلون. «في مدينة الجزائر حيث يوجد عدد كبير نسبيا من الأفراد الواجب تغذيتهم. تظهر لك حشود من الأطفال الصغار وقد رمى بهم الجوع إلى الشوارع للبحث عما يقتاتون به.»[1].

وعن سلوكات وتصرفات الجيش الفرنسي، يقول كاتب جزائري: «لقد ثبت إلى حد بعيد أن هذه الإبادة المباشرة أو غير المباشرة والتي نتجت عن حرب الاحتلال أو عواقبها قد خلفت في المدة المتراوحة مابين 1830 و1860 عدة ملايين من الضحايا في محيط قروي فرضت عليه الجوع، وأتت على سبل معيشته عمليات التهديم والمعارك والهجرة ومليون من سكان المدن اضطروا إلى الهجرة.»[2]

وقد يظن البعض أن هذا الكاتب يبالغ. ولكي نُكون فكرة عَمَّا كانت تقوم به القوات الفرنسية نسرد هنا شهادة أحد الملاحظين الفرنسيين وهو يتحدث عن ظروف احتلال مدينة صغيرة بجنوب البلاد.

اللذين وعده كلاهما: « أنه يستطيع وبكل حرية أن يذهب هو وعائلته إلى حيث يريد الإقامة». غير أنه وعلى نقيض هذه الكلمة التي أعطاها ابن الملك فإن الأمير قد اعتقل بتولون (Toulon). وقد تطلب احتلال بلاد القبائل أكثر من عشر سنوات من 1847 إلى 1857؛ وهذا يعني أن الشعب الجزائري لم يقبل الاستسلام وواصل الكفاح. فلا احتلال العاصمة، ولا استسلام الأمير عبد القادر ولا القبض على البطلة لالة فاطمة نسومر، لا شيء من هذا أوقف الكفاح.

ولكي تنتصر، طبقت القوات الفرنسية سياسة الأرض المحروقة. فنفدت من جراء ذلك مخازن الغذاء، وقضت المجاعة على نسبة كبيرة من السكان.

(1) أوصيق الطاهر، حركة انتفاضة 1871، المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار – رويبة، 1984 ص 8.

(2) مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ماسبيرو، باريس، 1965 ص 25.

3 - مثال حي على احتلال مدينة.

«تعرفت على آثار وتبين لي أنها لمعسكر كبير ... اخبرني م. ك . انه مكان معسكر الجنرال بيليسيي (Pelissier) الذي كان يقابل فرقة يوسف ... وأنه في هذا المكان جرت صفقة الخيول يوم 21 نوفمبر. ثم حدثني عن المعركة الدامية التي جرت يوم 3 ديسمبر، وهجوم يوم 4 والقتال الشرس الذي أعقب سقوط المدينة. كما حدثني عن خسائرنا وكذا خسائر العدو... وكان قد أحصى الموتى حينما حضر بنفسه عمليات ردمهم في الآبار.

«لقد دخلت مدينة مَيّتة مِيتةً قذرة؛ مدينة الأغواط، معظم الابواب كانت مغلقة، وما تزال على بعضها آثار طلقات الرصاص و طعنات الحراب شاهدة على ما حدث، وأنا الآن أقيم في بيت الضيافة... لاحظت بناية قصيرة الارتفاع بها منافذ أفقية ويعلوها صليب حديدي رفيع، علمت أنها مسجد قديم قد حول الى كنيسة. في الصبيحة تركت نفسي انساق نحو قبة سيدي الحاج عيسى، حيث جرت معركة الثالث من ديسمبر... وهنا تعرفت على آثار المعركة و الأماكن التي عاشت مدة الحصار.»

«لقد تحول مدفن هذا القديس الطاهر إلى ميدان لمعركة بشعة، وقد توسط مقام المرابط ميدان المعركة فأخذ واسترد... ودوفع عنه باستبسال... هذه الربوة... تناثرت عليها صخور من الحجم الذي يسمح للإنسان بالاختفاء خلفها. كان الهجوم عليها من ناحية الجنوب وكانت القمة وكل المنحدر المقابل محفوفا بالمقاتلين الذين كانوا ملقون على الأرض يسددون من بين الصخور، فيكون تصويبهم دقيقا وحاسما. لقد استوجب الأمر إطلاق الرصاص على كل الصخور وأحيانا الالتحام بالسلاح الأبيض والعراك الجسدي. وهو نوع الاشتباك الذي

يحبذه العرب ومنذ معركة الزعاطشة لم يسبق أن دخلوا فيه بنفس الحماسة ولا أن وفقوا فيه مثل هذا الوقت الطويل. كان لابد لهم من محاولة ثالثــة حتى تمكنوا من الاحتفاظ بمقام المرابط. فهُدم جزء من القبة ووضعت بداخلها قطعة مدفعية، ثم أحدثت فتحة بشق الجدار المطل على المدينة، وبعد أن التف الطاقم حول قطعته في جوف هذه البناية، بدأ المدفع يبعث بنيرانه صوب البرج الشـرقي للمدينة. .عند ذلك أخـرجت كل البنـادق وأخذت المدينـة بدورها تكثف نيرانها صوب تلك النقطة البيضاء، والتى برزت في وسطها نقطة سوداء كانت تخرج منها بانتظام ودون توقف وسط هالة من الدخان تلك الكرات الحديدية التي أخذت تحفر الأرض على امتداد الهضبة. وقد شهدت هذه الفترة سقوط اكثر ضحايانا... أما القتال الذي توسعت رقعته إلى المدينة والذي شمل كل بيت و منزل، فإنه لم يحس بعنفه إلا العرب الذين كانوا قد فقدوا كل الآمال. ومن بين الألفين وبضعة مئات من الجثث التي انتشلت في الأيام التالية كان أكثر من الثلثين من ضحايا المدينة . فحرب الأزقة وحشية تجعل المحارب يتصرف كالمجنون. زعندما كان الملازم ن. يحدثني عن فترة الحصار... لن تجد صخرة إلا وبها آثار عدة رصاصات وعلمت باللون الأزرق... فدون عليها عدة مرات أسماء الضباط المقتولين، فتقرأ: يوم 4 ديسمبر... الجنرال بوسكارن. هنا تلقى المسكين ميلو الضربة القاتلة. هنا لقي الرائد موران حتفه. هنا الرفيق فرانس. هنا بيسيار.

«أما الآن فلنتحدث عن المدينة... إن كل منزل ليشهد على قتال شرس ودامٍ، لقد كنا نسير على برك من الدماء، وكانت هناك المئات من الجثث، نجمعها كيفما استطعنا ونكدسها كيفما وأينما اتفق وخاصة في

الآبار. وقد مررت بالقرب من إحداها فعلمت انها قد تلقت مائتين و ستة وخمسين بصرف النظر عن جيَف الدواب.»

«عندما انتهينا من ردم كل الموتى، اصبحت المدينة صامتة كأنها امتاد للصحراء. فكل الناجين كانوا قد لاذوا بالفرار. وحتى الكلاب هجرت المدينة مرة واحدة... ومنذ المساء الأول ظهرت فجأة سحب من الغربان والعقبان لا أحد يعلم من أين أتت ولا كيف أتت. وقد ظلت تحلق في سماء المدينة مدة شهر بأكمله وكأنها فوق ركام عفن كبير، وكانت أعدادها من الكثافة بحيث وجب تنظيم حملات صيد لإبعادها.»

«وقد وضعت كل الأملاك المصادرة تحت الرقابة القضائية. أما الغنائم الهائلة من السجاجيد و الحلي و الأسلحة. فهربت ولم يبق منها أي شيئ بداخل المدينة. كل المنازل أصبحت خالية من أفقرها إلى أفخمها وأغناها.»[1]

في هذا الكتاب، يصف لنا أوجان فرومونتان الحالة التي وجد فيها هذه المدينة الضحية ويسرد شهادة ضابط عايش كل تلك الأحداث منذ حصار المدينة وحتى الهجوم النهائي يوم 4 ديسمبر 1852. أفليست هذه الشهادة دليلاً قاطعًا على أنه قد حدثت -حقيقةً- تصفية وإبادة جماعية للأهالي؟.

4 - القضاء على مصادر الرزق.

لم تكن العمليات التي قامت بها القوات الفرنسية محصورة في النشاط القتالي فحسب. ها هو ذا ما سرده طبيب كان يرافق إحدى الحملات. «بينما كان اللفيف يتقدم ببسالة وإقدام على مرتفعات الجبال، كنا نحن نقّطع نخيل البساتين... وقد خربنا مدينتهم و قلبناها رأسا على عقب، كما افرغنا مطاميرهم من القمح والشعير، وأتينا على

(1) أوجان فرومنتان. صائفة في الصحراء، باريس، مكتبة Plon، الطبعة الثامنة والثلاثون، 1924، ص 285.

مزروعاتهم في الحقول، وحرقنا مناسجهم التي يحيكون عليها، و قطّعنا كل أشجارهم المثمرة وأخذنا كل ممتلكاتهم ذات القيمة التي يمكن أن يستعملوها كعملة لمقايضة القوت فيبقوا على قيد الحياة.»[1]

5 - مصادرة المواشي.

زيادة على هذه التصرفات، فإنه كان على الأهالي الجزائريين أن يدفعوا ضريبة حرب على حرب تشن ضدهم: «في شهر ماي 1846 سددت قبائل جبل عمور في ثلاثة أشهر فقط مشاركة في الحرب ما مقداره 3000 عجل و7000 من الضأن... وقد قمعت قبائل حميان التي استضافت الأمير عبد القادر فخسرت 4000 رأس من الماشية أما في 13 جانفي 1847، فقد صودر منها 33000 رأس من الاغنام و 500 من الإبل وعدد من الأحصنة كما أسر وسجن عدد كبير من أفرادها.»

6 - مصادرة الدواب.

لقد كانت مصادرات دواب الركوب والحمل والحرث تترك القبائل دون مصدر للرزق. «لقد استعملنا دوابهم لتجهيز حملتنا... ضرب البؤس عرب هذه المنطقة... لم نترك شيئا وجدناه إلا وأخذناه... ونظرا للجهد الذي حملته تلك الدواب المصادرة فإن معظمها قد هلك في منتصف الطريق، وحتى أصحابها أنفسهم لم تطق أغلبيتهم تحمل قساوة الرحلة، فهلكوا في جوف الصحراء، وحتى زوجاتهم وأبناؤهم الذين تُركوا دون مؤونة ولا زاد فإنهم لقوا المصير نفسه. والعدد القليل من الدواب والعرب الذين تمكنوا من العودة الى عشائرهم وجدوا كل الغلات

---

(1) جاكو (دكتور) حملة الجنرال «كافينياك» في الصحراء، باريس 1847، مذكورة عند جيلالي صاري في كتابه، انتفاضة 1871–1872، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر ص 31.

قد أتلفت بفعل الجراد فوقعوا في الفقر المدقع. » أما مآل بني حميان فلا يقبل حتى المقارنة كما يؤكده الجنرال ديليجي (Deligy): « عند عودتنا كنا ندوس على جيف قطعان المواشي... كان الجو نتنا، كان هناك ما يفوق 100 000 بهيمة ملقاة على الأرض. ثم تقدم ما تبقى من هذه القبيلة التي كانت دولة تتفاخر بأربعة آلاف من الخيل المسرجة وبمواردها الهائلة من الشعير والجمال وقرابة المليون رأس من الأغنام... تقدم ما تبقى منها.. .ليتشفعوا ويطلبوا العفو. »

« تلك إذا أهم جوانب هذه الحرب التي كانت تستهدف إبادة السكان. » كما ذهب إليه الجيلالي صاري[1]. ولم تكن هذه كل جوانب الوضعية، فهناك عوامل أخرى قد تدخلت أيضا.

7 - عمل الكنيسة و البعثات التبشيرية.

بالاضافة الى التجاوزات التي كان الجيش يقوم بها فإن من كان ينجو من حرب الإبادة هذه قد طردوا نحو الأراضي الجرداء تماما كما كان الحال بالنسبة لسكان كاليدونيا الجديدة الأصليين. وقد كان البؤس شديدا و ندرة المواد الغذائية محسوسة بطريقة مؤلمة؛ وطبعا هذه هي الأوقات المناسبة لتدخل رجال الدين. وقد رأينا من قبل أن أول ما لاحظه أوجان فرومونتان، في مدينة الاغواط، هو ذلك المسجد العتيق الذي حول إلى كنيسة بمجرد دخول الجيش الفرنسي إلى المدينة. وها هو ذا لافيجري (Lavigerie) المطران الجديد لمدينة الجزائر يشجع القساوسة على تنصير الجزائريين، فصورة القديس أوغوستين مازالت عالقة بمخيلته. فبدأ

---

(1) صاري (جيلالي) ، انتفاضة 1871–1872الشركة الوطنية للنشر والاشهار ، الجزائر . وهو يذكر أرشيف (فنسان) وزارة الحربية . "أ.و.ح." ملف رقم 238 : H ، مراسلة الحاكم مع وزارة الحربية 12/ 06/ 1869، ص 38 .

القساوسة الكاثوليك يكشفون اتصالاتهم وقد ظن البعض منهم بأن الجزائريين سرعان ما سيتخلون عن ديانتهم الاسلامية؛ إذ لوحظ ضابط سام يحاول جس نبض أفراد «تاجمعت» ليعرف حقيقة مشاعر السكان فكانت الإجابة التي تلقاها: «إننا لن نتخلى أبدا عن ديانتنا، ولو أن الحكومة أرادت إكراهنا على ذلك فإننا سنطلب منها وسيلة لهجرة البلاد. وإذا لم نجد الوسيلة فإننا سنفضل الموت على أن نعتنق ديانتكم».[1]

وقد أراد المطران لافيجري أن يستغل ظروف المجاعة التي أصابت السكان المسلمين، تلك المجاعة التي سببها إتلاف المحاصيل، وقدوم الجراد، و الأوبئة التي أنهكت الأهالي وحصدت الكثير من الأرواح. فأراد المطران أن يستغل الأطفال اليتامى فيربيهم تربية مسيحية .

وهكذا فإن لافيجري، حسب أحد الكتاب الفرنسيين، قد تلقى كامل التفويض من الامبراطور نابوليون الثالث. وها هو ذا ينشئ المراكز لاستقبال اليتامى في كل النواحي. ويعهد بادارتها للقساوسة المطرودين من إيطاليا.

وحسب تقدير لافيجري فإن هؤلاء الأطفال الذين فقدوا آباءهم محكوم عليهم بالموت المحقق، وعلى ذلك فإن الكنيسة ستنقذهم ومقابل ذلك فإنهم سيصبحون مسيحيين. وقد كان يرى بأنه يجب تنصير الأهالي بأي ثمن كان ولو استدعى الأمر استعمال القوة، وهذا حتى يقضى على تأثير القرآن والديانة الإسلامية.

وقد كانت الكنيسة في بادئ الأمر لا تقبل إلا اليتامى الذين يقدمهم أقاربهم العاجزون عن إعانتهم، أطفال كانت تتراوح أعمارهم بين 8 و 10 سنوات؛ جمع منهم 1753، 800 منهم لم يعيشوا

(1) أوصديق الطاهر، م. س. ذ. ص 10.

طويلا. بعد هذا بدأت الكنيسة مرحلة اصطياد الأطفال فتمكنت من تجميع 10 000 يتيم فنظمت اكتتابات لبناء مراكز الاستقبال لهم.[1]

وقد كان تعلق الجزائريين بالإسلام عميقا حتى عند أولئك الذين وافقوا على التعاون مع الفرنسيين. لقد اعترف الباشاغا بن علي الشريف للمارشال ماك ماهون (Mac Mahon) «أنه لن يصبح أبدا مسيحيا، لكنه لا يعلم ما إذا كان أبناؤه أو أحفاده سيصبحون كذلك يوما». وهذا هوالسبب الذي جعل المارشال والقادة العسكريين يعارضون مبادرات المطران لافيجري. وقد أكد هذا الطرح بيار لافون (Pierre Laffon) الذي يضيف أن «بعض الصحف الباريسية تؤكد بأن تنصير العرب يعتبر محوا للخصوصيات المحلية». وطبعا فإن كل هذه المحاولات لم تحقق أي نجاح حيث أن الكاتب نفسه يذكر أنه «من بين 140 قسيسا كانوا في منطقة وهران مابين 1846 و1866، 29 منهم قد عادوا من تلقاء أنفسهم بعد أن فشلوا في مهمتهم و11 طردوا لارتكابهم أخطاء فادحة».[2]

8 - الكوارث الطبيعية.

زيادة على المآسي التي سببها الجيش الفرنسي جاءت الكوارث الطبيعية لتزيد الطين بلة. فابتداءا من سنة 1864 غزت البلاد موجات متكررة من الجراد، بالإضافة إلى الجفاف والمجاعة التي حلت بالبلاد، والأوبئة التي تفشت كداء التيفوس والكوليرا.

ابتداءا من سنة 1864، جاءت إلى الجزائر سرابيل من الجراد واستمرت في الوفود حتى بداية سنة 1866، وقد اصبحت الوضعية الغذائية كارثة

(1). د. يحي بوعزيز، دور عائلتي المقراني و الحداد في انتفاضة 1871. رسالة دكتوراه باللغة العربية، نوقشت بجامعة الجزائر في 1975، و بها الكثير من الاستدلالات بمراجع فرنسية.

(2) بيير لافون. تاريخ فرنسا بالجزائر، م. س. ذ. ص .191.

حقيقية حيث ان الجراد لم يكن يترك لا الأخضر ولا اليابس. فخلال سنوات 1869– 1870، هجم الجراد بوجه خاص على المناطق التي كانت تحت سلطة الباشاغا المقراني، وهو ما دفع هذا الأخير إلى قبول سلفيات من البنوك والمرابيين اليهود وبنسب فوائد تعدت المعقول. وكانت هذه الأموال مخصصة لشراء البذور اللازمة للفلاحة فلم يكن أمامه حل آخر. فاللجوء إلى الربى هنا يصبح مباحا تماشيا مع القاعدة الشرعية القاضية بأن الضرورات تبيح المحضورات.

9 - الأمراض والأوبئة.

وفي تلك السنة نفسها تفشت الأوبئة في وسط الأهالي المسلمين كوباء الكوليرا و التيفوس، وقد عمت العدوى فلم تسلم منها لا المدن ولا البوادي وكانت ضحاياها لا تعد ولاتحصى. وقد قدر الأب بيرزي (Burzet) عدد الوفيات في شهرين بما يفوق 000 250 ضحية. «ولم يكن عند الناس لا الماء ولا الغذاء، فكانوا يقتاتون من أغصان الأشجار عندما يجدونها، وعلى الكلاب، بل وأحيانا حتى على جثث موتاهم. ولم يتردد البعض الآخر منهم في ارتكاب الجنايات الخطيرة أو جرائم القتل حتى يساق إلى السجن ويستفيد بذلك من المأوى والتقوت. وقد كتب الكثير من الضباط عن هذه المجاعة وآثارها على السكان المسلمين. و قد دون أحد هؤلاء الضباط بأن الأهالي الجزائريين قد فقدوا الربع من عدد أفرادهم خلال هذه العشرية الأخيرة.[1]

---

(1). الأب بيرزات. تاريخ الكوارث التي حلت بالجزائر في 1866، 1867، 1868، الجراد و الزلازل و الكوليرا، والمجاعة. (طبع، الجزائر، 1869)، 112 صفحة، أنظر د. يحي بوعزيز (م.س.ذ.)، ص. 67.

10 - مرسوم كريميو.

لقد كان اليهود يعيشون في الجزائر منذ قرون. وكانوا تجارا وحرفيين خاصة في صناعة الحلي والمجوهرات، فكانوا مندمجين تماما في المجتمع ويعيشون في وئام تام مع الأهالي المسلمين وكانوا يؤدون شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية.

وقد بلغ البعض منهم مكانة عالية في المجتمع؛ والكل يعرف حكاية بكري وبوشناق والدور الذي لعباه في قضية الديون الفرنسية تجاه الجزائر؛ ومع ذلك، فإنهم احتفلوا بدخول القوات الفرنسية إلى الجزائر ووضعوا أنفسهم تلقائيا وبكل عفوية في خدمة فرنسا، فطرحت بسرعة مسألة إدماجهم ضمن مجموعة الفرنسيين.

وقد كانت قضية منحهم المواطنة الفرنسية مطروحة عند العديد من المسؤولين الفرنسيين وظهر أول مشروع في هذا الاتجاه سنة 1843 بدعوى أنه من مصلحة فرنسا أن تدمج فيها يهود الجزائر.

وفي سنة 1858 قدم المجلس العام بقسنطينة اقتراحا في هذا المضمون ثم تبعه في ذلك يهود العاصمة الذين تدخلوا لدى مجلس الشيوخ ليتم إدماجهم ويستفيدوا من حق الانتخاب.

في 14 جويلية 1865 صدر نص يقضي بمنح المواطنة الفرنسية ليهود ومسلمي الجزائر بصفة فردية وبعد طلب شخصي، مع الحفاظ على الحالة الشخصية.[1]

---

(1). فورست لويس، تجنيس يهود الجزائر و انتفاضة 1871 – دراسات تاريخية، – باريس، الشركة الفرنسية للمطابع والمكتبات 1896 صص. 3، 19، 55، مذكور عند يحي بوعزيز (م.س.ذ.) ص 113.

وكان المحامي أدولف كريميو قد أخذ القضية على عاتقه منذ البداية أي في فترة حكم لويس فيليب، وسعى منذئذ إلى تنظيم اتصالات مع يهود الجزائر. وقد قام بأكثر من ست عشرة رحلة إلى الجزائر لمقابلة رؤوس الجماعات اليهودية، والتحضير معهم لأنجع خطة لتحقيق الادماج. وقد شارك كريميو في تحرير تقرير عرض على حكومة إيميل أوليفيي؛ إلا أن المارشال «ماك ماهون» وقف ضد هذا المشروع لأنه في نظره قد يحرج الجزائريين و فضل أن يترك لكل فرد، مسلما كان أم يهوديا، الخيار في طلب الاستفادة من المواطنة الفرنسية.

وعند إنشاء جمهورية الرابع من سبتمبر 1870، عين كريميو وزيرا للعدل مكلفا بشؤون الجزائر، وسرعان ما بلغ هدفه و تحصل من حكومة تيار (Thiers) على مرسوم 24 أكتوبر 1870 الذي يحمل اسمه، والذي يقضي بمنح المواطنة الفرنسية لكل يهود الجزائر وبصفة سلطوية أي إلزامية.

وهكذا فقد قسمت الحكومة الفرنسية السكان الجزائريين إلى فئتين، فمنحت حقوق المواطنة الفرنسية لـ 35 000 يهودي جزائري بينما حكمت الباقي المسلمين بحد السيف و التهميش و الاحتقار.

11 - الجزائر مستعمرة استيطان.
أو مصادرة الأراضي لتوطين المعمرين.

أصبح اليهود يعملون كأعوان للقوات الفرنسية وهو الشيئ الذي زاد من حدة غيظ الجزائريين. وها هم المستوطنون الجدد الذين بدأوا يفدون على البلاد يرون أن مجتمعهم قد عزز بـ 35 000 مواطن، يعرفون البلاد حق المعرفة ويتحدثون لغة أهلها و يعرفون كل عاداتهم وتقاليدهم.

ترى هل سيتحقق حلم دوق دوروفيقو؟ لقد اختارت فرنسا سياسة تهجير الجزائريين من أراضيهم، وخاصة على طول الـ 1 200 كلم الساحلية

المقابلـة لفرنسـا وعلى عمـق يتراوح بين 100 و 150 كلم إلى الداخل، وذلك حتى توطن بها بني عمومتها من الأروبيين. لقد قررت ان تحول الجزائر إلى مستعمرة استيطانية فلم تترك للجزائريين إلا الصعود إلى الجبا ل أو الرحيل إلى الهضاب العليا.

كما قُرر اتجاه آخر يتمثل في جذب رؤوس الأموال الكبيرة، والشركات الكبيرة، ورجال الأعمال، وهي دوائر كانت تربطها علاقات وثيقة بالسلطات الجديدة. وعليه أصدر مرسوم يرخص بإقامة مشاريع كبيرة في الجزائر من شأنها أن تزيد من كثافة العنصر الأروبي في المستعمرة الجديدة. وكان أول المستفيدين من هذا المرسوم رجل أعمال باريسي استلم في سنة 1854 أرضا تبلغ مساحتها 2.572 هكتارا في ناحية تيبازة القريبة من العاصمة. وقد أجبرت هذه العملية 96 عائلة جزائرية على التخلي عن أراضي أجدادهم.

وقد تحصلت الشركة الجينيفية التي أنشئت سنة 1853 برؤوس أموال سويسرية على 281 000 هكتارا لمدة عشر سنوات. أما الشركة الجزائرية فقد استفادت سنة 1865 من 100 000 هكتار كي توطن بها 20 000 عائلة أوروبية، وتمنح في المقابل للحكومة قرضا قدره مائة مليون فرنك.

كما استفادت الشركة العامة للهبرة ومقطع الحديد في سنة 1865 من 250000 هكتار على أن تأخذ على عاتقها بناء سد بفرقوف القريبة من المحمدية،فيما استفادت الشركة الغابية من 160 000 هكتارا من الغابات لاستغلالها خلال 60 سنة، فباعتها لثلاثين مقاولا أوروبيا.

وحتى توطن المعمرين الجدد كانت السلطات تطرد الأهالي المزارعين؛ كما كانت علاوة على ذلك تهب الأراضي للجمعيات المسيحية واللجان الكنسية التي كانت بدورها تبيعها للمعمرين .

من سيستفيد من هذه الأراضي؟ فتحت فرنسا «وكالات ومكاتب في كل أحياء باريس، وكانت السلطات... تدعو البطالين والعائلات المعوزة لتسجيل أنفسهم في القوائم حتى تتمكن من الحصول على تنازلات أرضية في هذه المنطقة الحديثة الاحتلال والقريبة جدا من فرنسا. وقد كان المعمرون يفدون في أفواج متلاحقة... فترى الموانئ وقد اكتظت بهم قبل أن يساقوا إلى المزارع التي كانت معدة لتوطينهم...[1]

ولم يكن ذلك ليكفي حيث أن بيير لافون يذكر:«لقد وفد رجال من كل من بالما، وأليكونت، وباليرما، ومالطا، لقد كانوا رجالا غلاظا ذوي بأس، أنهكم البؤس، فكانوا يهرولون...لاستصلاح واستغلال تلك المساحات الفسيحة التي كانت الجمهورية الثالثة الفتية، قد منحتها – في إطار اعترافها السخي بالجميل – لمنفيي أحداث الثاني من ديسمبر، وللفارين من سجن لمبيز (Lambèse) »[2]

وليس هذا بالشيء الغريب إذ أن: «الجنرال يوسف...كان يقدر مساحة الأراضي التي يمكن نزعها من الأهالي في أيالة الجزائر لوحدها بحوالي 000 320 2 هكتار.»[3]

(1). أوصديق (الطاهر) م.س.ذ. ص، 7.

(2). لافون (بيار) الذي يذكر بول أشار (Paul Achard) في ص243.

(3). الأشرف (مصطفى) الذي يذكر تروملي في ص، 233 من كتابه السابق الذكر.

الفصل الثاني

الحركة الثورية لسنة 1871

لقد جرّدت سياسة التوطين الإستعمارية الجزائريين من أراضيهم وأملاكهم، حيث فقدوا أراضيهم وماشيتهم، وبالتالي وسائل معيشتهم. ماعساهم يفعلون بعد أن طُردوا نحو الجبال والأراضي القاحلة، وأُبعدوا عن المناطق الزراعية، مجبرين على البحث عن شيء يقتاتون منه دون جدوى؟

وكل هذه الأوضاع التي تسبب في خلقها الاستعمار، هي التي دفعت الجزائريين إلى الانتفاض عام 1871.

ويوحي لنا ذكر هذه الثورة المسلحة باسمين عظيمين، وهما الباشاغا المقراني والشيخ الحداد . من يكونان ؟

أصول المقراني:

ينسب معظم المؤرخين هذه العائلة إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد أكّد هذه المعلومة رين (Rhinn) في إحدى كتاباته، كما أشار إليها مولود قايد قائلا: «لعائلة المقراني شجرة نسب تصل تفرعاتها بفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلّم.» لكن، ولأسباب معيّنة، تُنسبها التقاليد المحلية، إلى أمراء قلعة بني حماد بجبل كايانا (Kiana). في القرن الحادي عشر ميلادي الذي شهد غزو بني هلال، كان أمراء عياد أثبج ينتمون إلى عائلتين، أولاد عبد السلام، وأولاد ڤندوز وهما الاسمان اللذان استمر حملهما من قبل عائلة المقراني فيما بعد. وكانت العائلة دائما محسوبة على الأجواد و ليس على الزوايا.[1]

(1)مولود قايد، المقراني، دار الأندلس، الجزائر 1993، ص. 14.

كما كتب أحد المؤلفين الفرنسيين قائلا أن الأمير عبد الرحمان، الجد الأكبر لعائلة المقراني، كان من أصل مغربي. وكان ذا أصل شريف وقد يكون قد استقر به المطاف في منطقة البيبان. ويذهب آخرون إلى أن أصل آل المقراني يعود إلى الحفصيين الذين حكموا قسنطينة، وبعد احتلال الإسبان لمدينة بجاية، استقرّ أحد أفراد العائلة وهو الأمير عبد العزيز ببرج بني العباس في حدود سنة 1510، ومنذ ذلك الحين أصبحت العائلة ذات سيادة على المنطقة.[1]

علاقات عائلة المقراني بالأتراك.

استفاد أحد كبار العائلة كثيرا من العلاقة التي كانت تربطهم مع الأتراك، فتمكّن من بناء جيش قوامه 12000 جندي، وهذا للمشاركة مع حسان أحد أبناء خير الدين لتحرير وهران من الإحتلال الإسباني سنة 1563. إلا أنه وبعد وفاته، تشتتت العائلة وانقسمت إلى أربع فئات. واغتنم الأتراك هذه الفرصة، وشجعوا هذا الانقسام الذي كان بالنسبة لهم ذا فائدة كبيرة، إذ أن العائلة عندما كانت متحدة كانت ذات نفوذ كبير على منطقة بأكملها. وبقيت الأوضاع على حالها حتى دخول المحتل الفرنسي سنة 1830.

أوضاع عائلة المقراني إبتداء من سنة 1830.

ابتداء من هذه السنة ظهر وبقوة إسمان تسابقا نحو قيادة العائلة وهما الحاج محمد بن عبد السلام المقراني الذي كانت ابنته متزوجة مع أحمد باي قسنطينة، من جهة، وأحمد المقراني الذي عُيّن من طرف باي قسنطينة على رأس مجانة، من جهة ثانية. وقد كانت للباي مشاكل مع

---

(1) د. يحيى بوعزيز، الذي ذكر في أطروحته العديد من المؤلفين ومن بينهم إبن خلدون.

صهره عندما فضل عليه قريبه؛ بل وقد وصل الخلاف إلى درجة أن أوقف أحمد باي الحاج محمد بن عبد السلام وسجنه (بالكدية). ولكن هذا الأخير اغتنم الفوضى التي سببها هجوم الجيش الفرنسي على قسنطينة، وفرّ من سجنه بتاريخ 13 أكتوبر 1837.

بعد التوقيع على معاهدة تافنة، توجه الأمير عبد القادر في شهر ديسمبر 1837 إلى منطقة التيتري وونوغة حيث استقبل كلا المقرانيين المرشحين للخلافة بالمنطقة. وكان قرار الأمير لصالح الحاج محمد بن عبد السلام المقراني الذي كان عليه أن يجعل مقر قيادته بسطيف. وقد استاء كثيرا أحمد المقراني من هذا القرار فتوجه إلى قسنطينة في جويلية 1838 وقدم ولاءه للجنرال ڤالبوا (Galbois) وهذا بعد أن تشاور مع رفقائه بوعكاز بن عاشور وعلي بن باحمد. وقد قبل الفرنسيون طلبه بكل ارتياح وعينوه كخليفة على المنطقة ومنحوه سلطات واسعة، وقد قدم الجنرال فالي (Vallée) لتنصيبه رسميا يوم 24 أكتوبر 1838 في حفل أُقيم له خصيصا بقصر الباي بقسنطينة.[1] وفي هذه الأثناء كان الأمير عبد القادر قد سحب ثقته من الحاج محمد بن عبد السلام الذي استسلم للفرنسيين بدوره سنة 1845، الأمر الذي سمح له باسترجاع أملاكه.[2]

عندئذ بدأت المشاكل تحل بالخليفة وبدأت سلطته تتقلص، بل وأكثر من ذلك فقد أصبحت سلطته تابعة لما يقرره الضابط القائد لمنطقة برج بوعريريج. وعلى الرغم من ذلك فقد بقي وفيا للفرنسيين ويساعدهم في القيام بالعمليات الشرطوية. وحسب هربيليون، فإن أحمد المقراني قد

---

(1) مولود ڤايد مقراني. م.س.ذ. ص 45.

(2) بوعزيز يحي. م.س.ذ.

شارك هو ورجاله إلى جانب الفرنسيين في معركة الزعاطشة الكبيرة التي جرت سنة 1849[1].

وقد لاحظ المراقبون تغيرا في سلوك السلطات منذ أن رأوا بسطيف الباشاغا جالسا جنبا إلى جنب مع المارشال راندون عند زيارته للمنطقة. وقد اختار المقراني هذا الوقت بالذات ليطلب ويتحصل على الإذن بالذهاب إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج.

وفي طريق عودته مع بداية عام 1853، وعند مروره بمدينة مارسيليا، وجد في انتظاره رسالة من الإمبراطور يدعوه فيها لحضور حفل زفافه المُقام بباريس، وقد تلقى هناك استقبالا حارا ومُنح له وسام شرفي، وعند عودته إلى مارسيليا أصاب الباشاغا المرض وتوفي في 4 أفريل 1853. وقد نقلت جثته إلى الجزائر حيث دُفن إلى جوار أجداده بالمقبرة العائلية.

ولاية عهد الخليفة.

بعد وفاة الخليفة، تولى المنصب إبنُه الذي حمل لقب الباشاغا. وقد كان صاحب خصال حميدة، وسرعان ما باشر مهامه وكان رعاياه جد مسروريين به. في سنة 1855 توجه الباشاغا إلي مكة لأداء حجة، وفي طريق العودة، مر بتركيا وفرنسا حيث لقي مثل أبيه استُقبالا من طرف أعلى المسؤولين في السلطة.

في سنة 1857، عُين بمنطقة برج بوعريرج قائد عسكري جديد، فتغيرت طريقة التعامل مع الباشاغا وأصبح يتصرف دون أن يشاوره. وهكذا شاهد الباشاغا أن مساحات كبيرة من الأراضي، بلغت حوالي

(1) الجنرال هربيليون، الثورة التي وقعت جنوب ناحية قسنطينة في 1849، العلاقات مع حصار الزعاطشة. باريس 1863 ص. 146–149 ذكرها يحي بوعزيز.

الخمسة آلاف هكتار، قد نُزعت من أفراد عائلته لتوطين مستعمرين جدد. ورغم ذلك فإن الباشاغا قد استمر في «أداء واجبه»، وشارك هو ورجاله في عملية ردع ثورة بوخنتاش بمنطقة (الحضنة).

ولم تتوقف الإهانة عند هذا الحد؛ فقد أصبح الضابط لا يتردد في إعطاء الأوامر للباشاغا، بل و أكثر، فقد وصل إلى درجة أن طلب منه تخفيض عدد حراسته؛ في الوقت الذي كان قد تلقى فيه دعوة من طرف الأمبراطور، يطلب فيها منه المشاركة في نزهة صيد بغابة كومبيان. و أكثر من ذلك فعند عودته وجد الباشاغا أن قيادا جدداً قد تم ترسيمهم ولم يكونوا تابعين لسلطته .

كما منعه الضابط العسكري حتى من إقامة التويزة التي كان ينظمها لإنجاز الأعمال ذات المنفعة العامة. وقد تواصلت تجاوزات هذا الضابط العسكري حتى تقلصت سلطة الباشاغا إلى حدها الأدنى .

اندلعت ثورة بمنطقة فرجيوة، تم إلقاء القبض فيها على بوعكاز بن علي بحجة أنه كان المحرض عليها. ثم توسعت ثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الغربي حتى وصلت إلى منطقة الحضنة، فبدأت الشكوك تحوم حول المقراني حتى أن بعض المعمرين قد اتهموه علانية.[1]

الباشاغا ينجد الفلاحين :

عاشت الجزائر خلال السنوات التي سبقت الانتفاضة فترة عانت فيها من الجفاف وكوارث الجراد وخسر فيها الفلاحون أملاكهم، كما حلت المجاعة ببيوت عديدة، ووفقا لكل هذه الظروف، طلب الحاكم «ماك ماهون»

---

(1) ميرسيي (إرنست). الباشاغا المقراني وأسباب الثورة المسلحة لسنة 1871. طبع ج. لافاري، باريس، 18 أوت 1900. ص 14 –17. ذكرها يحي بوعزيز في ص 50.

من الأرستقراطيين الجزائريين مد يد المساعدة لفئة الفلاحين والمزارعين، كما أوصى البنوك بمنح القروض لأرباب العائلات الكبيرة حتى يتمكنوا من اقتناء البذور اللازمة لموسم الزرع. وقد كان الباشاغا وأعضاء عائلته من أوائل من قاموا بتوزيع الشعير والقمح على الفلاحين. كما قام بتفريغ جميع المخازن وطلب قروضا من البنوك والمرابين اليهود بهدف تمكين الفلاحين من بذر أراضيهم، حتى إنه قد اضطر لرهن بعض من أملاكه الخاصة لضمان تلك القروض. لكن ومع الأسف بدا وكأن تلك السنة جاءت أسوأ من السنوات التي سبقتها، ولم يستفد منها الفلاحون بشيء، وعندها زادت مطالبات وضغط الدائنين على الباشاغا.

حين أصبح لفرنسا حكومة جديدة بتاريخ 4 سبتمبر 1870، أصبحت وعود «ماك ماهون» مجرد كلام. وحسب ما كتبه بعض الضباط الفرنسيين فإنه لم يبق للمقراني سوى حل وحيد، وهو الانتفاض لتصفية الحسابات.[1] وقد اعترف (إميل تويليي) من جهته، أن المقراني قد استجاب لدعوة «ماك ماهون» بتفريغه المخازن العائلية لصالح فلاحي المنطقة. ونظرا لعدم كفاية تلك الكميات، عمل المقراني برأي الحاكم واستدان من البنوك والمرابين مع قبول الشروط التي وضعوها، ظنا منه أن الوعود التي نطق بها ممثل الحكومة كافية، إلا أن الحكومة المدنية الجديدة رفضت الالتزام والبر بوعود المارشال.[2]

(1) رين لويي، تاريخ انتفاضة 1871 بالجزائر، الجزائر، مطبعة جوردان 1891 ص 50–51 و 60، 84 صفحة و خريطتان، ذكرها د. يحي بوعزيز الذي ذكر أن روبن أيضا يشاطر نفس الرأي في كتابه حول ثورة المقراني.

(2). إيميل تويليي . البلاط العربي أمام محكمة قسنطينة ، باريس في 15 أفريل 1873 ، ص 22–29 ذكرها د. يحي بوعزيز في ص 84 .

يعتبر بيير لافون المدير السابق لجريدة «صدى وهران» ثورة 1871 من أهم الثورات بعد تلك التي قام بها الأمير عبد القادر. وكتب مضيفا: «عندما غادر (ماك ماهون) العاصمة.... اقترح عليه الباشاغا المقراني -وهو أحد أكبر الإقطاعيين وحظي بشرف استقبال نابوليون الثالث بكومبيان- مرافقته على رأس جيش قوامه 1500 رجل لمحاربة البروسيين... إلا أن هذا الطلب كان فوق طاقة المارشال.

ودائما فيما يخص المقراني، أضاف بيار لافون قائلا: «لقد عمل الجيش تدريجيا على تقليص سلطته وموارده بالدرجة الأولى. إضافة إلى خسارته لمبلغ 350.000 فرنك من ماله الخاص والذي قدمه لسكان منطقته لشراء المؤن خلال «السنوات الرهيبة» وكان ماك ماهون قد أعطى كلمته بضمان تسديدها. إلا أنه مع ذهاب هذا الأخير، لم تقبل أية جهة تسديد المبلغ. وخلال هذه السنوات الصعبة كان المقراني قد قدم للفلاحين كل مخزون عائلته من الحبوب والقمح والشعير، كما ارتفعت قيمة الديون، بسبب نسب الفوائد، حتى وصلت إلى 2 مليون فرنك فرنسي.[1]

ماذا كان بمقدور الباشاغا فعله، لقد رأى أن الإدارة الجديدة لم تعد تهتم إلا بشيء وحيد، هو إيجاد أراض جديدة لتوطين المعمرين الذين مازالوا يتدفقون في الموانئ؟ وعليه، ترك الباشاغا قلعة بني عباس وارتحل إلى محل إقامته بالجزائر العاصمة .

في شهر أكتوبر من سنة 1870 استُدعي مرة أخرى إلى برج بوعريريج، فوسع طريقه معرجا على عدة مناطق، للالتقاء بأكبر عدد من الناس والتعرف على شعور أصدقائه تجاه الإدارة الاستعمارية. وقد وجد لدى الجميع نفس التذمر و الغضب الثوري، وهكذا قرر تنظيم الثورة.

---

(1) بيار لافونت، تاريخ فرنسا بالجزائر. م. س. ذ.

عائلة الحداد

يعود أصل هذه العائلة إلى قرية صدوق العليا الواقعة بشرق البلاد، حيث قدم واستقر جدهم الأكبر في أواخر القرن الخامس عشر.

كان والد الشيخ، المُسمى علي بن محمد الحداد، مثله مثل جميع أعضاء عائلته الآخرين، حدادا. صاحب أملاك كثيرة وكان يُعرف بالإحسان وفعل الخير، حتى أنّه كان أول من فتح مدرسة بالقرية تتسع لثلاثين تلميذا تكفل لوحده بكل مصاريفها، فكان حبه للعلم عظيما مع أنه كان أميا لا يعرف لا القراءة ولا الكتابة. وبالإضافة إلى ذلك فإن بيته كان دائما مركزا لاستقبال المساكين وأبناء السبيل، فيجدون عنده المأكل والمأوى .ولم يكن علي بن محمد الحداد ينتظر من وراء ذلك طائلا، سوى مرضاة الله عز وجل.

وكان لعلي أربعة أبناء. ورث الثلاثة الأولون عنه مهنة الحدادة، بينما التحق محمد أمزيان وهو أصغرهم بتلامذة المدرسة لتعلم القراءة والكتابة، ثم انتقل إلى زاوية الشيخ بن عراب –المشهورة آنذاك في كل منطقة القبائل– أين متن معارفه. وبعد إنهاء دراسته انخرط محمد أمزيان في الطريقة الرحمانية التابعة لسيدي عبد الرحمان بوقبرين.

الشيخ الحداد، شيخ الطريقة (الصوفية):

عند عودته، تولى إدارة مدرسة أبيه، التي كانت تخرج العديد من رجال الدين. فتوسعت المدرسة بسرعة وازداد عدد الطلاب الوافدين إليها. فكانوا يتدفقون من جميع النواحي للاستفادة من علمه، بعد ذلك تسلم مشيخة الطريقة التابعة لسيدي عبد الرحمان.

بعد وفاة والده، ونظرا لارتفاع عدد طلاب العلم، والمنخرطين في الطريقة، قام الشيخ الحداد ببناء مسجد خارج القرية حتى بلغ عدد

التلاميذ 400، وكلهم تحت كفالة الشيخ الحداد، وبالإضافة إلى ذلك فإنه كان ما يزال يستقبل أعداداً كبيرة من مريدي الطريقة الرحمانية. كانت الوجبات تقدّم يوميا لحوالي خمسمائة شخص. في الصباح كسرة مصحوبة بالتين وزيت الزيتون، وفي المساء يقدم الثريد باللحم للجميع دون استثناء. كانت لعائلة الحداد موارد من أملاكها، وكان مريدو الطريقة يقدمون مساعداتهم، إلا أن تلك المساعدات والموارد توقفت، مع حلول سنتي 1867–1868 «سنتي الرعب»،(*) في الوقت الذي بقي فيه عدد البطون المحتاجة إلى القوت يزداد يوما بعد يوم.

كان لعائلة الحداد أقارب ببني منصور والتيقري مع الإيموليين(**)، لكن الشيخ الحداد الذي أصبح شيخ الطريقة الرحمانية الوحيد الذي كان يُؤخذ بعين الاعتبار في تلك الآونة.(1)

أما الآن، وقد تعرفنا قليلا على كلتا العائلتين، فلننتقل إلى الظروف التي شهدت اندلاع الانتفاضة والتي تعود في الأصل إلى سنة 1870، وهو ما سيدفعنا إلى ذكر الدور الذي لعبه محي الدين ابن الأمير عبد القادر.

دور محي الدين ابن الأمير عبد القادر:

لا يمكننا التحدث عن الانتفاضة دون التطرق إلى الدور الذي لعبه فيها محي الدين. وقد حظي هذا الأخير، الذي كان يعيش مع أبيه في منفاه بدمشق والذي اشتهر بثقافته الواسعة وعلمه الغزير، ويحظى بتقدير

(*) ما زالت تتداول في العامية عبارة «عام الشر» وربما كان أصلها من هاتين السنتين العجاف. (فريق الترجمة).

(**) قبائل إيمولة

(1). د. بوعزيز (يحي) الذي يستدل بكتاب «رين» المرابطون و«لخوان»، الجزائر، 1884 ص 452 و456، وأيضا مارسيل سميان: الطرق الإسلامية في الجزائر، الرحمانية والتيجانية، الجزائر، 1910، ص 54 و56.

كبير من قبل أعلى السلطات العثمانية. وكان السلطان عبد العزيز قد أسدى له وساما سنة 1865 وعينه قاضيا على إزمير، وهو المنصب الذي احتفظ به حتى سنة 1870.

كان كل من يرتاد مجلس القاضي محي الدين يحس باشتياقه الشديد إلى العودة للبلاد وتحرير الوطن من قبضة الاستعمار الفرنسي. وفي سنة 1870 سافر محي الدين إلى تونس التي وصلها في شهر أكتوبر. ولم يكن بوسعه دخول الجزائر كما كان يرجو، وهذا بسبب التشهير الذي صحب تنقله. وبالتالي اكتفى -كما أوصاه صديقه الشيخ عبد العزيز البيطار- بكتابة حوالي مائتي رسالة بعث بها سرا إلي القادة والأعيان في الجزائر، يدعوهم فيها إلى إعداد العدة للحرب من أجل طرد المحتل.[1]

كتب المؤرخ التونسي التميمي أن محي الدين قد توجه إلى تونس بهدف جس نبض آراء قادة هذه البلاد فيما يخص المساندة والعون اللذين قد يمدونه بهما إذا ما دخل في الحرب من أجل تحرير الجزائر. وبعدما لاحظ أن القادة التونسيين كانوا منشغلين بشؤونهم الداخلية فقط، غادر تونس بتاريخ 21 نوفمبر من سنة 1870 عن طريق البحر باتجاه سوريا لتضليل أجهزة المراقبة التونسية. ثم توقف بجزيرة مالطا وغير اتجاهه نحو طرابلس ليدخل منها إلى الجنوب التونسي، حيث سيتقابل مع اللاجئين الجزائريين.[2]

حُفت زيارة محي الدين ولقائه برفقائه بكثير من السرية، وقد بذل من جهته كل ما بوسعه لتفادي المراقبين التونسيين الذين كانت فرنسا تمارس

---

(1) يذكر هنا د. يحي بوعزيز مؤلفين عربيين هما عبد العزيز البيطار وعادل الصلح، ص 132.

(2) يُبرز المؤلف هنا أهمية الوثائق التي تمكن من الحصول عليها بفضل الأستاذ التونسي عبد المجيد التميمي. وهي تحتوي على كتابات من مصادر مختلفة عن النشاطات التي قام بها محي الدين في تونس.

عليهم الكثير من الضغوطات. وبالرغم من حذره الشديد، فقد تفطنت السلطات التونسية لوجوده بالمنطقة، كما علمت بتواجد عدد كبير من اللاجئين الجزائريين بليبيا، وقد كانوا يتهيأون للعودة إلى البلاد بغية تحريرها تحت إمارة محي الدين، الذي كان قد أعد لاستقباله في المنطقة من قبل إبراهيم بن عبد الله وبن ناصر بن شهرة.

وبالاضافة إلى لقاء محي الدين ببن ناصر بن شهرة الذي كان يجاهد الفرنسيين منذ سنة 1851 وقد أقام قاعدة خلفية في هذه المنطقة من الجنوب التونسي. فقد التقى أيضا بعدد كبير من غيره من الجزائريين.

وقد اجتمع كل هؤلاء وآخرون غيرهم حول شخص ابن الأميرلاعداد أنفسهم للجهاد من أجل تحرير الوطن، خاصة وأن الفرنسيين كانوا قد دخلوا في مواجهة مع البروسيين.

وُجهت عدة رسائل إلى الجزائر تدعو القادة لتحضير السكان للجهاد، وتخزين المؤن والذخائر. وكانت هذه الرسائل المبعوثة في شهر ديسمبر من سنة 1870 موقعة من قبل محي الدين الذي استعمل كلا من ختم أبيه وبن ناصر بن شهرة.

وقد كان المقراني من بين الذين تلقوا الرسائل كما سيُؤكد على ذلك أخوه بومزراق فيما بعد.[1]

وقد اشتكى الفرنسيون للأمير عبد القادر تصرفات ابنه ونشاطه، وتأكيدا لذلك بعث برسائل إلى العديد من السلطات ليستنكر ما يقوم به

---

(1). عندما خلف أخاه، كتب بومزراق بنفسه « ولقد استلمنا رسالة من ابن الحاج عبد القادر الموجود حاليا بتبسة والذي يتقدم باتجاه قسنطينة على رأس المجاهدين بالاضافة إلى أولاد حمزة في جبل عمور، إن كل المشرق والمغرب يتحرك فعسى الله أن يجعل النصر حليفنا ». ذكرها يحي بوعزيز في ص 137.

ابنه. وقد كتب الأمير في إحدى هذه الرسائل فيما كتب «إن عدو الله... المجنون محي الدين يتواجد حاليا في الحدود ما بين الجزائر وتونس، فليعلم الناس ويتأكدوا من استنكاري صنيعه هذا» كما كتب الأمير أيضا إلى قريبه الطيب بن المختار، قاضي مدينة معسكر يطلب منه إعلام الناس بأن الأمير يستنكر ما يقوم به ابنه.

ولم تكن المصالح الفرنسية نائمة عن ذلك فقد جندت كل الوسائل الممكنة لإيقاف هذه الحركة التي بدأها محي الدين وأصدقاؤه.[1]

وقد كان للسلطات التونسية أيضا رد فعل في نفس الاتجاه بأن أصدرت أمرا بإلقاء القبض على محي الدين وعلى كل جزائري يتجه نحو الجنوب للعبور إلى الجزائر.

ورغم كل من نداء الأمير وقرار السلطات التونسية هذا فإن محي الدين قد استمر في تنفيذ مخططه. ومع بداية 1871 توجه رفقة قواته نحو تيفرين ثم قام باحتلال قرية الفرقان. وفي هذه القرية تلقى نداء سكان الجنوب الذين دعوه للتوجه إلى وادي سوف، إلا أنه فضل التقدم باتجاه مدينتي شريعة وتبسة. وفي يوم 26 مارس لقي محي الدين ورفاقه تشكيلة عسكرية يقودها الجنرال بوجي (Beauget)، وكانت هذه التشكيلة أقوى منهم بكثير سواء في العدد أو العدة؛ وبطبيعة الحال فإنه وأمام جيش أكبر عددا وأحسن عدة يكون الانتصار إلى جانب الأقوى، بعدها انسحب محي الدين إلى تونس ومنها عاد إلى منفاه واستقر بمدينة صيدا التي أصبحت اليوم لبنانية، وعاش بها قرابة السنة، قبل أن يستجيب أبوه للوساطات المتعددة ويعفو عنه. فاستجاب الأمير وبعث في 15 شعبان (نوفمبر 1871) برسالة إلى الحاكم العام بالجزائر يخبره فيها بأن ابنه قد

---

(1) يستدل هنا المؤلف برين في كتابه، تاريخ انتفاضة 1871 بالجزائر ص، 105 إلى 108.

عاد إلى دمشق.[1] وليس هناك شك بأن محي الدين لعب دورا مؤكدا في أحداث 1871، إلا أنه يبقى دورا غير مباشر بالنسبة لانتفاضة المقراني والشيخ الحداد. إلا أن نشاطه المسلح مع رفاقه في الحدود الشرقية من البلاد قد كان له تأثيره وانعكاساته على الجزائريين الذين أستجابوا على الفور ودون تردد لنداء المقراني والحداد.

شهدت سنة 1870 تشكيل حكومة تيير التي أعطت المعمرين بالجزائر سلطات أوسع، ومنحت الجنسية لليهود، وهو ما أثار غضب الجزائريين وأولي الأمر منهم.

رد فعل السكان :

كان رجال الدين ينتقلون من منطقة إلى أخرى، وبدأ السكان في تخزين الحبوب والمؤن الأخرى، وحتى الماشية أُبعدت عن المدن، كما عرفت عمليات بيع الأحصنة والأسلحة رواجا كبيرا وكأن الجميع ينتظر حدثا هاما.

منذ أن انتقلت البلديات إلى يد المعمرين، أصبح أشياخ القبائل وكأنهم مجرد تابعين لهم. وفي واقع الأمر فإن البلاد كانت تعيش ثورة حقيقية: ففي الغرب انتصر أولاد سيدي الشيخ في الحدود المغربية بتاريخ 17 أفريل 1870. كما انتشرت حركة إبن خدومة التي انطلقت في زمورة بالقرب من غليزان، ووصل امتدادها حتى منطقة جرجرة وسور الغزلان. وفيما يخص حركة (الصبايحية)، أولئك الأعوان الجزائريون الذين جندهم الجيش الفرنسي والذين تلقوا أمر الالتحاق بفرنسا للمشاركة في الحرب بأوروبا، فقد ثاروا بدورهم. وقد وصل الأمر إلى أنهم قد قُمعوا بمنتهى القسوة.

---

(1) بوعزيز يحي م.س.ذ. ص 142.

مع ذلك فقد انتشرت حركتهم، حيث إلتحق بهم جزائريون آخرون، فأضرموا النيرانَ بعدة مزارع تابعة للمعمرين وخربوا الخطوط الهاتفية التي تربط بين سوق اهراس وقالمة وقتلوا ضابطا فرنسيا. وقد قُدر عدد القتلى الأوربيين في هذا الثوران الذي انطلق في جانفي 1870 بـ 15 شخص.

وقد قام كل من (الصبايحية) وبن ناصر بن شهرة وعائلة بن رزقي على رأسهم القبلوتي بن الطاهر والشيخ علي ميزوني –والذين نفوا جميعا– بحركات نشيطة ومتعددة ضد الوجود الفرنسي بالجزائر.[1]



لقد كان الصبايحية (السبايس) الذين رفضوا المشاركة في جميع المعارك التي قادتها فرنسا هم الأوائل الذين بادروا بالثورة والعصيان.

انتهت ثورة أولاد عبدون باختطاف 400 أسير من أفراد هذه القبيلة، وحجز 900 بندقية، دون أن ننسى ثورة أولاد خليفة التي قامت بناحية تبسة بالشرق الجزائري، والتي دفعت بإيف لاكوست ورفقائه إلى حد القول كما يذكر يحي بوعزيز: «أن الباشاغا المقراني لم يكن قائد الثورة، ولكنه قد التحق بها شهرين بعد اندلاعها في 22 جانفي 1871». ودائما حسب نفس الكُتاب «فإن هذه

(1) بوعزيز يحي. ص 155.

الوضعية لم تكن في الحقيقة سوى نتيجة لأحداث العشرين سنة التي سبقتها، مع التدمير والتهديم الذي تسبب فيه سان آرنو والمذابح التي شهدتها فرجيوة.

إلا أن (رين) يعتبر أن سنة 1871 كانت بالفعل سنة المقراني وهذا انطلاقا من الأناشيد الشعبية التي تذكره هو وأخوه بومزراق، والشيخ الحداد وسي عزيز. ومازال إلى يومنا هذا كبار السن بمنطقة القبائل ينشدون تلك القصائد التي قام روني باسي (René Basset) بدراستها ونشرها.[1]

دفعت الإضطرابات بمدينة المسيلة القريبة من البرج بالأوربيين إلى الرحيل، وهنا أيضا كلف المقراني قريبه قايد الحضنة بمرافقتهم حتى بوسعادة. ولم يلجأ أولئك الأوربيون إلى البرج كما كان منتظرا في بداية الأمر نظرا للظروف الصعبة التي كانت تلك المدينة تعيشها هي الأخرى. فقد كان الجميع ينتظر قيام الثورة، وقد تحدث البعض عن تاريخ 2 مارس الذي يصادف يوم عيد الأضحى. وكانت السلطات العسكرية عندها موضوعة في حالة استنفار.

كان الكثير يشك في أن المقراني كان يحضر للانتفاضة وقد طالب الأوربيون وصحافة سطيف بإلقاء القبض عليه بينما كان آخرون يطالبون بعزله وتعيين قريبه محمد بن عبد السلام في مكانه. والحقيقة أن العديد من المناطق قد شهدت خلال هذين الشهرين الأولين من سنة 1871 أحداثًا متعددة كحرق المحاصيل، وتخريب الخطوط الهاتفية، كما سُجلت حوادث عديدة في كل من دلس، بويرة وسور الغزلان. وقد تدخل أعوان السلطة مثل الآغا بوزيد بن محمد وغيره واتهموا مباشرة الباشاغا المقراني بأنه كان من وراء كل تلك الحوادث.[2]

---

(1) باسي (روني) الانتفاضة الجزائرية لسنة 1871 في الأغاني الشعبية القبائلية الثلاث، لوان، طبعة 1892، 60 صفحة.

(2) رسالة كتبها الآغا بوزيد بن أحمد وجهها إلى السلطات العسكرية، وهي موجودة في أرشيف وزارة الحربية (أ.و.ح.) يتهم فيها الباشاغا المقراني بالتحضير للثورة، أنظر يحي بوعزيز، ص 165.

عندما استُدعي الباشاغا إلى برج بوعريريج، استُقبل في طريق عودته بسور الغزلان من طرف الآغا يحي بن فرحات، خلال هذه الزيارة التقى بالعديد من الشخصيات. وكان حديثه يدور حول توطيد العلاقات بين قادة هذه المنطقة وقادة منطقة مجانة ؛ وإذا كان البعض قد أبدى موافقته فإن إجابة البعض الآخر كانت متحفظة.

عند رجوعه إلى مجانة، كلف العديد من رجاله بمهمة إقناع شيوخ قبائل عدة مناطق بالجزائر، سواء في ناحية قسنطينة أو أيالة العاصمة، بتشكيل جبهة متينة تقف ضد النظام المدني وتحمي مصالحهم. وإذا كان البعض قد قبل الدعوة بتحمس، فإن البعض الآخر قد رفضوها، بل إن البعض منهم سارع بإخبار القادة العسكريين الفرنسيين بذلك. ويوجد من يؤكد أنه كان للمقراني حوالي 900 رجل ينتمون إلى منطقته استقروا في مدن عديدة من شمال البلاد كلفهم بإخباره وإعلامه بكل التحركات [1].

وقد أكد أحد المخبرين بأنه سمع الباشاغا يقول: «لقد وافق بعض الأصدقاء على المشاركة في الثورة. وقد قال لي صديقي آغا مليانة: «فلتكن رجلا ولتقد الثورة بالشرق» وسيتكفل هو بقيادة الكفاح في الغرب حتى حدود تلمسان. إنه ليس الوحيد فأولاد قاسي وأولاد زعموم وأولاد محي الدين وكذلك باشاغا التيتري، كلهم استجابوا لندائي» [2]

ماذا يستطيع الباشاغا فعله؟ لم يبق أمامه سوى شيء وحيد: البدء بالتنفيذ الفعلي. وهو ما سيقوم به.

---

(1) مصدر هذه المعلومات كتب كل من رين، روبين ومرسيي، أنظر يحي بوعزيز، ص 176.

(2) رين (لويس)، وثيقتين عربيتين حول تاريخ ثورة 1871، المجلة الأفريقية. الجزائر، طبع جوردان 1871 ص. 55– 66 ذكرها يحي بوعزيز، ص 177.

الفصل الثالث

الانتفاضـــــــة

الباشاغا في الميدان .

يوم 7 مارس، أعلن الباشاغا التجنيد العام ويوم 8 كان قد جمع حوله 3000 رجل (بين فارس وماشي) وأقام معسكره بمدينة مجانة . ثم أعاد تقديم استقالته وأرجع راتبه الذي كان يقدر بثمانمائة وثلاثين فرنكا ومعها رسالتان؛ الأولى للقائد العام لبرج بوعريرج والثانية للجنرال أوجرون (Augerand) يعلن لهما : «إنني أستعد اليوم لقتالكم، فلنحمل السلاح وليتأهب كل منا للقتال . »[1]

بعد هذا أرسل المقراني بيانا إلى كل القبائل يطلب منهم أن يقفوا في وجه الغازي الذي أصبح كالسرطان وقد مد أذرعه على كامل ربوع الوطن ليبتز خيرات الشعب الجزائري . وحتى يكون قدوة في ذلك، تحرك يوم 16 مارس في اتجاه برج بوعريرج التي كان يحضرلها ضرباته الأولى منذ مدة .

وقد احتفظ المقراني لنفسه بالغرب القسنطيني بينما كلف أخاه بومزراق بمنطقة ونوغة وسور الغزلان، أما قريبه سعيد بن بوداود فقد تولى قيادة المنطقة الشرقية من الحضنة، وبوسعادة، وأولاد نايل بالجلفة .

يذكر (رين) رسالتين كتبهما المقراني بعد الإعلان عن الانتفاضة : «إن كل الناس من سطيف إلى بجاية وعلى طول الساحل، ومن باتنة

---

(1) الطاهر أوصديق. حركة انتفاضة 1871 م.س.ذ.

إلى البويرة، كلهم حملوا السلاح وما تخلفتم إلا أنتم، أيعقل هذا، إننا نناشدكم أن تهبوا إلى مساعدة إخوانكم المسلمين.»[1]

لم يكن كل الناس أصدقاء للمقراني.

لقد طلب إذا الباشاغا من عدد كبير من الأرستقراطيين أمثاله، قياد وآغات أو باشاغات في كامل أرجاء البلاد أن ينظموا إليه في جبهة موحدة.

لكنه وللأسف لم يلق التوفيق المنتظر. فقد أعلن بنو ڤانة من الشرق الصحراوي عن رفضهم في رسالة وجهوها إلى القائد الفرنسي لمنطقة قسنطينة بتاريخ 18 مارس، وقد أعربوا أنهم مستعدون حتى لقتال المقراني الذي أصبحوا يعتبرونه «مجنونا». وقد حذا محمد بن هني بن بوضياف هو الآخر حذو بنوڤانة، وذلك ما أكده لسلطات قسنطينة في رسالة بتاريخ 21 مارس.

أما باشاغا التيتري فقد سلم للفرنسيين نفس الرسالة التي تلقاها من المقراني. وقد رفضت حتى الشخصيات المرموقة أي نخبة ناحية قسنطينة الانضمام إلى هذه الانتفاضة.[2]

أولى المعارك.

لم يتحقق هدف المقراني في تطويق برج بوعريرج وطرد الفرنسيين منها، لأن السلطات العسكرية كانت قد اتخذت احتياطاتها منذ مدة؛ وعليه فإنه تراجع رفقة قواته باتجاه مرتفعات مجانة.

---

(1) رين (لويس)، تاريخ انتفاضة 1871 بالجزائر ص 102، 106 م.س.ذ.، انظر يحي بوعزيز م.س.ذ، ص 177 ويذكر هذا الأخير أيضا الرسالة التي كتبها المقراني إلى محمد بن منصور قايد البويرة. ملف 191 ف وثيقة رقم 11 رسائل عربية أ. و. ح.، انظر ص 179.

(2) رين (لويس)، تاريخ انتفاضة 1871، ص 214 – 215.

وقد كلفت القيادة العسكرية العليا بالعاصمة، الجنرال سوسيي (Saussier) على رأس تشكيلة عمادها 5000 جندي جيدي التسليح والعدة، بالاتجاه نحو معسكر الباشاغا في منطقة مجانة.

وصلت هذه التشكيلة الى المنطقة يوم 8 أفريل، وهو تاريخ ذو أهمية بالغة إذ أنه اليوم نفسه الذي انظم فيه الشيخ الحداد إلى الانتفاضة ومعه كل أتباع الطريقة الرحمانية.

عند وصوله إلى مجانة بدأ الجنرال سوسيي بحرق كل المنازل بهذه المدينة باستثناء قصر المقراني الذي اتخذ منه إقامة شخصية له. وخلال هذا تمكن الجنرال من أسر الشريف بن عبد الرحمن قايد ديريات الذي كانت تربطه علاقة قرابة مع المقراني.[1]

بعد النجاح الذي احرزه مبعوثوه الى الشيخ الحداد، والراحة التي أحس بها بعد هذا الدعم المعتبر، ترك المقراني مجموعة من المقاتلين بعين المكان لمناوشة قوات الجنرال سوسيي واتجه هو إلى زمورة بشرق برج بوعريرج لإقناع كبار الفروع الأخرى من عائلة المقراني بالانضمام إليه، والذين لم يكونوا متفقين معه كما سبق ذكره وهم: أولاد عبد السلام، وأولاد عبد الله، وأولاد بلقندوز. وبعد يومين من المفاوضات تمكن من إقناعهم باللانضمام إلى حركته؛ وسرعان ما تبعهم في ذلك قادة آخرون ممن كانوا مترددين أو معادين.

دعت القيادة العليا الجنرال سوسيي الى ترك منطقة مجانة والالتحاق بسرعة بناحية سطيف التي بدأت تعاني من هجومات الجزائريين. فقام الجنرال بهدم قصر المقراني ثم اتجه صوب مدينة سطيف.

---

(1) بدون اسم المؤلف، «سبعة اشهر في بعثة بالقبائل الشرقية والحضنة»، أنقولام، طبع مانيون 31 / 12/ 1871 120 صفحة، ص .25.

وقد نفّذ الجزائريون خطة تقضي بترك المدن والمداشر الواقعة في السهول وإقامة معسكراتهم على القمم والرّبى.

وأخيرا، جمع المقراني القادة الرئيسيين للانتفاضة وهم: بومزراق، محمد بن عبد السلام، عبد الرحمن بلقندوز، السي عزيز ابن الشيخ الحداد، محمد الصغير بن الشيخ ساعد، وكذلك مقدمين من الطريقة الرحمانية؛ قارة بن حباش من منطقة القرڤور ومحمد آكلي أوبونور من البابور. وكان الهدف من هذا الاجتماع هو دراسة خطط العمليات التي ستنفذ، إذ أن الفرنسيين كانوا قد بدأوا في إرسال الكثير من التدعيمات البشرية والمادية. كما كان من اللازم دراسة الوضعية العامة وتوزيع المهام على مختلف المسؤوليين.[1]

المقراني في تفقد للوحدات.

الآن وقد تعززت الحركة باتباع الطريقة الرحمانية من مريدي الشيخ الحداد وبالفروع الأخرى من عائلة المقراني، قرر الباشاغا أن يتحرك ناحية غرب البلاد، وهي المنطقة التي كان بها بومزراق ورفاقه يواجهون جيش الجنرال سيريز (Cerez)، الذي قدم خصيصا لتعزيز قوات المقدم تريملي (Trumelet).

وبعد تفقد سريع لقلعة بني عباس، تابع الباشاغا رحلته باتجاه سور الغزلان أين وصل يوم 25 أفريل. وهنا عقد اجتماعًا ذا أهمية بالغة، حضره كل قادة المنطقة ومقدمون من الطريقة الرحمانية، وذلك بغية التعريف بطريقة العمل وكذا رسم خطط القتال التي ستُتبع ضد جيش الجنرال سيريز، والمقدم تريملي وحليفهما الآغا بوزيد آغا البويرة على وجه

(1) لجأ هنا د. يحي بوعزيز في الصفحات 185 و186 إلى المعلومات التي يسردها لويس رين، في كتابه تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر.

الخصوص. وفي اليوم الموالي جرت معركة كبيرة في المكان المسمى تكودة، ويبدو أنها قد انتهت ببعض الجرحى في صفوف الفرنسيين بينما كانت الخسائر ثقيلة في صفوف الجزائريين وذلك نظرا للوسائل الضخمة البشرية منها والمادية خصوصا التي جندها الفرنسيون، وكذلك للدعم الذي وجده هؤلاء لدى المتعاونين معهم وعلى رأسهم الآغا بوزيد. كان هذا الأغا عقبة حقيقية أمام انتفاضة المقراني، فقد كان العدو اللدود للباشاغا ووقف له بالمرصاد في كل المراحل، فكان يترصد كل تحركاته وتحركات رفاقه ويوصل المعلومات للضباط الفرنسيين. ويذكر د. يحي بوعزيز أنه قد وجدت في صناديق أرشيف وزارة الحربية الفرنسية العديد من هذه الرسائل التي كتبها الآغا بوزيد.

بعد هذه المعركة عاد المقراني إلى بني عباس يوم 29 أفريل وذلك بهدف تجنيد أكبر عدد من المقاتلين للوقوف أمام الجيش الكبير الذي حشده الجنرال سيريز بالاضافة إلى رجال خادمه الأغا بوزيد. وقد تمكن المقراني من تجنيد 4000 رجل ثم أخذ طريق العودة.

عند مروره بمضيق البيبان التحق بالمقراني مجاهدون آخرون أتوا من بني جليل، وبني ملكيش، وبني عباس، وبني يعلى. وبني منصور. وهكذا اتجه صوب البويرة التي وصل إليها يوم 1 ماي ليجد قواته في اشتباكات مع تشكيلة المقدم تريملي على الضفة اليسرى بالقرب من وادي الجمعة.[1]

في يوم 2 ماي طوق المقراني مدينة البويرة وحاول اقتحام أسوارها، إلا أن رجال الأغا بوزيد وحلفائه من أولاد بليل وأولاد عريب، دافعوا عن

---

(1). المقدم تريملي، تقرير حول المعارك والمهمات التي جرت في 1 ماي 1871 أ. و. ح. ملف رقم H 375.

أنفسهم بطريقة جعلت الباشاغا يتراجع مرة أخرى نحو قرية بوشرين. لم يتمكن المقراني إذا من تصفية حسابه القديم مع الآغا بوزيد ولم يكن أسره لسبعة سجناء بالشيء الذي يهون عليه هذا الإخفاق.

عندها راسل المقراني محمد بن منصور قايد أولاد بليل ومحمد بن الخوجة ومبارك بن عبد العزيز ومحمد بن شناف وذكّرهم جميعا بنصيحة أخيه بومزراق: «كيف يعقل أن يقفوا ضد الثورة ؟»

بعد ذلك أعطاهم أسماء الأسرى السبعة وحاول مرة أخرى إقناعهم بالانضمام الى الثورة قائلا: «ومازلت في انتظار ردكم فعسى الله أن يغير السيئة بالحسنى».

واجه الباشاغا إذا مع بداية الانتفاضة فشلين: أولهما في برج بوعريرج والثاني في البويرة، وإذا كانت المحاولة الأولى مهمة نظرا للموقع الذي تمتاز به البرج، وعلى العكس فإن مدينة البويرة تكاد تكون كمجانة، فلمذا قرر المقراني الهجوم عليها إذن؟

فقد كانت لهذه المدينة حامية معتبرة بالاضافة الى سكانها الذين كانوا يوالون الأغا بوزيد وهوالعدو اللدود للمقراني. وعلى ما يبدو فإن الباشاغا لم تكن بحوزته المعلومات الكافية عن هذه المدينة ومدى تأثير الآغا على سكانها، أضف إلى ذلك أن الفرنسيين كانوا قد نجحوا في تجنيد حلفاء من القياد والآغات في كل مكان، فكانوا يراقبون رجال الانتفاضة ويخبرونهم بكل تحركاتهم. وقد رأينا من قبل كيف أن الأغا بوزيد كان يجمع المعلومات ويبعث بها إلى أسياده من الفرنسيس.

مقتل الباشاغا.

كان المقراني قد انسحب ورجاله الذين قدرتهم المصالح السرية الفرنسية بـ 8000 إلى مكان يسمى كدية المصدور. وهذا يدلنا على أن الباشاغا لم تكن لديه أية معلومات عن القوات الفرنسية التي كانت من جهتها تترصد كل تحركاته. وقد كان للفرنسيين جيش جيد التدريب مجهز تجهيزا كاملا ومسلح بأحدث الأسلحة من مختلف العيارات، بينما لم يكن رفقاء المقراني مسلحين إلا ببعض بنادق الصيد والسيوف والهراوات والإيمان بقضيتهم.

وكانت المنطقة وعرة كثيرة التجاعيد وكان من المفروض أن تكون الوضعية في صالح رجال المقراني. وفي يوم 5 ماي وجد مقاتلو المقراني أنفسهم أمام تشكيلة المقدم تريملي الذي كان يخيم والجنرال سيريز في ذراع بلخروب. وقد كان هؤلاء يعلمون أن الباشاغا كان بالمنطقة ولكنهم كانوا يجهلون أنه كان بهذا المكان بالذات. وكان الباشاغا قد غير زيه اتباعا لنصيحة رفقائه حتى لا يعرف شخصه.

وباستثناء هذا التغيير في الزي لم يفعل الباشاغا أي شيء لحماية نفسه، فمنذ الصبيحة كان الرصاص يتهاطل من كل جانب وحين انخفضت شدة القصف عند الظهيرة، أراد المقراني أن يغتنم ذلك الوقت ويؤدي صلاة الظهر جماعة مع رفقائه. ولم يكن يعلم أنه على حوالي 700 متر منه كان بعض الزواف(Zouave)(*) كامنين يرصدون حركات الجزائريين. وبالذات أثناء تأدية الصلاة، أطلق الزواف النار فأصاب الرصاص المقراني في جبهته فسقط وهو يردد الشهادة ولفظ آخر أنفاسه في عين المكان.

(*) هي قوات جندتها فرنسا من بين الأهالي وتعود تسميتها إلى إسم القبائل الأولى التي تم منها التجنيد (زواوة).

وفاة المقراني



عائلة المقراني... عائلة أمراء.

ظروف وملابسات وفاة الحاج محمد المقراني يوم 5 ماي بواد سوفلات. لقد تلقى المقراني رصاصة أصابته بين عينيه وذلك في أعقاب إطلاق وابل من الرصاص على ثلاثين شخصا كان المقراني من بينهم، كما فقدت جماعته ثلاثة أشخاص آخرين من أعضائها، بعدما حاولت إنقاذ المقراني وإيقافه على رجله.. في تلك اللحظة لم نتمكن من تشخيص الضحية نظرا لعدم وجود راية أو شيئا آخر يسمح لنا بمعرفتها.

لقد قُتل المقراني ببشاعة وعلمت بعد ذلك أنّ جثمانه نُقل إلى عائلته في قلعة بني عباس. (تصريح للجنرال سيراز Cerez)

عائلة المقراني... عائلة أمراء

حمل الحاج محمد المقراني لقب باشاغا، كما حمل أباه هذا اللقب عندما مدّ يد العون لدوق أورليون في مواجهة الأمير عبد القادر. وكان جدّه الأمير عبد الرحمن الذي توفي سنة 1500 قائد وحاكم قلعة بني حمّاد. للتذكير فإن حامل لقب الباشاغا يُقلّد وسام شرف[1].

عن هذا الاستشهاد يورد مولود ڤايد رواية أخرى: «كانت الساعة الواحدة بعد منتصف النهار، فالباشاغا فرغ لتوه من أداء صلاة الظهر.

(1) من كتاب العلوي (مهدي) (Mehdi Lallaoui) قبائل المحيط الهادي، ص 29.

عنـدما بلـغ المقـراني قـمة الربـوة أصابتـه رصـاصة في عنـقـه وقتلته في عين المكان. »

« في 1874 أمـر المقـدم تريمـلي بإقـامـة حجـر تذكـاري كـتـب عليه العبـارة التاليـة. » هنـا في (كـديـة المصـدور) وقع قتيلا برصاص الفصيلة الرابعة من قوات الزواف، يوم 5 ماي 1871، باشاغا مجانة، الحاج محمد بن الحاج أحمد المقراني، قائد الانتفاضة. قائد التشكيلة، الجنرال سيريز. قائد منطقة أومال(**) المقدم، تريـمـلي. »(1)

لقد كـانـت الصـدمة عنيفـة على أولئـك الذين كانوا يحيطون بالمقراني، إلا أنهـم تحكموا في أنفسهم وتصرفوا على الفور. فأخذوا الجثمان وتوجهت جماعة منهم إلى قلعة بني عباس لدفن قائدهم في تربة أسلافه. وقد انقذت هذه الوفاة فرنسا إذ أنه حسب روبن (Robin) فإن المقراني لو كتب له البقاء لكان كفيلا بأن يجمع كل قبائل المنطقة حوله لمحاربتها. »(3)

في فترة الهلع والجزع الذي عقب وفاة المقراني تمكن ثلاثـة من المساجين من الفرار وإبـلاغ الأغـا بوزيـد بالخبـر فسـارع كعـادتـه لإخطـار الجنرال سيريز بالنبأ. كمـا كاتـب القايـد محـمـد بـن منصور مـن جهـتـه المقـدم تريـمـلي ليقـول له: « لقـد وصلنـي أنـه كـان لديـك شـكـوك فلتطمـئـن فإن المـقـراني قـد مات بالفعل يوم الخامس من ماي ».

وهكـذا فـإن المقراني قد اختـفى من السـاحة 51 يوما فـقـط من بعد بداية ثورته.

(**) سور الغزلان بعد الاستقلال.

(1) قايد (مولود) م.س.ذ. ص 124– 125.

(2). المقدم روبن، الانتفاضة، ص 244 – 258.

لقد مات المقراني، لكن الانتفاضة كانت قد جندت جزءا كبيرا من السكان وبعد شهر من بدء المعارك كان الباشاغا قد حقق انتصارين كبيرين: فقد جعل الشيخ الحداد يدخل أعضاء الطريقة الرحمانية في الانتفاضة، كما تصالح مع الفروع الأخرى من آل المقراني الذين جاؤوا هم الآخرون برفقة أصدقائهم لتعزيز الانتفاضة.

دور الشيخ الحداد.

إن الشيخ الحداد رجل دين، ورجل سلم بالدرجة الأولى. كان قد تجاوز الثمانين، فكان يقضي أغلب وقته بين الذكر والتعبد والصلاة، فكان أبعد ما يكون عن الأرستقراطيين والأوساط القريبة من السلطة، ولم تتوطد علاقته بالباشاغا المقراني إلا في نهاية عام السبعين وبداية الواحد والسبعين، حين أدى له زيارة لفك المشكلة التي كانت قائمة بين الشيخ وبن علي الشريف باشاغا شلاطة وصديق المقراني.

وعليه فإن الباشاغا كان يعرف جيدا المكانة التي كان يحظى بها شيخ الطريقة الرحمانية. وحيث أنه لم ينجح في إقناع الارستقراطيين بالانضمام إلى ثورته، فقد أرسل إلى الشيخ في 6 أفريل بوفد من الشخصيات المرموقة والمؤهلة لتدعوه لمؤازرة ودعم الثورة ضد الفرنسيين. وكان لذلك وقع في نفس الشيخ فتقبل الدعوة بصدر رحب، وطلب من رجاله استدعاء مقدمي الطريقة لاجتماع كبير بتاريخ 8 أفريل.

وإذا كان الشيخ بعيدا عن المسائل السياسية فذلك لم يكن حال إبنيه. فالبكر امحمد كان عضوا في جماعة بوبغلة سنة 1851 ولم يكن يحلم إلا بالموت شهيدا في سبيل الله. وقد كان موقفه معروفا عند الجميع حتى أن بعض الفرنسيين قد طالبوا بسجنه سنة 1870. ولم يجنبه ذلك إلا كون الجنرال أوجيرون (Augerand) قال بأن عائلة الحداد لم تكن تهتم بالمسائل السياسية.

أما سي عزيز الإبن الثاني للشيخ فقد كان ذا طموح كبير على العكس من أخيه. وقد تولى منصب قايد مدينة عموشة التي كانت تابعة للباشاغا بن علي الشريف ثم قدم استقالته في 1869 بعد خلافه الكبير مع باشاغا شلاطة. وكان سي عزيز يحلم بخلافة أبيه في مشيخة أهل الطريقة، فكان بذلك محسوبا في صف مقاومي الوجود الفرنسي.



8 أفريل 1871 بصدوق: وبعد الانتهاء من إمامة المصلين الشيخ الحداد يحرّض ويدعو الحضور المتعاطفين معه إلى الثورة.

لقد ساند الشيخ الحداد أبناءه عزيز وامحمد، فبعد الانتهاء من آداء الصلاة، استسمح الحضور ثم تقدّم متكئا على عصاه وضاربا إياها على سطح الأرض بقوة، مستقبلا جهة الشمس وجعل يحرّض الحضور ويحثهم على مكافحة الطغاة. لقد استجاب لندائه أكثر من 120 ألف مقاتل يمثلون 150 قبيلة.

الصور من كتاب (المهدي) العلوي، قبائل المحيط الهادي، ص: 26.

ويذكر د. بوعزبز استنادا إلى رين لويس، أنه عندما استقبل الشيخ الحداد البعثة التي أوفدها الباشاغا المقراني، قام سي عزيز بن الشيخ بكتابة رسالة إلى المقراني يقول له فيها: «ثم من تكن أنت لتعلن الثورة من أجل قلب النظام؟ فهل لديك الأسلحة والأموال والقدرة اللازمة لذلك؟ فأجابه المقراني: «إنك سترى قريبا جنود السلطان العثماني وهم يقتحمون الحدود التونسية بقيادة محي الدين الإبن الأكبر للأمير عبد القادر. لقد تلقيت رسالة السلطان بواسطة مبعوثه علي باشا الموجود في طرابلس وأنا شخصيا الذي أقود الانتفاضة بداخل الجزائر مع اصدقائي المخلصين الذين أمدوني بكامل الدعم.»[1]

في يوم 8 أفريل شهدت قرية صدوق تجمعا كبيرا لمقدمي الطريقة الرحمانية. وقد خرج الشيخ الحداد مسنودا بسي عزيز وسي امحمد وخاصة المقربين، ثم أعلن الخبر المنتظر، فعين ابنيه كخلفاء وسلم لهما لواء الجهاد. كان هذا أكبر انتصار للمقراني، فالثورة الآن قد أخذت بعدا جديدا. فإذا كانت نداءات الباشاغا وأصدقائه الأرستقراطيين لم تجمع سوى 25000 رجل، فقد لبي إعلان الشيخ الحداد الجهاد خمسة أضعاف ذلك العدد: إذ انضم إلى الثورة حوالي 120.000 مجاهد.

انتشرت المعارك في كل مناطق البلاد: ساحل مليانة، شرشال، الجزائر، دلس، بجاية، جيجل والقل، بالإضافة إلى منطقة المتيجة، وبودواو، تيزي وزو، الأربعاء نايت إيراثن، وذراع الميزان، كل بلاد القبائل كما لبت النداء البويرة، سور الغزلان، برج بوعريرج، سطيف وكل منطقة وادي الصومام، كذلك باتنة وتبسة دون أن ننسى الجنوب الذي لم تتوقف فيه المعارك بعد منذ أن دخلت فرنسا.

---

(1) رين (لويس)، وثيقتان أهليتان، ص 30–32 مذكور عند د. يحي بوعزيز.

وقد عبر عن هذه الوضعية أحد الكتاب الفرنسيين المعاصرين لها قائلا: «إن الرباطات الدينية تشكل خطرا كبيرا على الفرنسيين، لأنها قد تحولت إلى مراكز للثورة من أجل القضاء على المسيحيين، وهذا ما يقوم به أتباع الرحمانية في الجزائر تحت سلطة الشيخ الحداد، نظرا للتأثير الكبير والارتباط العميق الذي توليه غالبية الطبقة الشعبية لهذه الطريقة وأهلها.»(1)

وفي هذا الموضوع كتب أحد الضباط برتبة جنرال إلى رئيسهر يقول: «لقد أثرت ثورة الإخوان الرحمانيين على أصدقاء فرنسا في كل من المغرب وتونس وها هو ذا الشيخ عزيز يصبح الأمير بالنسبة لسكان بلاد القبائل.(2)

وقد وقع في يد الإدارة بالعاصمة منشور مؤرخ في 6 أفريل، وزعه أتباع الطريقة الرحمانية بالجزائر، يعلن عن هجوم شامل يومي 29 و30 أفريل في كل المراكز والمدن من المتيجة إلى شرشال. وبالتوازي مع هذه الوثيقة كانت تتداول عريضة وقع عليها 214 من الشخصيات الجزائرية المرموقة ومؤرخة في 20 أفريل تطلب من السلطان العثماني عبد العزيز العون والمساعدة لتحرير الجزائر من الاحتلال الفرنسي.(3)

وحتى منطقة باتنة التي ليس للرحمانية فيها شعبية كبيرة فقد تلقت نداءات أهل هذه الطريقة بكل إيجابية، فكان أن شمل لهب الثورة منطقة الأوراس التي انتفضت بدورها.

حينها لم تعد لثورة المقراني أية حدود فقد امتدت لتشمل كامل مناطق الجزائر.

---

(1) سيميان مارسيل، الرباطات الدينية بالجزائر، الجزائر، جوردان، ص 35– 42.

(2) لاباسات (Lapasset) الجنرال، ضابط قديم في جيش أفريقيا، باريس، أ. كولين ، 1899 ص 359 مذكور عند يحي بوعزيز.

(2) رين (لويس)، م. س. ذ. ص 252 –253 مذكور عند يحي بوعزيز.

دخول سي عـزيـز المعركة.

ما إن تلفـظ الشيخ الحداد بالجهاد حتى كان إبناه سي امحمد وسي عزيز في أتـم الاستعداد لـمباشرة القتال؛ وخاصة هذا الأخير الذي سرعان ما أمسك بمقاليد الأمور.

أرســل نداءات إلى مقـدمي الطريقة وإلى الاخوان؛ ومثل المقراني كاتب سي عـزيز كل أصــدقاء الزاوية طالبــا منهم الانضمام الى صفوف المجاهدين. كما قام بتنظيم الرجال وتعيين المسؤولين على كل المستويات وحدد المناطق المطلوب منهم التدخل فيها. وهنا واجهت سي عزيز نفس المشاكل التي واجهت المقـراني، فأعيـان العائـلات الكبيرة ذات الجاه والسلطان من الباشاغوات والآغات والقياد إما أنهـم لم يلتحقوا وإما أنهـم رفضوا الجهاد صراحة. فلم يترك هذا التصرف أمام سي عزيز إلا أن يضرب على الفور كلا من الفرنسيين وحلفائهـم بدون تمييز.

وقـد قـاد سـي عـزيـز معــارك ضـارية في مناطـق مختلفة «بضواحي بجايـة التي حاصـرها هو وأخـوه سي امحـمـد على رأس 9000 مجـاهـد، ثم تبعتـها جيجـل وسيـدي عيـش. وقد انتقـل حتى مشـارف مدينة سطيف. وبعــد يومين فقـط من إعلان الجهاد كانت المعارك والاشتباكات قد انطلقت، وقـد وقـف سي عـزيــز وإخوانـــه أمام جنـرالـين فرنسيـين هـما لاباسي وصوسيي (Lapasset et Saussier).

في يوم 30 أفريل حدثت معركة كبيرة في جبل تافات بمنطقة البابور أين أحرز سي عزيز نجاحا باهرا جعل عددا كبيرا من المترددين ينضمون إلى صفوف المجاهدين.أما فيما يخص حصار مدينة بجاية، فقد تلقى الإخوان الحداد زيارة بومزراڨصيوم 16 ماي. وقد قاموا بعمليات مشتركة ودخلوا في معارك فيما بين 20 و25 ماي، وحتى أن الجيش الفرنسي قد

استعمل البحرية لقصف كل الساحل. وقد امتاز سي عزيز بخفة حركة خارقة للعادة، فقد كان ينتقل من جبهة إلى جبهة ويشارك في كل المعارك حتى يوم الحادي عشر من جوان. وابتداءا من 21 جوان كان مرة أخرى في منطقة سطيف.

بعد هذه المعركة توجه سي عزيز الى ناحية صدوق حيث لم تكن وضعية أخيه على ما يرام ثم غير وجهته وتقدم حتى جبال جرجرة أين وصل يوم 24 جوان مباشرة بعد المعارك القاسية التي شهدتها إيشرّيضَنْ. وعلى ذكر إيشيريدن فإن تلك الفترة بالذات هي التي أعطى فيها الجنرال لالمون (Lallemand) لقواته الأمر بتدمير كل مداشر وقرى المنطقة وحرق كل المحاصيل والغلال أو باختصار إعادة نفس المسرحية التي جرت في سنة 1857.

ماذا فعل سي عزيز ياترى؟ لقد ذهب ليرى قريبه القايد علي أوقاسي فوجده هو الآخر في وضعية لا يحسد عليها ، بعد أن كان قد سجل عدة انتصارات وقاد عدة معارك مضفرة.

الانتفاضة في منطقة القبائل الكبرى.

لقد كان الشيخ الجعدي هو الممثل الرئيسي للطريقة الرحمانية في آيت اسماعيل بالقرب من ذراع الميزان. ويوم 11 أفريل استقبل هذا الأخير مبعوثي الشيخ الحداد، فدعا على الفور كبار مقدمي الطريقة إلى اجتماع بعين سلطان التي تقع على 2 كلم من مدينة ذراع الميزان. وبعد ان أُعلموا بالأوضاع قرر الجميع إعلان الجهاد.

«بُثّ الخبر في جميع الأرجاء، فهبت كل منطقة القبائل الكبرى لتلبية النداء. الأربعاء نايت ايراثن (فور ناسيونال)، تيزي وزو، وذراع الميزان

شلت الحركة بكل منها وحطمت كل القرى الاستيطانية المجاورة لها حتى مشارف المتيجة.س وقد جمع المقدم سي محمد والحوسين كل الاخوان ثم زحف المجاهدون ضدكل من بوغني وذراع الميزان.

في يوم 12 أفريل، خطب المقدم سي محمد أوبراهم في الناس فاتقدوا حماسة وما إن انتهى من خطبته حتى اتجهوا جميعا نحو مرافق وبيوت إصلاح الطرقات الموجودة بتيزي الجمعة على طريق مضيق تيروردة فهدموها عن آخرها.

أما في يوم 14 أفريل فقد نجح القايد علي أوقاسي في احتلال مدينة تامدة.

القايد علي أوقاسي.

يوم 16 أفريل تعرض 63 عسكريا تحت قيادة النقيب رابيث)ئزىخؤ(لهجوم شنه عليهم أهل آيت منقلات. عندما رأى النقيب أن الوضعية كانت خطيرة أعطى أوامره بالانسحاب.

كلف النقيب وولف (Wolf) بشن الهجوم ضد مدينة تامدة.على رأس قوة قوامها 1000 رجل، فبدأ زحفه. وعندما مرت إحدى تشكيلاته الثلاث بالقربِ من (تازازريت) إذا بوابل من الرصاص يتساقط عليها، فلقي عدد كبير من العسكر حتفهم في عين المكان.

وفي (تازازريت) التي كانت تحت سيطرة مناصري القايد علي أوقاسي أقيمت الاحتفالات بالنصر الذي استحق عن جدارة وبعد استبسال. فانتشر الهلع في أوساط المعمرين الذين تخلوا عن ممتلكاتهم وهرعوا الى المدينة للاحتماء بالوجود العسكري فيها.

بعث الرائد لوتوليي (Lettelier) إلى الجنرال هانوتو (Hanoteau) بتقرير يشرح له تفاصيل الوضعية الصعبة التي كان يعيشها.

يوم 17 أفريل بلغ عدد المجاهدين خمسة عشر ألفا.

قام القايد علي أوقاسي بتقسيمهم إلى ثلاث تشكيلات وحدد منطقة كل منها؛ الميمنة تحت قيادة محند أمقران أوقاسي كلفت بمحاذاة الوادي حتى تصل إلى مضيق السباو، والميسرة فمشت بمحاذاة مرتفعات حسناوة وبوهينون؛ ثم استقبلها المقدم سي محمد وعلي ولقاضي لتعسكر في آخر المطاف بذراع بن خدة. أما القلب فكان تحت قيادة علي أوقاسي ومر ببرج ساباو واستقر بمدينة بغلية.

دعت قوات الدرك المستوطنين الى الفرار نحو مدينة دلس فهرعوا إليها جميعا عندما أحسوا بقدوم المجاهدين الذين أحرقوا المزارع في طريقهم وصادروا الدواب بدورهم. وفي نفس اليوم، 17 أفريل، انضم إلى الثورة بنو نشود.

وقد التحقت مدينة برج منايل بالانتفاضة مثلها مثل مدينة الثنية وانتشرت الثورة حتى بلغت مدينة بودواو. فكانت تنصب الكمائن وتدبر أعمال التخريب في كل الأرجاء.

يوم 20 أفريل، تقدم الشيخ الجعدي المقدمين وعدد لا يستهان به من الشخصيات وزحف الجمع الغفير لحصار مدينة ذراع بن خدة.

في نفس اليوم ترأس القايد علي أوقاسي جيشه المقسم الى ثلاث تشكيلات وبدأ زحفه في اتجاه الجزائر العاصمة.

ونظرا لكونها نقطة أمامية مهمة فقد وصلت إلى بودواو تعزيزات معتبرة من العاصمة،كما قام المقدم فورشو (Fourchault) بتدعيم دفاع المدينة، واتخذ احتياطاته لإيقاف تقدم الجزائريين. فكانت قوات القناصة الأفارقة والصبايحية (الفرسان الأهليين Spahis) المدعمين بالميليشيات في استنفار وتأهب للوقوف ضد أي محاولة لتسلل المجاهدين.

وكان النقيب بالنكور (Balincourt) الذي كانت تحت أوامره فصيلتان من القناصة، واثنتان من الصبايحية، وكتيبة من الرماة ماكثا في متاريسه قلقا منشغلا بالدفاع عن المدينة في انتظار وصول قوات دعم إضافية. وفي يوم 20 أفريل وصل 250 عسكريا آخرين، وفي يوم 21 تلقى ثلاث كتائب من الزواف (Zouaves) وقد قدر عدد هذا الجيش الذي وضع تحت قيادة العقيد فورشو بـ 3900 رجل. وكان يضم وحدات من سلاح الفرسان والمشاة والمدفعية وحتى الهندسة.

جمّع القايد علي أوقاسي مجاهديه في مدينة بغلية وأخذ يتأهب لخوض المعركة. ثم كاتب كل قياد المنطقة ودعاهم للمشاركة في الجهاد.وقد كانت رسائله بهذه الصيغة.

«أيها القايد........ السلام عليكم.

ان الجهاد هو غايتنا، إنك مسلم وواجباتك وحقوقك هي نفس واجباتنا وحقوقنا، إننا لا ننوي تحطيم أي مسلم كل ما نريده ونسعى إليه هو الجهاد وإننا لنرغب في أن تكونوا بجانبنا.»

يوم 24 أفريل تسلح كل من أهل فليسة وآيت يجر ببنادقهم وأخذوا يتنقلون في جماعات صغيرة إلى معسكر علي أوقاسي ويختلطون بغيرهم من المجاهدين.

في حدود الساعة 11 فاجأت مجموعة مكونة من 1200 مجاهد الجنود الفرنسيين. وتحت الارتباك حاول الرماة والزواف المقاومة لكنهم ما استطاعوا توقيف سيل المجاهدين. فتكبدوا خسائر جسيمة وتراجعوا والمجاهدون يلاحقونهم.

«نظم عندها العقيد فورشو هجوما مضادا وبعث بسرية من الصبايحية لتخليص وحدات مدفعيته التي كانت في وضعية حرجة.(...) واجه

رجال علي أوقاسي الضربة، ثم قاوموها حتى تابعوا هجومهم الى الأمام مرغمين الخصم على التراجع.»

«أمر المقدم فورشو عساكره بإحراق كل الاكواخ التي صادفها في طريقه كما أعدم عددا كبيرا من المزارعين الذين ضبطهم بالقرب من المنطقة. أما في المدينة -وبطلب من رئيس البلدية - فقد أمر بإعدام كل أفراد إحدى العائلات الكبيرة: وهي عائلة بن الطيب التي كانت تملك أراضي شاسعة والعديد من القطعان. وكان هؤلاء قد أثاروا مطامع الأوروبيين الذين أرادوا تقاسم تلك الممتلكات فيما بينهم.»

يوم 25 أفريل تلقى العقيد أمرا بالتحرك لنجدة باليسترو (الأخضرية) التي كان بنو خلفون يحاصرونها. وعندما دخل المدينة وجد نفسه في وسط صمت خانق، فالمشهد كان جنائزيا: «بيوت تحولت إلى رماد وجثث بدأت تتعفن.» فحفر لها قبرا جماعيا وباشر عملية الدفن.

«عندما فرغ من كل شيء، استقل طريق العودة إذ أنه كان يخشى هجومات جديدة على مدينة بودواو.» بعد أن تجاوز وادي يسر، بدأت طلقات الرصاص تتكرر عليهم من وراء الصخور، حتى بلغوا مضيق بني زيان فوجدوا أنفسهم أمام قوة كبيرة كانت تقطع أمامهم الطريق. وهنا احتدمت المعركة...

بودواو نقطة الحسم.

سمح تراجع الجزائريين للقناصين والصبايحية بمواصلة مسيرتهم إلى أن دخلوا بودواو في 27 أفريل.وقد انتاب الحاكم العام قلق شديد، نظرا لأن بودواو كانت تشكل نقطة استراتيجية هامة بالنسبة للعاصمة.وهكذا فقد أوكل قيادة منطقة القبائل للجنرال لالمون (Lallemand) إبتداءا من 1 أوت، ونظرا لأن كل قبائل الناحية الجنوبية من جرجرة كانت في حالة حرب فقد أمر بنقل الجنرال سيريز إلى البويرة.

استقر الجنرال لالمون ببودواو، وكان تحت إمرته جيش قوي يتكون من لوائين، جيدي التدريب والتجهيز والتسليح وكانا يضمان فرقا من المشاة والفرسان والمدفعية، بلغ عددهم الإجمالي 5000 جندي مؤطرين بـ 202 من الضباط. وكانت مهمة هذا الجيش تتمثل في فك الخناق وتموين أهم المناطق المحاصرة.

وفي يوم 3 ماي هاجمت مجموعة معتبرة من المجاهدين تيجلابين. وقد استمر القتال طيلة النهار وكان قتالا شرسا حادا، لم يتمكن أي من الفريقين أن يدعي الانتصار فيه. ثم أعطى علي أوقاسي أمره بالانسحاب إلى الثنية ومنها إلى خميس يسر. عندها دخل العقيد فورشو المدينة، وتوجه إلى السجن فأخرج منه 18 جزائريا أعدمهم على الفور في الساحة العمومية كإجراء انتقامي.

في يوم 5 ماي، خرج الرتل من مدينة بودواو ثم أمضى ليلته على ربوة ترتفع على السهل مابين وادي قورصو ووادي بودواو. وفي يوم 6 ماي وصل إلى عين سلطان؛ وكان اليوم الموالي يوما مشؤوما إذ أن فورشو أمر بتحطيم وحرق كل قرى هذه الضاحية. ثم اتجه الرتل بعد ذلك ناحية الثنية التي كان يريد احتلالها. وعند وصوله إلى قدارة خرج السكان إليه ليعلنوا خضوعهم. عندها وبأمر من العقيد، استُقبل هؤلاء الأهالي بطلقات البنادق التي ما استثنت نيرانها لا شيخا ولا امرأة.

في يوم 7 ماي نزل محند أمقران أوقاسي إلى سوق خميس يسر وأخذ يخطب في العامة الذين تجمعوا حوله طالبا منهم أن يتجندوا ويتحدوا في محاربة العدو. فنظّم فصائل خفيفة الحركة ووضعها تحت إمرة قادة متحربين وذوي خبرة. في صبيحة يوم 9 ترأس رفاقه واتجه صوب الثنية ليحاول استرجاع المواقع التي كان قد انسحب منها بالأمس. فالأمر كان يتعلق بنقاط الوصل على الخط الرابط بين الجزائر، تيزي وزو وقسنطينة.

هاجم المشاة خطوط الخصم من الأمام بينما التف الفرسان من جهة الجنوب والشمال لمحاصرة المجاهدين. لكن مجموعة منهم نجحت في احتلال نقطتي ارتكاز، عندها أمر (فوسمان) قواته بالتراجع وأعطى الأمر للمدفعية والبنادق البعيدة المدى بالتدخل. وقد طالت هذه المعركة ولم تنته إلا مع بزوغ الفجر. ومع الفجر دفن المجاهدون شهداءهم وحملوا جرحاهم وعادوا أدراجهم إلى يسر.

وقد أراد الجنرال لالمون أن يستعرض كل قواه، والتي كانت حقيقة ذات هيبة، فقرر الزحف نحو بلاد القبائل مع فجر 10 ماي. وعند مشاهدة كل تلك القوات تتحرك، تقدم قادة كل قبائل منطقة يسر إلى الجنرال وأعلنوا خضوعهم. وقد تكرر نفس المشهد ساعات بعد ذلك ببرج أم نايل. وقبل أن يكمل طريقه الى تيزي وزو، طلب الجنرال معلومات عن مصير الفرنسيين المحتجزين عند بني خلفون. وكان عددهم 41. ويوم 11 ماي، استأنف طريقه على عجل لتخفيف الخناق الذي كانت تيزي وزو تعانيه.

وقد مرت الفرقتان بالمدن دون أن يلقوا أية مقاومة تذكر، ومع ذلك فإنهم قد أحرقوا في طريقهم كلاً من ذراع بن خدة وبرج ساباو. وقد ارتأى المجاهدون الذين كانوا أقل عدة وعتادا أنه من الأسلم لهم أن يتركوا المدن ويختفوا عن الأنظار.

ورغم ذلك فإن القايد علي أوقاسي أراد أن يجهز معركة لكن العقيد فورشو الذي كان قد وضع عيونا له في كل مكان سرعان ماوصله الخبر. وقد استقبل رفاق القايد العدو بنيران غزيرة وحاسمة، إلا أن الفرنسيين هاجموهم بسرعة فأرغموهم على التراجع. وبعد أن أنهكهم التعب والإعياء عاد المجاهدون فعبروا وادي ساباو بهدف الاتجاه نحو الكتلة الجبلية، لكن العقيد فورشو انطلق في ملاحقتهم واندفع على رأس فرسانه

في الوادي يعبره. وعندما أصبح على بعد حوالي خمسة عشر مترا من الأرض الصلبة، أخذ في إطـلاق النيـران. وإذا بالفرسـان يتساقطـون تحـت وابـل الرصاص(. . .) أما العقيد الذي كان يتقدمهم فقد تلقى رصاصة جعلته يخر جثة عائمة. وبعد هذه المعركة، انسحب القايد علي أوقاسي ورفقائه إلى تيزي راشد أين حطوا مقر قيادتهم العامة. وقد تلت هذه المعركة معارك واشتباكات أخرى إلا أن المبادرة التي كانت في الشهر الأول دائما من جهة المجاهدين قد اصبحت اليوم تأتي أكثر من جانب الجنرالات الفرنسيس بعد أن تغيرت الأوضاع والأحوال.

مبادرات الجيش الفرنسي.

لقد قدم الجنرال لالمون إلى تيزي وزو لينظم الأمور : يرمم الانقاض، ويعيد توصيلات المياه، ويحطم المتاريس التي أقامها الثوار ويعيد ملأ مخازن التموين. أما الهدف الثاني فكان تحرير فور ناسيونال (الأربعاء ناث إيراثن) وإعادة طرق الاتصال مع مدينة دلس ولذلك كان عليه أيضا أن يحطم المقاومة بمنطقة تاورڤة. وقد خرج الجنرال من تيزي وزو يوم 15 ماي. وعندما وصل إلى تلك المنطقة شن هجومه على جبهتين. وقد كانت المعركة غاية في الضراوة كما كانت الخسائر البشرية جد مهمة في صفوف كلا الجمعين. وقد أظهر فيها المدافعون استبسالا لامثيل له وردوا كل الهجومات، إلا أنهم حين نفدت الذخيرة ضعفت قواهم ففكوا المعركة ليتجمعوا عند بني سليّم. وكانت هذه احدى معارك هذه الحرب. وقد استمرت المعارك واستمر القايد علي أوقاسي في جهاده.

بعد أن نال منهم العياء والبؤس والجوع، سارع كل من بني وڤنون وإفليسن لبحر، وآيث جناد لطلب الأمان. وفي يوم 25 ماي، عاود رتل الجنرال لالمون حركته وهذه المرة قاصدا مقر القايد علي أوقاسي.

في يوم 26 ماي قام سلاح الهندسة بهدم منزل القايد علي، ثم جاء دور تامدة لتلقى نفس المصير. بعد هذه التجاوزات، عاد الرتل إلى تشكيلته وتابع المسير. وعندما بلغ بلدة مقلع، حرّق الجنود البلدة وهدموا بيت عائلة آيث أوقاسي. وقد قام عندها الجنرال بمساعي لدى المرابطين(*) كي يتدخلوا للإفراج عن المساجين الذين كان القايد علي أوقاسي يحتجزهم، لكن هذا الأخير بقي متصلبا ولم يطلق سراحهم.

في يوم 27 ماي قرر الجنرال لالمون أن يقاتل بجمعة الساريج القايد علي أوقاسي الذي كان قد جمّع حوله قوة معتبرة. قام الجنرال أولا باستخدام سلاح المدفعية فأخذ يقصف كل المنطقة. وعندما توقفت المدافع عن الدوي، هجمت كل الوحدات في الوقت نفسه. لكن المقاومة بدت قوية ومنظمة، فكثفت وتيرة الطلقات وبدأ العسكر يتساقطون.

في يوم 31 ماي، توجه اللواء الأول صوب إسياخم أومدور التي كان المجاهدون قد تركوها ساعات قبل ذلك وصعدوا إلى ذرى الربى. وهنا أيضا إلتحق بعلي أوقاسي العديد من المتطوعين. وفي تاقصيبت أو سقلاوي صد تقدم سـلاح الفروسية وشلها كمين كثفت فيه الطلقات وأحكم تسديد رصاصها، وعندما هرعت كتيبة الرماة لتخليص الفرسان لقيت نفس المصير وأرغمت على الانبطاح أرضا دونما حركة. وقد تطورت الأحداث لصالح الجزائريين، فأنطلقت زغاريد النساء الحادة مما زاد من حرارة المجاهدين الذين انهالوا على الفرنسيس في هجوم شرس، وبعد عراك والتحام جهنمي استعاد المجاهدون تاقصيبت. فأخذت القوات الفرنسية في الانسحاب مهزومة من قبل جماعات علي أوقاسي التي كانت تلاحقها.

(*) كلمة المرابطين في القطر الجزائري يقصد بها الأشراف ورجال الدين على العموم.

وبعد هذه الهزيمة، أجل الجنرال لالمون الحملة التي بدأها باتجاه فور ناسيونال إلى أجل آخر، فقد كان يريد بالدرجة الأولى ضمان المحافظة على الأمن على طول الطريق الرابط بين تيزي وزو ودلس.

وربما كان علينا الآن أن نرجع إلى الجنرال سيريز، فبعد أن نُقل إلى منطقة القبائل الكبرى، وأثناء مهمة قام بها يوم 9 ماي في إقليم الصنهاجة، نجح في الاحراز على خضوع بعض الجماعات القبلية التي سلمت له سلاحها وبعض الرهائن. وحيث أنه لم يواجه أية مقاومة تذكر فقد خصص أيام 9، و10، و11 ماي لحرق المداشر ونهب المطامير، واتلاف الجنائن والبساتين. وفي يوم 12 اتجه نحو بني مناد وهويحرق كل القرى التي وجدها في طريقه. وفي يوم 13 قام أمين الأمناء بتسليمه المساجين الذين كان بن خلفون يحتجزونهم، فضمن بهذا الصنيع الأمان لنفسه ولأفراد قبيلته.

وقد كان على سيريز أن يلتحق بلالمون في تيزي وزو حتى يشتركا في قتال المجاهدين الذين كانوا يحاصرون فور ناسيونال. وقد تحرك إلى هناك في يوم 3 جوان ومعه حامية عمادها 1500 من الجنود المشاة وفصيلة مدفعية وضعت تحت أوامر المقدم ديزندر (Desandre).

وفي يوم 5 جوان، بدأ رتل الجنرال سيريز حركته لبلوغ ذراع الميزان التي كانت محاصرة منذ 47 يوما من قبل المجاهدين.

وبإشارة من الجنرال بدأت التشكيلات المتراصة مسيرتها، وعند ما صارت على بعد حوالي مائة متر من مرتفعات سيدي عبد الرحمان، لاحظ الضباط فصائل من المجاهدين كانت قد تجمعت وراء الحواجز تقطع عنهم الطريق. لم يكن هناك مفر من المجابهة. لقد كانت المقاومة على الأجنحة جد حية، إلا أن الهجومات المتكررة لسلاح

الفروسيــة على المجاهديــن المقاومــين قد انتهت بفتح ثغرة سرعان ما استغلتها ووسعتها القوات الماشية. ولولا التفوق العددي والتسليحي لما استطاعت قوات الجنرال سيريــز فتح الطريــق وتخليص ذراع الميزان.

وقد تلت هذا معارك أخرى كتلك التي جرت بتادارت أمقران، وآكال أبركان وآيث عطلّي، وبمضيق تيرودة الذي تفرد بضيافة رتل الجنرال ثيريز من يوم 6 جويلية حتى يوم 12 عندما قدمت قوات الجنرال لالمون لتعززه. ومازالــت القائــمة طويلــة إلا أننا سنكتفي بهذا القدر من الأمثلة القليلة فقط للتعريف بجزء من ذلك الجهاد الطويل الذي قاده في القرن الماضي، هـؤلاء الإخـوة في الوطـن الذين سيبقون مثالا يحتذى به في الشجاعة والنبل والوطنية[1]

وهكذا حتى يوم 30 جوان الذي كان شاهدا على كل من القايد علي أوقاسي، ومحمد أمقران أوقاسي، ومحمد لونيس أوقاسي ومعهم سي عزيز وهم يتوجهون إلى معسكر آيت هشام ليسلموا أنفسهم للجنرال لالمون الذي عاملهم كمجرمين وأمر بسجنهم على الفور.

---

(1) في هذا الجزء الذي يتناول المقاومة في بلاد القبائل رجعت أساسا إلى كتاب الطاهر أوصديق الذي سبق ذكره.

الفصل الرابع

دور بومزراق في ثــورة 1871

إن الثورة التي اندلعت في 16 مارس 1871 تحت قيادة الباشاغا المقراني لم تتأثر بموت الباشاغا ولا باستسلام الحداد وقادة منطقة القبائل بل امتدت إلى معظم الأراضي الجزائرية إذ استمر الكفاح ولم ينته حتى 20 جانفي 1872 إثر اكتشاف دورية للجيش الفرنسي بومـزراق خائـر القوى، بعد نجاحه في ترحيل جميع أفراد عائلة المقراني إلى تونس ولذلك سنتابع كفاح بومزراق ضد الجيش الفرنسي .

كان بومزراق -أخ الباشاغا المقراني- قائداً على قبائل ونوغة في ناحية سور الغزلان. وقد كلف أثناء تجمع 14 مارس بقيادة الكفاح في هذه الناحية التي كان يعرفها حق المعرفة، فالتحق مباشرة بمنصبه وجمع رجاله.

أول الاشتباكات

ابتداءً من 16 مارس بدأ بومزراق حصار معسكر أولاد خريس الذي وجه ضده العديد من الهجومات. وبتاريخ 17 مارس أرسل المقدم تريملي بمفرزة كبيرة لتدعيم الجنود المحاصرين، غير أن الخسائر الفرنسية كانت معتبرة بسبب الهجومات المتعددة التي شنها رجال بومزراق، وهذا ما اضطرهم الى الانسحاب في 24 مارس وبذلك احتل رجال بومزراق المخيم ودمروه عن كامله. وبهذا سجل بومزراق أول انتصار له .

وثاني أهم انتصارات بومزراق، كان في سيروج أين لقي النقيب «بيلو» من الجانب الفرنسي حتفه، وبعد قتال مرير، لاحظ رجال تريملي

بأن عدداً كبيراً من الضباط وصف الضباط والجنود قد غابوا عن المناداة.
وقد دفع هذا الانتصار الثاني لبومزراڤ كلاً من أولاد سالم وأولاد مسلم (والإنتاسن) إلى الالتحاق بالثورة بتاريخ 26 مارس.

وفي هذه الأثناء قام تريـملي بإلقاء القبض على بعض الوجهاء الذين اعتبرهم متحالفين مع عائلة المقراني.

وبعد هذه الانتصارات الأولى، وقطع الخطوط الهاتفية بمنطقة البحيرة أقام بومزراڤ مخيمه في حمام زيان .

وفي 17 أفريل، كلف تريـملي مجموعة من 50 فارسا بمهاجمة أعدائه، غير أن رجال بومزراڤ كانوا على أهبة الاستعداد، فهاجموهم وأسقطوا منهم عشرين فارسا. وبعد هذا الإخفاق، شكل المقدم قافلة مكونة من 600 فارسا تحت قيادة الرائد براون (Braun) الذي تحرك بتاريخ 8 أفريل على الساعة العاشرة ليلا.

وفي 10 أفريل، فوجئ الرائد برجال بومزراڤ في رأس القمقوم يستقبلونه بنيرانهم الكثيفة والمميتة، فانبطح العساكر أرضا غير أن جزءا معتبرا من القوات تمكنوا من المرور والالتحاق بمخيم الأصنام فكان ذلك الانتصار الثالث لبومزراڤ.

وبعد عملية رأس القمقوم، وحصار بني منصور، التحق بومزراڤ بأخيه للتحضير للعمليات المستقبلية تاركا القيادة لقريبه بورنان .

أراد الجنرال سيريز اغتنام فرصة غياب بومزراڤ فزحف في 18 أفريل لمواجهة بورنان، فكانت معركة ثنية أولاد داود . وقد أمر الجنرال بتدخل المدفعيـة لقـصف خطـوط العدو، وانتشر العساكر على سبيل الاحتياط، غير أن رشقا كثيفا من البنادق واجههم مما اضطرهم للتراجع. وقد تضاعفت الهجومات ورغم الخسائر الكبيرة فإنهم قد بقوا صامدين.

أما بورنان الذي كان رجاله يعانون من نفاد الذخيرة، فقد طلب منهم ترك خنادقهم للاختفاء في الغابات المجاورة، ولم يجد رجال سيريز بعد تسللهم والتفافهم على الموانع الطبيعية إلا الخلاء، فأين اختفى رجال بورنان ياترى؟.

الجنرال سيريز ينتقم من الأهالي .

في اليوم الموالي، وأمام هذا الفشل والخسائر التي تكبدها، وحتى يشفي غليله قام الجنرال سيريز بتسليط رجاله على القرى والحقول والبساتين، فقاموا بحرق المساكن وقطع الأشجار المثمرة، وإفراغ المطامير وتقديم القمح والحبوب غذاءً لدوابهم وأحصنتهم .

وقد دافع السكان عن أنفسهم باستبسال في انتظار وصول بومزراق، أما الجنرال سيريز فقد كان يعلم أن خصمه كان بعيدا، لذا قرر الانتقام. فوجه رجاله نحو منزل بومزراق لنهبه، وحينما وصل العساكر أمام المبنى الفخم ، وفي اللحظة التي ترجلوا فيها ليقوموا بمعاينته ، إذا بالنيران المكثفة تطلق من كل مكان، وهكذا أبيد معظم أفراد هذه الدورية، وفر الذين كتبت لهم النجاة. أما أتباع بومزراق فقد اغتنموا فرصة الارتباك في صفوف العدو ليتفرقوا ويختبئوا.

وتحت وقع هذا الاستقبال أمر سيريز بتجهيز ثلاثة مدافع عيار 12 وإطلاق القذائف على المنزل، فانهارت الجدران حتى بدأ السقف في التساقط وعندها بدأت عملية سلب ونهب هذه الإقامة. ولم تكن إقامة بومزراق الوحيدة التي دمرت، فقد دمرت كل المنازل بقرى المنطقة، كما لقيت المصير نفسه كل الحدائق والبساتين والحقول والمطامير؛ بعد هذا استدعي سيريز من قبل رؤسائه وأغلب الظن أن السبب يعود إلى تجاوزاته العديدة التي لم تزد الثورة إلا تأججا وحقدا ضد المحتل.

بومزراف يحتل مركز وادي خريس.

انتهى بومزراف هو أيضا إلى احتلال مركز وادي خريس يوم 26 مارس فدمروه هو والتجهيزات الهاتفية التي كانت تربطه بسور الغزلان. وبعد هذا توجه إلى أولاد داود أين أنشأ مركزا مهما لمقاتليه في منطقة ونوغة. كما أنه استقبل العديد من المتطوعين.

وعند وصوله إلى برج الأصنام، طلب من قائد أولاد عزيز أن يلتحق بالجهاد. وفي هذه الأثناء كان بوزيد أغا البويرة العدو اللدود لآل المقراني، يراقب كل تحركاته وينقل أخباره أولا بأول للضباط الفرنسيين.

ولم يكن بومزراف يجهل الدور الذي كان يلعبه هذا الآغا ولا شريكه محمد بن منصور قايد أولاد بليل. فكتب إليهما داعيا إياهم للالتحاق بالثورة، ولم يكن الوحيد الذي كاتبهما في هذا الشأن، إذ أن الشيخ الجعدي شيخ الزاوية الرحمانية بالقرب من ذراع الميزان كان أيضا قد كاتبهما في هذا الشأن منذ إعلان الشيخ الحداد الجهاد. ولكنه وللأسف فإن الآغا وأصدقاءه كان خطرهم على الثورة يزيد يوما بعد يوم.

وبعد أحداث وادي خريس، أقام بومزراف يوم 5 أفريل معسكره في أولاد بوزيان بين بني يعلى وبني منصور على بعد حوالي 30 كلم من سور الغزلان.

وقد كان السكان في هذه المنطقة مستعدين لدعمه في التدخل في برج بني منصور أو في البويرة. وقد حاول بومزراف أن يأخذ مركز تخزين الحبوب ثم توجه نحو قريبه بورنان. عند وصوله بعث برسائل إلى كبراء بني منصور وإلى الشرفة وسكان المنطقة طالبا منهم محاصرة برج بني منصور.

وقد لبى كل من بني منصور والشرفة النداء منذ 8 أفريل وهو اليوم الذي أعلن فيه الشيخ الحداد الجهاد. وفي يوم 10 أفريل عاد بومزراف إلى المخيم بالقرب من برج بني منصور أين قاد معركة كبيرة. ثم عاد بعد

ذلك إلى قريبه علي بن بورنان واستمر في كتابة رسائله قصد اقناع المترددين بالالتحاق بالثورة. وبعد بضعة أيام أرسل إليه أخوه الباشاغا المقراني يستدعيه ليلتحق به في منطقة وادي الشعير.[1]

وقد كتب الأغا بوزيد مايلي: «وحتى أولئك الذين لم يروا منا إلا خيرا انضموا إلى صف العدو» وقد ذكر ج. بورقاد أن الجنرال سيريز في مراسلاته بتاريخ 18 و21 أفريل 1871 قد أكد ما كتبه الأغا بوزيد وأضاف بأن «بومزراق بمجرد ما سمع بوصول سيريز إلى المنطقة قد حث الأهالي على البقاء صامدين، ورفض الاستسلام وعدم الرضوخ».[2]

بومزراق بعد وفاة الباشاغا.

توجه بومزراق بعد دفن الباشاغا بقلعة بني عباس نحو منطقة بجاية و ذلك استجابة لنداء سي امحمد الحداد، وفي يوم 11 ماي انطلق من هناك نحو بني منصور أين كان ينتظره الصغير بن بورنان ومحمد بن قويدر اللذان كانا يحاصران المدينة بجيش تعداده 3000 رجل. وقد استقبل بومزراق في هذا المكان ممثلي العديد من القبائل الذين جاؤوا ليعزوه في أخيه الفقيد.

بعد أن علم القادة العسكريون الفرنسيس بموت الباشاغا المقراني أرادوا أن يستعملوا كل ما بوسعهم لعرقلة أو إيقاف الانتفاضة. وهكذا فقد كتبوا إلى كل القادة الجزائريين من قياد و آغات وباشاغات لإخبارهم بأن الانتفاضة قد انتهت بنهاية الباشاغا وبأنهم ملزمون بتبليغ السلطات

---

(1) فور ذاك كتب الأغا بوزيد إلى تروملي ليخبره بذهاب بومزراق وأن هذا الأخير يكون قد قال «سوف أذهب إلى مجانة لجلب 600 فارس حتى أنتقم من البويرة» أ. و. ح. ملف رقم 375 H بتاريخ 17 أفريل 1871، نقلا عن د. يحي بوعزيز.

(2) ج بورقاد، مذكرات زمنية الترتيب لتدوين تاريخ الاحتلال الفرنسي في منطقة أومال (سور الغزلان)، الجزائر، جودان، 1891 ص. 38– 41. مذكورة عند يحي بوعزيز.

الفرنسية عن كل تحركات الأهالي. ومقابل ذلك كتب بومزراق إلى كل الأصدقاء ليقول لهم بأن عائلة المقراني ماتزال متحدة لإنجاح الثورة والوصول بها إلى هدفها المنشود. وأن استشهاد الباشاغا هو أحسن محفز على مواصلة الجهاد.

ولتشجيع مراسليه أضاف قائلا «لقد وصل محي الدين بن الأمير عبد القادر إلى مدينة تبسة و هو الآن يتقدم مع مرافقيه من المجاهدين نحو مدينة قسنطينة». وبعد المعركة الضارية التي شهدتها بجاية يوم 17 ماي التحق بومزراق بالسي عزيز في منطقة سطيف لمساندة مجاهدي المنطقة الذين كانوا يواجهون فرق الجنرال سوسيي. وكان القتال هناك قد بدأ في 20 ماي وتواصل إلى غاية يوم 25. وهنا تمكن بومزراق من الحصول على مساندة الشيخ أحمد باي قايد أولاد عمور. وقد التحق بالجهاد الشيخ أحمد باي مع أعضاء عائلته، ومعا كتبا إلى داود بن كسكاس يدعوانه للالتحاق بصفوفهما.[1]

وفي يوم 27 ماي عاد بومزراق إلى قلعة بني عباس حيث استقبل في اليوم الموالي بن علي الشريف باشاغا شلاطة الذي قدم برفقة ابنه لتعزيته في أخيه، وربما، كما ذهب إليه رين، لدعوته إلى إيقاف القتال الذي لم يعد هناك أمل في نجاحه، إذ أن فرنسا قد استعادت زمام الأمور وأنها سترمي بكل ثقلها للقضاء على الثورة. فضرب بومزراق بهذه النصيحة عرض الحائط وأنهى المقابلة.

(1) كتب رين في مؤلفه بأنه في الحقيقة قد وقع على هذه الرسالة سبعة أشخاص: فبالاضافة إلى الشيخ أحمد باي هناك أيضا الصغير بن عروس قايد ريغة، و زروق بن هني من أولاد ثابت، ومحمد بن عبد السلام قايد عين تاغروت وأحمد بن محمد من أولاد عياد، وعبد الرحمان بلقندوز، والصغير بن بورنان وأن بن كسكاس لم يستجب للنداء وعليه فيجب اعتباره مثل آغا البويرة. يحي بوعزيز ص. .289.

كان بومزراف يتتبع عن قرب خطوات الفرنسيين، وهكذا علم بتوجه الجنرال سيريز نحو منطقة بني منصور لرفع الحصار عنها، حينها دعا بومزراف المجاهدين إلى الصمود والتأهب لمواجهة العدو. فكانت المواجهة يوم 29 ماي وقد استعمل الجزائريون حتى السلاح الأبيض؛ ولكن الخسائر كانت للأسف كبيرة في صفوف المجاهدين إذ أن القتال لم يكن متكافئا.

في أوائل شهر جوان ذهب بومزراف مرة أخرى للالتحاق بالمجاهدين في منطقة سطيف، فيما كان المجاهدون الآخرون يواصلون الكفاح بالقرب من برج بني منصور يومي 12 و13 جوان. فأدى زيارة خفيفة لسي عزيز ورفاقه حتى يشجعهم على مواصلة الجهاد، ثم توجه يوم 15 لتأديب بني عمور وذلك بعد المساعدات التي لقيها الجيش الفرنسي من قبل بعض السكان.

يوم 19 جوان التقى بومزراف بخميس أولاد فايت برتل كان تحت قيادة العقيد ڤورشو (Gourchot) فحدثت معركة كان نتيجتها تسعة قتلى وتسعة جرحى من الجنود الفرنسيين. وقد كتب بورڤاد بأن الفرنسيين قد فوجؤوا لرؤية البعض من أصدقائهم في صف بومزراف. كما أبدى تريملي أيضا تعجبه لرؤية أصدقاء فرنسا يناصرون الانتفاضة.[1]

استسلام آل الحداد.

في أوائل جويلية، استسلم آل الحداد الواحد تلو الآخر، وقد تبعهم في ذلك بعض القياد الذين كانوا يتمتعون ببعض التأثير في الأوساط الشعبية، فكان هذا بمثابة ضربة عنيفة ومؤلمة تلقاها بومزراف تكاد تكون في تأثيرها مثل فقدانه لأخيه.

---

(1). تروملي (المقدم)، تقرير السير والعمليات من 4/8 إلى 20/8 / 1871.أ. و.ح. ملف رقم H: 375 و بورڤاد (ج.) م.س.ذ. عند بوعزيز يحي. ص. 240.

وحول هذا الاستسلام كتب مولود قايد على ضوء ما قاله رين: « كلهم أتوا ليضعوا أنفسهم في خدمة الجنرال لالمون؛ لقد قالوا أنهم يقبلون مسبقا كل الشروط التي ستعرض عليهم، لكنهم طلبوا منه أن يتفضل عليهم بالنظر لخدماتهم السابقة بأن يُقبلوا كأعوان، وإنهم يقسمون على أنهم سيكرسون كل نفوذهم السياسي والديني ليعيدوا إلى الطريق أولئك الأهالي الذين ضلوا مثلهم سواء السبيل وأن يجعلوهم يندمون مثلهم على ما اقترفوه. » (ل. رين).

فكان رد الجنرال «بأن مصيرهم قد أصبح في يد الحاكم العام الذي عليهم أن يعلنوا له الخضوع و يعرضوا عليه اقتراحاتهم. »

عندها ترجى عزيز الجنرال ليسمح له بالكتابة مباشرة إلى الأميرال ڤيدون (Guedon). وفي نفس اليوم قدم الرسالة التالية والتي كتبت باللغة الفرنسية: سيدي الحاكم؛

لقد سبق وأن كاتبتكم من كل من بجاية وسطيف دون أن أتلقى أي جواب، ولست أدري ما إذا كانت رسائلي قد وصلت أم لا.

إنني أعترف بالجريمة التي اقترفتها؛ فاسمحوا بإقامة السلم معي، فإنه من المستحيل أن آتي بنفسي في الوقت الحاضر. وإنني سأعمل على جعل كل أصدقائي يخضعون لأوامركم وسلطتكم، وسأساعدكم في إحلال السلم والطمأنينة. وسأنقلب أنا وقواتي ضد أعدائكم، الذين ورطوني في هذه الجريمة الشنعاء.

و بمجرد أن تصلني رسالة العفو سأصبح تحت أوامركم وأقسم لكم بأني سأحارب حتى الموت أنا وأصدقائي من أجل الحكومة الفرنسية، لأغسل هذه الوصمة التي لطختني، فلتبعثوا لي بجواب وأنا تحت أوامركم وسأقدم لكم كل العون.

« وإنه ليعتريني الخجل أن أظهر أمام أصدقائي القدامى الفرنسيس طالما لم أطهر نفسي من هذا الماضي، وأكن مثالا للخادم الوفي للجمهورية الفرنسية » . إمضاء، الشيخ عزيز.

وفي نفس اليوم وصل مرسول من صدوق يحمل إلى الجنرال خطابا يعلن فيه الشيخ الحداد أن استسلام ابنه التائب قد جاء بأمر منه وعن كامل موافقته.

...« أما سي امحمد أوحداد، الأخ الأكبر لسي عزيز، فكان في طريقه للاستسلام إلى نفس الجنرال الذي تنقل إلى بجاية. وعلى مسافة غير بعيدة من المدينة، التقى بالسعيد أورابح، الذي كان في طريقه لتسليم نفسه هو الآخر. فنزل كل منهما من مطيته لمصافحة الآخر. وما إن تعانق الرجلان حتى طرح السعيد أورابح سي امحمد أرضا بمنتهى الغدر وجعل رجاله يقيدونه ليقدموه للسلطات الفرنسية كسجين. وعندما قُدم لهذه الأخيرة، وبعد أن فكت قيوده، أخرج لهم رسالة أخيه التي ينصحه فيها بتسليم نفسه. ورغم الحرج الذي أصبح فيه السعيد أورابح إلا أنه تحصل على منصب قايد بجوار بني عمومته المتجندين في صفوف القوات الإمبريالية »[1].

غير أن بومزراڤ مازال موجودا على الساحة، ولم يكن ليستسلم بهذه السهولة؛ فقد كان يعلم بخفايا الأمور؛ ولم يكن ليلين حتى بعدما كتب سي عزيز لبعض مقدمي الطريقة ليحذوا حذوه ويسلموا أنفسهم مثله »[2].

في يوم 13 جويلية قدم بعض مقدمي الطريقة إلى سيدي لكحل ليسلموا أنفسهم وكان الشيخ الحداد نفسه على رأسهم. « وقد كانت سنه المتقدمة، حسب ما كتبه شاهد عيان، ومآسيه، وتجاعيد وجهه النحيل التي رسمها دهر بأكمله قضاه الشيخ في الزهد والاختلاء، وقد أثرت نبالة موقفه في أكثر جنودنا لامبالاة و برودة إحساس. »

(1) قايد مولود، المقراني، نشر الأندلس، الجزائر، 1993، ص 139 – 141.

(2) قايد مولود، م. س. ذ. ص 140 – 141.

أما قيادنا والصبايحية والأعوان فقد استوجب الأمر إقامة تنظيم خاص لمنعهم من الاندفاع الفوضوي ليصلوا إلى الفوز بلمس أو تقبيل أهداب برنوسه».

وقد أعاد الشيخ الحداد على الجنرال سوسيي نفس الجملة التي كان قد كتبها إلى الجنرال لالمون: «إنني هنا كالميت بين أيديكم؛ وإنني لبين يدي قدير رحيم جعل من الرحمة والمغفرة صفة من صفات عظمته».

عندها أمر الجنرال بتوصيله إلى خيمة خصصت له أين عزل الشيخ نفسه وأحفاده وبعض الخدم. وطوال كل اليوم لم ينقطع الصبايحية والأعوان من الذهاب إليه لتقبيل يده تعبيرا عن احترامهم وإخلاصهم له.

وفي يوم 15 جويلية نُقل إلى تيقلات ويوم 18 إلى بجاية حيث سجن بفورباراال.[1]

أتباع الطريقة الرحمانية يواصلون الجهاد.

«...في يوم 13 جويلية، اليوم نفسه الذي كان فيه الشيخ الحداد يسلم نفسه للجنرال سوسيي، كان مقدمو الرحمانية في ناحية شرشال يعلنون الجهاد، في سوق بني مناصر ويقررون الهجوم على المؤسسات الأروبية الواقعة في ضواحي هذه المدينة في اليوم الموالي.

وفي يوم 14 جويلية، كانت نوڤي وزوريخ والمزارع المعزولة تحت الحصار والهجومات؛ كما كانت شرشال مشلولة من قبل بني مناصر الذين لحق بهم أهل زطيمة وبني زوي وڤوراية والأرهاط وبني مناد الذين كان يقودهم مالك بن صحراوي البركاني(...) وقد أجبر هذا الثوران الشعبي بغرب العاصمة السلطات العسكرية على تقليص عدد الوحدات العاملة بالشرق لصالح هذه المناطق.

(1) قايد مولود، م. س. ذ. ص 142 – 143.

قسم مالك البركاني قواته إلى ثلاث مجموعات، وجهت إحداها نحو تيزي الخميس، فيما بقي الباقي في محيط مدينة شرشال.

«وقد دار قتال بين رتل قدم من الجزائر، دامت رحاه مدة ساعتين من الزّمن، ثم انسحب المجاهدون. بُعث قائد المجموعة تيداف محمّد أو عمار عبد القادر إلى تيزي الخميس متظاهرا بالاستسلام والهدف كان تقييم قوات العدو وبمجرد أن أنهى مهمته عاد إلى مخيّمه من حيث خرجت مجموعة الوطنيين للإغارة على الأعداء من جانبهم الأكثر وهنا وبفعل المباغتة تكبّد الأعداء خسائر هامة، وبعد أقل من ساعة من المناوشة، انسحبت المجموعة.

وفي الرّابع عشر من شهر جويلية تعرض مرانغو بدوره للتهديد من قبل جماعات مسلحة، فتمت مقاطعة دورية خيالة فرنسية ولقي عسكري مصرعه، وتم تأجيل الهجوم على القرية (...) لأن المقدم ديسندر (Desandre) هرع من مدينة القليعة لنجدة المدينة.

«بعد مواجهة غير ذات أهمية مع المهاجمين، كوّن العقيد سريّة للحماية وعاد أدراجه إلى مدينة شرشال لنجدتها.

وكان مالك البركاني، الذي استقر به المقام في مزرعة أحد المعمرين (...) الذي هجرها، يتهيأ للإغارة على مدينة شرشال ومزارع المعمرين الذين يقيمون بجوارها، وكان يهدف فقط إلى إحباط الروح المعنوية للعدو (...) غير أن مساعديه الشباب ما فتئوا يقومون بالهجومات، فأضرموا النار في المزارع. إلا أنهم ما إن دوّى صوت العيارات النارية، وارتفعت طلقات المدفعية(...) معلنة قدوم التعزيزات من مدينة الجزائر حتى ولُّوا أدبارهم».

«وجّه مالك البركاني رسائل لمختلف الاتجاهات: للقياد الوجهاء، ولقضاة الشّرع، ولأعيان القوم(...) يحثهم فيها على الالتحاق به (...)

وتشكلت جماعات مقاومة، تمركزت في الرّيف تهاجم المزارع والمدن المعزولة وضواحيها، فلم يسلم مركب الاستشفاء بالمياه المعدنية الحارة بحمام ريغة. أمّا المستشفى فقد تمّ إخلاؤه والاستفادة من كل ما يمكنه أن يكون ذا نفع بالنسبة للمقاتلين.

«على ضفة واد بلة، تمّ إحراق مزرعة الجنرال برانكور، فتحرّك رتل المقدم ديسندر لإنقاذ ثلاثين معمّرا تمت محاصرتهم داخل أسوار المزرعة فقرر المقدم إجلاءها وهي التي كانت مهدّدة من شتى الجوانب (...) فقد هاجمتها جماعات المقاومة من كل الجهات(...) ودخلتها بالقوة، أما الضابط الذي كان يعطي الأوامر فقد أنهكته الجراح. فلم يتمكن جنوده القنّاصون في غمرة اضطرابهم من الصمود أكثر، وقد سقط الكثير منهم على الأرض إما قتلى أو جرحى، وكان يوما مشهودا سجّل فيه الوطنيون نجاحًا باهرا دعّمه تجند العديد من الشباب».

«في السابع عشر من شهر جويلية أغار سكان الأرهاط على مصنع الزيت والجص المعروف باسم (مولان بيكي) الواقع عند مصب واد ملاح، فالقائد الحاج ابراهيم بلقاسم هو الذي قدم مع قومانه لتخليص المالك وعائلته حيث رحل الجميع إلى تنس.

«من ضواحي مليانة إلى شرشال مروراً بالقليعة، كل قرى المتيجة كانت الثورة فيها مضطرمة.

في صباح اليوم الثاني من شهر أوت، وقع اشتباك بالقرب من مدينة شرشال استشهد فيه سي مالك البركاني.

أحرق العقيد بوزار الذي قاد العملية، قرية تيداف التابعة لبني مناصر.

«مع نهاية شهر أوت، خمدت آخر أنفاس ثورة بني مناصر، غير أن الكثيرين آثروا الحياة في الجبال المنيعة على البقاء تحت نير بنادق الأعداء.

وفي الشرق، بجبال البابور وبالقل وفرجيوة، وجيجل.. .الخ استمات الوطنيون في الكفاح تحت إدارة مولاي شقفة مقدم الطريقة الرّحمانية الذي انضمت إليه حشود من الأنصار الذين لبّوا داعي الجهاد.

وفي السادس عشر من شهر جويلية كلّف المقدم سي الحاج العربي بن الحاج محمد بن الصدّيق بعمليات الهجوم على مدينة جيجل.

«اليوم العشرون من الشهر نفسه، تمت محاولات للإغارة على قرية علجنقية والميلية، وتهديد بضرب خط سكة الحديد سكيكدة – قسنطينة.

«في الثاني من شهر أوت، عُهد بقيادة الوطنيين إلى بوبڤرة للهجوم على مؤسسة بونوڤة، وتركّز الهجوم الموالي على قافلة للتموين كانت تقصد مدينة القل. وانصبّ الاهتمام على مدار شهر أوت لتنظيم مناوشات (...) مانعة بذلك السّير الحرّ للقوافل».

وانطلقت الدوريات والڤومان تحت إشراف ضباط فرنسيين لمطاردة الوطنيين المعزولين.

«أما بلقاسم بن مولاي شقفة فقد استمر في مناوشة القائد دولكروا حتى شهر سبتمبر.

«هذا الجنرال كان يستعمل مساعدين مثل أولئك الذين قادهم بلقاسم بن حبيلس، الذي خرج صوب باب سلمى على إقليم بني ورزدين وبني ياجس حيث قتلوا بعض الأشخاص وأسروا كلا من سي ابراهيم بوصوفة ورابح بن جبّار وسي أحمد بن علي بن شكيرو وكلّهم أعضاء من الجمعية الدينية الرحمانية. وقد أعدمهم القائد دولكروا جميعا رميًا بالرصاص بمجرد وصولهم إلى المخيم.

أغار ڤومان بن حبيلس على قرية دار الواد التي عاثوا فيها فسادا، فحرقوا المساكن وأخلوا المنازل واحتجزوا المواشي.

«وقد تدخل بعض شيوخ ڤومان بن حبيلس لإيقاف هذه المجزرة التي كانت تبدو انتقاما شخصيا أكثر منها فعلاً حربيًا». كما كتب مولود قايد.[1]

وإذا كان دور رجال الثورة يتلخص أساسًا في خوض عمليات الهجوم، فإنهم مع هذه الوضعية الجديدة لم يبق لهم سوى الدّفاع أو ربما حتى التوجه إلى جنوب البلاد.

رغم كلّ الذي وقع، فإن بومزراق بقي صامدا ولم يتزحزح، واستمر في الكتابة من أجل حث الأصدقاء على الالتحاق بالثورة «لأن المشركين أصبحوا يرحلون لبلادهم حتى يقاوموا هجومات البروسيين (Prussiens) وقد أثر هذا الرحيل على معنويات العسكريين الذين بقوا بالجزائر.» صبّ بومزراق سوط عقابه على بعض سكان بوجليل لعلاقتهم مع الفرنسيين وهاهو بقدوم اليوم الثاني عشر من شهر جويلية يشتبك مع رجال الجنرال سوسيي.

بومزراق يجابه الجنرالات الفرنسيين:

انسحب بومزراق بعدها إلى مابين بني عيدل وبني ورثيلان، وفي آخر المطاف ذهب إلى بني عباس بغية تجنيد مقاتلين جدد.

وفي الخامس من شهر جويلية توجه نحو تيروورده لملاقاة فرق الجنرال لالموند التي كانت في طريقها إلى بني عباس. بعد هذه المناوشات، مرّ قائد الثورة بالقرب من تازمالت ليستقر بجبل أزرو عند بني ورثيلان غير أن مقامه هناك لم يدم طويلاً لأنه علم أن القائد سوسيي يُعدّ العدّة لمحاصرته. ولم يبتعد كثيراً حتى وجد نفسه في مواجهة رتل فرنسي كبير، فدارت معركة (تاخرتا) في العشرين من شهر جويلية، ولا زال سكان المنطقة إلى يومنا هذا يعرفون المكان بإسم «معركة تاخرتا».

---

(1) قايد مولود، م. س. ذ. ص 144 – 150.

ثم أخذ طريقه بين الجبال صوب منطقة بني عباس داعيا سكان المناطق التي مرّ بها للوقوف في وجه فرق القائد سوسيي حيث مرّ بقرية العاشور عند مصب واد زمورة[1].

التقى سوسيي رتلا محملاً بالبضائع التي نجت من ممتلكات المقراني؛ حبوب ومواش وكل ما أمكن إنقاذه بعدما تعرضت القلعة للنهب في الثاني والعشرين من شهر جويلية من قبل الجنرال لالموند بمساعدة الباشاغا بن علي الشريف، وربّما يكون بومزراق هو الذي أعطى الأمر كي يخرج هذا الرّتل من المنطقة. وأثناء هذا التحرك، قام القائد لالموند باختطاف زوجة وابنة الباشاغا وكذا ابنة بومزراق.

بومزراق يستمر في تحركاته:

لم يستطع قائد الثورة الابتعاد عن منطقته، فعاد مرة أخرى يحوم حول مجّانة، فأغار على الفرنسيين وحلفائهم، وانتزع من الضابط تيبودان 80 بغلاً وهي التي ستعينه في التنقل.

باكورة هذا النّصر تمثلت في أفواج من المتطوعين الملتحقين بصفوف القتال. ولم يتوان بومزراق في عمل نفس الشيء مع رتل آخر محمل بالبضائع التي سلبت ببني عباس وهو متجه إلى سور الغزلان.

لم يكن بومزراق وحده، بل كان معه أعضاء آخرون من عائلة المقراني يقاتلون إلى جانبه.

سعيد بن بوداود المقراني:

كلّف الباشاغا المقراني قريبه سعيد بن بوداود قايد الحضنة بالإشراف، على مدينة بوسعادة وضواحيها، زيادة على منطقته.

---

(1) تراي (دكتور أ) الحملة على بلاد القبائل المشرقية والحضنة، مارس – نوفمبر 1871، بومون إ.م. ب 1876 ص ص 1 – 9 – 16 – 39، تلاها يحي بوعزيز ص 242.

واستقرّ القايد سعيد منذ البداية بهذه المدينة والتي كان ينافسه فيها القايد صخري بن بوضياف فحدثت عدة اشتباكات بين الرجلين، وأهمها هو الاشتباك الذي وقع في السادس عشر من شهر مايو من عام 1871، الذي كُلِّلَ بانتصار سعيد بن بوداود.

كان هذا القايد نشيط جدا، شأنه في ذلك شأن أقربائه، لقد كان كثير الحركة في البداية من أجل الالتقاء بالباشاغا، وفي الأخير من أجل التنسيق مع بومزراق. ولقد دفعت هذه الحركة بالآغا بوزيد آغا البويرة ليضعه تحت المراقبة وينقل كل تحركاته إلى الضباط الفرنسيين.

«لم يكن الناس يريدون التصديق بأن الباشاغا قد مات، فهاهم الآن يهددوننا بسعيد بن بوداود»[1].

في إحدى لقاءاته مع بومزراق، شارك القايد سعيد في المعركة التي خاضاها معًا في التاسع عشر من شهر جوان، وبعدها عاد سعيد إلى المسيلة يصطحب معه عددًا لا بأس به من آل المقراني وبخاصة النساء والأطفال بقصد حمايتهم.

وفي السابع من شهر جويلية قاد قتالا عنيفًا بسيدي عيسى ضد حلفاء الفرنسيين وكتب من هناك إلى زعماء العائلات الكبيرة بالتيطري ليدعوهم للالتحاق بالثورة.

وبأوامر من بومزراق، شن العديد من الهجومات ضد بوسعادة في الأيام العشرين والحادي والعشرين والثالث والعشرين من شهر جويلية. وقد طلب المحاصرون تعزيزات فحصلوا عليها ممّا اضطر الزعيم سعيد للانسحاب وهذه المرّة إلى أولاد جلال.

---

(1) رسالة الآغا بوزيد ذكرها يحي بوعزيز توجد ب (أ.م.ج) (carton) 375 موجهة إلى رائد سور الغزلان بتاريخ 16 مايو 1871.

وفي الحقيقة لم يكن القايد سعيد بمفرده، لأنه مع مطلع شهر أوت قاد رفقة أقربائه العديد من المعارك، بمنطقة بوسعادة وحتى ضواحي مَلّوزة ثم تجمعوا بكاف الكعب. وقد ترأس الاجتماع هذه المرة الحاج بوعزيز أخ القايد سعيد وقد حضره علي بن بورنان قايد المعاضيد، وحمود بن بورنان قايد المزيتة، وأفراد آخرون من آل المقراني فضلاً عن بعض الأصدقاء الذين أتوا من ونوغة.

وفي هذا المكان، وجدوا أنفسهم في مواجهة رتل هام بقيادة الجنرال سيريز يتجه نحو بوسعادة، وأعقبت هذه المعركة معركة أخرى في الرابع عشر من شهر أوت، وكانت هذه المرّة ضد رتل آخر تحت إمرة الجنرال سوسيي، الذي حلّ بدوره بهذه المنطقة. بعد هذه المعارك، قصد الجميع أولاد حناش بالمعاضيد بالقرب من قلعة بني عباس واتفقوا على غزو المسيلة، بغرض التصدي لفرق سوسيي، وهذه المرة كان بومرزاق هو الذي كتب إلى قبائل الميزيتة بجبال البيبان يعلمهم بالاتفاق الذي تم بين زعماء العائلات الكبيرة في الحضنة. والقايد سعيد بن بوداود من أجل مواصلة الكفاح. ودعاهم فيها ليبعثوا له بوفد لبحث الوضعية.

بومزراق في منطقة بوسعادة:

في اليوم الرابع والعشرين من شهر أوت اتجه كل من بومزراق وسعيد بن بوداود وحمود بن بورنان إلى المسيلة، فقادوا عدة هجومات ضد رجال سوسيي غير أنها للأسف لم تكن ذات نجاح.

ثم تحادث بن بوداود بجنوب المسيلة مع زعيم أولاد نجعة الشيخ ڤنان بن ديري ثم قام بجولات في العديد من المناطق قصد استقطاب متطوعين جدد وجلب الأسلحة والمؤن.

قصد بومزراق ونوغة ليستجلب مقاتلين، أما حمود بن بورنان فقد حذا نفس الحذو باحثا عن حلفاء جدد لدى قبائل المزيتة.

لم يطل ببن بوداود المقام في نواحي المسيلة إذ استمر في الحركة واتجه هذه المرة إلى ضواحي قلعة بني حمّاد، بينما كان بومزراق من جهته يطرق أبواب أولاد خلوف بجبال البيبان.

وقد قابل بن بوداود قافلة للجيش الفرنسي فواجهها، ثم تابع سيره مع آخرين في طلب يد العون والمساعدات.

وقد واصل بومزراق الهجوم بدوره واضعًا نصب عينيه حلفاء الفرنسيين، وبطبيعة الحال فإن هؤلاء كانوا يكتبون الرسالة تلو الأخرى من أجل الوشاية بتحركات آل المقراني، ولما بلغ شهر سبتمبر نهايته، كان الخناق الذي ضرب على آل المقراني من جديد قد بلغ ذروته.

آل المقراني يقصدون الجنوب.

وبتاريخ العشرين من شهر سبتمبر، غادر سعيد بوداود منطقة المسيلة، ولكنه اجتمع مع بعض من أقربائه آنفًا، قصد تعزيز معداتهم لاسيما وسائل النقل.

كانوا بحاجة للأحصنة، والبغال والحمير والإبل لينقلوا عائلاتهم وما بقي لهم من ممتلكات. وقد التحق بومزراق هو الآخر بالمجموعة، فقد كان لايزال زعيم عصبة «آل المقراني».

كيف يحمون عائلاتهم؟ والمؤن والحبوب والماشية؟

لقد كان أخذ القرار أمرا لا مناص منه، فقبضة الجيش الفرنسي ما فتئت تستحكم.

وأخيرا، تحركت القافلة في طريقها نحو الجنوب الكبير، وكان هذا في اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر.

وعندما وصلوا إلى المكان المسمى (قبر السلوقي) وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع فرق الجنرال سوسيي، وهنا نشب قتال ضار وكانت المسألة في هذه المرة مسألة شرف، كانت كل عائلة المقراني بشيوخها وكهولها ومحاربيها ونسائها وحتى أطفالها وكل ما تبقى من البضائع والممتلكات المادية ووسائل النقل وجها لوجه مع العدو. وقد كان القتال شرسا، وإذا كانت العائلة قد فقدت كل البضائع المادية، وجزءا غير يسير من الدواب، التي تمثل وسائل النقل، فإنهم قد حافظوا على الأهم وهو شرفهم من أن يدنّسه العدو.

وتكفلت مجموعة من مرافقيهم الفرسان بمواصلة القتال وإلهاء العدو حتى يتمكن الباقي من الفرار. وهكذا سينقذون عائلاتهم ثم يحاولون العبور إلى التراب التونسي.

الجنرالان دولكروا وسيريز يطاردان آل المقراني:

ما إن ابتـعـد آل المقراني عن بطش العدو وما إن أصبحت عائلاتهم في منأى عن الأذى حتى علت أصوات بعضهم ترحب بفكرة رجوع المقاتلين المتعافين والإغارة على الجيش الفرنسي، لكن الأمر لم يرق الأغلبية منهم وعارضوه وعلى رأسهم بومزراق، فكان من الضروري إيجاد وسيلة للمرور إلى المناطق التونسية.

كان الفرنسيون وراءهم يقتفون خطاهم، يساعدهم في ذلك باشاغا أولاد نايل بلقاسم بن لحرش، والقايد صخري بن بوضياف، ومع هذا فقد نجح آل المقراني في بلوغ سيدي خالد في الخامس عشر من شهر نوفمبر ثم رحلوا إلى ورقلة أين وصلوها في العشرين من ذات الشهر، وقد لقوا كل الترحاب من قبل بوشوشة، وبن ناصر بن شهرة، واتفق الجميع على اللجوء إلى تونس وهو ما كان يتمناه بومزراق.

بذل عدة ضباط من أمثال الجنرال دولكروا والجنرال سيريز والعقيد تريملي وغيرهم وأعوانهم وأصدقاؤهم، كل ما كان في وسعهم من أجل القبض على الفارين، ولكن كل جهودهم ذهبت سُدى.

في السابع عشر من شهر ديسمبر بدأ آل المقراني رفقة بن ناصر بن شهرة رحلتهم الطويلة مرورا بحاسي بورروبة، وعندما بلغوا حاسي تمزقيدة وجدوا أنفسهم في مواجهة وحدة فرنسية كانت تطارد بوشوشة، فضاعت منهم الجمال والخرفان القليلة التي بقيت بحوزتهم، كما فقدوا فوق ذلك أسيرين اثنين هما عبد العزيز بن محمد قاضي الساحل القبلي ومحمد بن حمودة قاضي مجّانة.

آل المقراني يخترقون الحدود التونسية

وهكذا واصل الجمع مسيرتهم نحو الحدود حتى عين طيبة، أين لمحوا دورية لحراسة الحدود ولكنهم بفضل خبرة بن ناصر بن شهرة تمكنوا من الدخول إلى التراب التونسي وذلك في اليوم السابع عشر من شهر يناير من العام 1872 برفقة خمسمائة شخص لم ينقصهم إلا اثنان.

بومزراق ضائع وخائر القوى يقع في أيدي الفرنسيين:

«علم العقيد ڤوم (Gaume) مساء الثالث عشر من شهر يناير أنه لم تعد تفصله عن تمزڤيدة سوى ثماني كيلومترات، أين سيجد الماء ليتزود منها.

وفي اليوم الرابع عشر وصل إلى عين المكان فتزود وواصل طريقه من جديد. وبعد مسيرة ساعتين أبصر رجال العقيد ڤوم دخانا متصاعدا عن بعد، إلا أن المخيم كان لايزال بعيدا.

عندما سمع جنود حراسة زمالة المقراني الطلقات النارية البعيدة، قرر تغيير الاتجاه ومحو آثار التخييم.

(. . .) عاد ثلاثة جنود استطلاع من التشكيلة الفرنسية إلى مخيمهم في حالة يرثى لها، إذ جرح اثنان منهم وعاد ثالثهم يجر حصانا أوهنته رصاصة، وذكروا فيما رووه أنهم التقوا فارسين من زمالة المقراني، اشتبكوا معهما في قتال، ولأنهما جرحا اثنين منهم فإنهم لم يتمكنوا من اللحاق بالفارسين اللذين لم يكونا في حقيقة الأمر سوى بومزراق وأحد رفقائه.

(. . .) في السابع عشر من نفس الشهر، انطلق الرائد روز (Rose) ثانية على رأس مائة وخمسين من القومان للبحث عن الفارّين ولكنهم عادوا مرة أخرى بخفي حنين».

مع صباح اليوم العشرين من شهر يناير من العام 1872 وبينما كان يحوم حول المخيم وجد مساعد من فرقة القناصة رجلين ملقيين قرب بركة من الماء ولم يعد يبدو عليهما أي أثر للحياة (. . .) فأخذ الرجلين وكانا ما يزالان على قيد الحياة ثم حملهما إلى المخيم أين (. . .) استعادا وعيهما، لقد تكبدا عناء ستة أيام من المسير بدون طعام ولا شراب، حتى خيلهما فقدت كل قواها وتوقفت عن المسير (. . .) فسقطوا من دون حراك، بعد أن أنهكهم التعب والجوع والعطش.

أماط بومزراق اللثام عن هويته، فقادوه إلى الجنرال دولكروا فطلب منه بومزراق الأمان، لكن اللواء أجابه بقسوة «ليس لدي مانع (. . .) في منحك الأمان، وهذا ما معناه أنني أتنازل عن حقي في رميك بالرصاص على الفور، لكنك ستمثل أمام العدالة وهي التي ستعاقبك على جرائمك، هذا كل ما بوسعي أن أفعله لفائدتك» .[1]

وهكذا طويت الصفحة التي كتب مقدمتها الباشاغا المقراني في السادس عشر من شهر مارس من عام 1871 وانتهت آخر أحداثها في العشرين من شهر يناير من عام 1872 بإلقاء القبض على أخيه بومزراق.

---

(1) قايد مولود، م. س. ذ. ص 170 – 171.

الفصل الخامس
عواقـــب الانتفـــاضـة

في كتابه عن مجريات هذه الانتفاضة، يقوّم رين عدد المعارك بـ 340 معركة دون ذكر للاشتباكات الخفيفة، كما يقدر عدد المقاتلين الجزائريين بـ 200000 كانوا يواجهون جيشا فرنسيا اضطر الى تجنيد 800000 فرد من العسكريين بجميع الأسلحة والميليشيات التي كونها المستوطنون وحلفاؤهم من الجزائريين.[1]

وقد كانت العواقب وخيمة على كل الشعب الجزائري خاصة أفراد العائلتين، ولكنها قد مست أيضا كل من شارك في هذه الانتفاضة من قريب أو من بعيد. فبالنسبة للجميع ومنذ انطلاق الانتفاضة، صودرت الاراضي والماشية ومنحت للمعمرين الذين كانت موجات نزوحهم تتلاحق، كما أن الاملاك العقارية قد هدمت وقتل العديد من أفراد عائلتهم بدون محاكمة.

بعض الامثلة عن الممتلكات المصادرة.

المصادرة الجماعية لممتلكات وأراضي 314 قبيلة أو دوار تضم 5948 كبير عائلة أقيلوا من مناصبهم بتهمة المشاركة في الانتفاضة. وقد قدرت مساحة الأراضي المصادرة بـ 1161130 هكتار وقدرت قيمة هذه الأراضي بـ 91948450 فرنك.

(1). رين (لويس)، تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر، الجزائر مطبعة جوردان 1891 ص 634– 646 و658– 659 عن الدكتور يحي بوعزيز م.س.ذ. ص .252.

مصادرة الأملاك الشخصية لـ 3601 كبير عائلة. مساحة الأراضي المصادرة قدرت بـ 54461 هكتار.

وهكذا عومل أولئك الذين اتهموا بالمشاركة أو مساعدة قادة الانتفاضة.

مصادرة أملاك المقراني وأفراد عائلته.

تمت مصادرة أملاك المقراني وعائلته على مرحلتين.

- الأولى بدأت بعد عشرة أيام من انطلاق الانتفاضة أي يوم 25 مارس 1871. اتخذ يومها قرار من السلطات العليا في الجزائر واعتمد في كافة الأرجاء قصد وضع كل أملاك الحاج محمد المقراني تحت الرقابة القضائية، أملاك كل القبائل وكذلك العرب الذين التحقوا بالمقراني سواءا كانت أملاكا شخصية أو تابعة.

وقد بدأ تطبيق هذا القرار يوم 5 أفريل على ملكية المقراني المعروفة باسم «جنان بوطالب» والموجودة في بن عكنون، بلدية الابيار بمنطقة الجزائر. وتقدر مساحته بـ 16 هكتار، 45 آر و65 مترا مربعا.

وتتكون من برجين وحديقة استجمام، وقطعة أرض لزراعة الخضروات وأخرى للأشجار المثمرة علاوة على مقهى عربي وإسطبل وبئر وعين . فكانت هذه الملكية الأولى التي صودرت.

يوم 8 ماي 1872 صودرت ملكية ثانية تابعة للباشاغا تقع في دوار على طريق سور الغزلان – سطيف في منطقة تابعة لبني عامر تقدر مساحتها بـ 33 هكتار و37 آر، وقد تتالت المصادرات الأخرى لممتلكات المقراني وكذا أعضاء عائلته حتى النصف الثاني من 1873.

وبعد هذه المرحلة، بدأت السلطات في إحصاء ممتلكات كل فرع من فروع عائلة المقراني، وقد استمر هذا الإحصاء سنتين ابتداءا من 26 ماي 1872. وقد ذُكر في هذا القرار الذي يحمل رقم 220 أن القرار يشمل كل

الأفراد لكل من الفروع الأربعة لعائلة المقراني[1]. وبعد أن اكتمل الإحصاء واعتقل أعضاء هذه العائلة وحوكموا، جاء قرار آخر مؤرخ في 19 جويلية 1873 يوسع دائرة جماعة المقراني إلى ستة فروع بإضافة أولاد بلقندوز وأولاد عبد السلام إلى الفروع الأربعة السابقة وهكذا تمكنت السلطات البلدية من تنفيذ مصادرات الأراضي التي قدرت مساحتها الإجمالية بـ 22829 هكتار، و89 آر، و55 مترا مربعا.

وتشمل هذه الأراضي 569 حقلا للحبوب مع أشجار التين والزيتون، 39 بستانا مسقيا للخضر والفواكه، و79 مسكنا كان العديد منها محطما جزئيا، و3 مخازن للحبوب، و3 إسطبلات، ومقهى، وحمام، ومسجد. وقد استمر الإحصاء والجرد سنتين وأربعة أشهر. بعد هذا كونت لجنة لاستعمال هذه الأملاك لصالح المعمرين، كما سددت اللجنة 800000 فرنك لعائلة ليفي وهو مايمثل مبلغ ما أقرضته للباشاغا إبان سنوات المجاعة[2].

مصادرة أملاك عائلة حداد.

أما فيما يخص أملاك الشيخ الحداد وإبنيه فقد تم جردهما أيضا، وقد أصدرت مديرية الأملاك كشفا عن الأملاك العقارية والأراضي الزراعية التابعة للشيخ الحداد ولإبنه سي امحمد وابنه الثاني سي عزيز.

وقد أعلن في قرار إداري يحمل رقم 208 صادر عن الحكومة العامة للجزائر بتاريخ 16 سبتمبر 1871 عن مصادرة كل الأملاك التابعة للشيخ

(1) يذكر الدكتور بوعزيز يحي في كتابه وثيقة من أرشيف وزارة الحربية الفرنسي يحمل عنوان: الحكومة العامة للجزائر: تقرير عام عن تصفية ونتائج المصادرة الجماعية والشخصية التي أجريت عقب انتفاضة 1871، الجزائر، 1878 ص 5–16 أ. و.ح. ملف رقم H 283.

(2) استند يحي بوعزيز فيما يخص هذه المعلومات على تقرير الحكومة العامة للجزائر رقم 364 و426 لسنة 1872، م س. ذ. ص 257.

الحداد وكل من ابنيه امحمد وسي عزيز. ويسرد الدكتور بوعزيز تفاصيل هذه الأملاك على طول 8 صفحات من كتابه.[1]

الأبطال أمام محكمة الجنايات.

كل المقاومين الذين قبض عليهم توبعوا أمام عدة جهات قضائية أهمها المحكمة التابعة للجزائر والتي كلفت - فيما كلفت به - بالتحري في الملف الذي يضم أكبر عدد من المتهمين، وعددهم الإجمالي 213 متهماً. على رأس قائمتهم بومزراق والشيخ الحداد، سي امحمد وسي عزيز. ومن ضمن هؤلاء المتهمين الـ 213 حكم على 64 غيابيا من بينهم 19 فردا من عائلة المقراني.

إصدار الحكم

تم إيفاد ملف التحقيق من الجزائر إلى محكمة الجنايات بقسنطينة التي كان عليها إصدار الحكم في حق الـ 213 متهماً. وقد بدأت الجلسات يوم 21 سبتمبر 1873 لتستمر أكثر من ستة أشهر وتنتهي إلى ما كان الجميع يتوقعه. فقد حكم على الشيخ المتدين الذي خاض في الحياة 83 سنة، الشيخ الحداد، بخمس سنوات سجناً.

ويروي أنه قال للمحكمة «إنكم تحكمون عليّ بخمس سنوات، لكن الله سيحكم بخمسة أيام»؛ وبالفعل فقد نطق بالحكم يوم 19 أفريل 1873. وماهي إلا بضعة أيام حتى أخرج الشيخ الوقور من سجنه «بالكدية» وهو في سكرات الموت. وقد توفي يوم 29 أفريل 1873 أي ساعتين بعد خروجه من السجن.

(1) يحيا بوعزيز، وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989.

وحكم على ابنه الأكبر سي امحمد بعشر سنوات سجنًا أما سي عزيز الذي يعتبر من الشخصيات الأكثر أهمية فقد حكم عليه بالنفي من البلاد.

وقد كان الحكم الأكثر قساوة ضد بومزراق الذي حكم عليه بالإعدام كما صدر نفس الحكم غيابيا على 15 عضوا من عائلة المقراني. وقد حوكم بومزراق وأعضاء عائلته قبل الشيخ الحداد إذ أن الحكم الذي أحدث أكبر ضجة قد صدر يوم 27 مارس 1873.[1]

وقد أدهش هذا الحكم العديد من رجال القضاء في ذلك الوقت، وقد ذهب البعض منهم إلى التصريح بأن قرار الحكم ضد بومزراق قد اتخذ قبل مثول هذا الاخير أمام محكمة الجنايات.

وقد كان لهذا الحكم على القائد الثاني للانتفاضة بالغ التأثير والأسى في نفوس الـ500 من أفراد عائلة المقراني اللاجئين في تونس. فقد كانت تعني أن حلم الرجوع إلى الديار قد انتهى. وقد لجأت السلطات الفرنسية إلى الضغط على باي تونس حتى يبعدهم عن الحدود ويفرقهم على التراب التونسي. وقد بدل حكم الإعدام ضد بومزراق من قبل رئيس الجمهورية يوم 19 أوت وعوض بقراربالنفي إلى كاليدونيا الجديدة مع كل من امحمد وأخيه عزيز والقايد علي أوقاسي وآخرين.

وعن موضوع المحكوم عليهم يقول الطاهر أوصديق: «أما القايد علي أوقاسي وقريبه محمد أمقران، فقد سجنا (...) ثم بعث بهم إلى كاليدونيا الجديدة. بينما تمكن سي محند وعلي أوسحنون من الفرار (...) ثم رصد وألقي عليه القبض في منطقة سوف، فحوكم وبعث به إلى كاليدونيا الجديدة مثل علي آمزيان أوكزوز وسي محند أوبراهم، وأولاد

(1) انظر قائمة المحكوم عليهم حسب ثقل الأحكام الصادرة أ. و. ج. ملف رقم 24–8722، يحي بوعزيز ص 268 من أطروحته دور عائلة المقراني والحداد م. س. ذ.

محي الدين من تاورقة وكثيرين آخرين. وبطبيعة الحال فإن كل ممتلكات المحكوم عليهم قد صودرت وكان على السكان أن يدفعوا ضريبة حرب قدرت بـ 10238500 فرنكا بالنسبة لبلاد القبائل و1228622 فرنكا خاصة بسور الغزلان.[1]

ويرجع مولود قايد في الصفحة 176 من كتابه لهذه الفقرة التي كتبها ش. ر. أجيرون عن هذا الموضوع إذ قال: «إن القمع الذي قوبلت به الانتفاضة لم يكن له مجال للمقارنة بحجم الانتفاضة (. . .) فقد بدا فعلا انتقاما وحشيا أكثر منه تطبيقا لعقاب يأتي مناسبا للأعمال المقترفة (. . .) لقد اراد المعمرون ان تسكن بلاد القبائل بتفقير ها والاستفادة من الكنوز التي جمعتها القبائل في مناطقهم الجبلية (. . .) وكانوا يهدفون إلى دعم مساحاتهم بـ 500000 هكتار أخرى من الأراضي الجيدة الصالحة للاستيطان، وهي تلك الأراضي التي جلبت أنظارهم بكل من مجانة، وسطيف، وبرج اغدير، وبويرة، إلخ. . . »[2].

وفي الحقيقة إذا كانت أنجلترا الاستعمارية قد بـذلت ما في وسعها لتحكم الأقاليم المحتلة فإن فرنسا من جهتها بذلت قصارى جهدها لتحطيم كل الهياكل والبنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية للأهالي الأصليين.

---

(1) أوصديق (طاهر). الحركة الثورية في 1871 م. س. ذ. ص 126 ـ 127.

(2) قايد (مولود)، مصدر سبق ذكره، ص 176.

الفصل السادس
معلومات جديدة حول المحاكمة

النّفي إلى فرنسا

لقد قال لنا الفقيد الطاهر أوصديق المحكوم عليهم تمّ إرسالهم إلى كاليدونيا الجديدة ولكن للأسف لم يقدّم لنا تاريخ مغادرتهم ولا ظروفها. وهذا ما سنحاول اكتشافه.

لم نعثر على أيّ أثر للأشخاص المنفيين إلى كاليدونيا الجديدة ولا على قائمة أسمائهم وعددهم وخاصة أولئك الذين حوكموا بعد ثورة 1871.

وفي أحد الكتب التي تناولت النفي إلى كاليدونيا الجديدة يمكن أن نقرأ: «نعلم أنّ 20 سفينة حربية نقلت حوالي 4300 منفي في رحلات دامت من 88 إلى 190 يوم.

وصل إلى كاليدونيا الجديدة 4257 منفيٌّ من بينهم 26 عَربيًا بدوكروس و74 عربيًا بجزيرة الصنوبر، إذا أخذنا بعين الاعتبار الأشخاص الذين ماتوا خلال الرِّحلة (على الأقل 22) وكذا بعض الفارّين».[1]

ويعطينا هذا الرقم 4257 منفي تدرّج وصولهم إلى جزيرة المحيط الهادي من 3 ماي 1872 إلى 10 جويلية 1878؛ ومن بينهم المئات من الجزائريين.

لقد بدأت ثورة المقراني في 7 مارس 1871 وانتهت في 20 جانفي 1872 وأُصدرت الأحكام في شهر ماي 1873، سيتبعون رفقاء آخرين سبقوهم.

ما هو مصير هؤلاء المحكوم عليهم؟ سيغادرون الوطن.

(1) دليل التصدير: نفي إلى كاليدونيا الجديدة، نوميا 1977، ص 41.

بدأ النّفي إلى خارج الجزائر في وقت مبكّر وفي أغلب الأحيان كان المتمرّدون الجزائريون يوضعون في مختلف السجون الفرنسية: تولون، بال إيل، أفينيون وكالفي.

هذا مثال جديد اكتشفته في كتاب آخر: «سُلّم بعض الجزائريين كرهائن وسُجنوا، ثُمّ نُفي أهمّهم. سُجن حوالي 500 متّهم في كورسيكا بكورت».

كان بوعكاز الذي نُقل إلى فرنسا، يعيش ببايون تحت حراسة مشدّدة منذ أوت 1864.

واتّبعت القيادة الفرنسية نصائح الخليفة سيدي العريبي: «إذا كنتم تريدون حماية غليزان وقراكم من اعتداء الفليتاس وغيرهم، فكونوا صارمين... وانفوا إلى السنغال أو إلى ڤويانا قبائل الشرفة الست الذين دفعوا الآخرين إلى الثورة، صادروا أراضيهم وأعطوها لمعمّريكم».[1]

لقد رأينا أن ثورة 1871، بدأت في الحقيقة منذ بداية السنة وتبعها القمع فورا. وأوقفت الشخصيات الهامّة مباشرة ومسّ الإيقاف كثيرا من الشخصيات ووُضعوا في الحصون المعزّزة في فرنسا بسبب الانتفاضة التي قادها المقراني، وهناك التحقوا برفقائهم التعساء أنصار ثورة بلدية باريس.

وصل متمرّدو الجزائر إلى طولون في جويلية 1871 وكتب أحد سجناء البلدية: «هذا المسؤول «لاتراي» ووراءه حوالي 12 عربيا يرافقهم بعض الحراس. هؤلاء القادمون الجدد يبدون مذعورين، يُطلب منهم التجرّد من ثيابهم والدّخول في الزنزانة... علمت أن القادمين كانوا مثلي مهزومين وكانوا يُعاملون بنفس الطريقة.

---

(1) راي ڤولدزيڤر (آني) المملكة العربية، سناد، الجزائر 1977، ص 308.

كانت مجالس الحرب الجزائرية تتنافس بشدّة مع مجالس الحرب الفرنسية لكي لا يبقى سوى شرف الجيش...»[1]

وكتب كاتب آخر: «سيُنقل متمرّدو الجزائر الذين وصلوا إلى تولون تحت اسم «منفيين» إلى قلعة جزيرة «أوليرون» وسيتآخون من جديد مع مناصري ثورة بلدية باريس.

كتب «هنري مسانجر» الذي كان يدرّس الفرنسية لأحدهم: «لدينا هنا 40 عربيا بألبستهم الوطنية، أؤكّد أنّه يوجد رجال أقوياء البنية، لا نبدو أمامهم ذوي قامة طويلة، فأنا الذي لديّ قامة طويلة لا يتعدّى طولي كتف عدد كبير منهم. وقد وجدت متعة في دراسة ملابسهم منذ وصولهم، من بينهم أشخاص نبلاء يرتدون ثيابا فخمة، ويبدو أن العرب يُكنّون لهم احتراماً كبيراً، ولا يريد أيّ منهم أن يصدّق أنّهم سيُنقلون إلى كاليدونيا الجديدة ويدّعون أنهم سيموتون قبل الوصول».[2]

ويوجد مع هؤلاء الجزائريين «هنري روشفورد» الذي سيُنقل معهم إلى جزيرة «ري»، وكتب بخصوص رفقائه التعساء: «أقمت في «أوليرون» روابط مع مسؤولين عرب من أجل أن أطلب لهم العفو لكن لم أُلَبَّ. هؤلاء الناس الذين يهمّني أمرهم لدرجة أن الموقوفين الآخرين يشتكون من اهتمامي بالجزائريين أكثر من اهتمامي بأبناء وطني».[3]

---

(1) ألومان (جون)؛ مذكّرة منفي من البلدية، نشر جمعية الدراسة لكاليدونيا الجديدة، 1977، ص 190.

(1) رسالة لوالدته في 17 جوان 1872، ص 44، من كتاب لعلاوي.

(2) روشفورد هنري "قلعة أوليرون"، مقتطف من مغامرات حياته، الجزء الثالث، ص 44.

كيف كانت المحاكمة

هذه الصورة الوحيدة التي تصور وتمثل المحاكمة المعروفة بمحاكمة القادة الكبار وذلك بالمحكمة العليا للجنايات بقسنطينة خلال ربيع سنة 1873. كُنا نعتقد أن المحاكمة تدوم 45 يوما ولكنها استغرقت 56 يوما.

نظرا للعدد الكبير الذي احتضنته قاعة المحكمة والذي قُدّر بنحو 600 شخص من متهمين وشهود، وبالتالي عدم قدرة لجنة متكونة من 12 شخصاً على إدارة ومحاكمة عدد هام من المدانين بتهم كبيرة وثقيلة.. فقد اضطر المسؤولون عن المحاكمة إلى تقسيم الأعمال والبث في القضايا المطروحة إلى ثلاث دورات حُدّدت كمايلي:

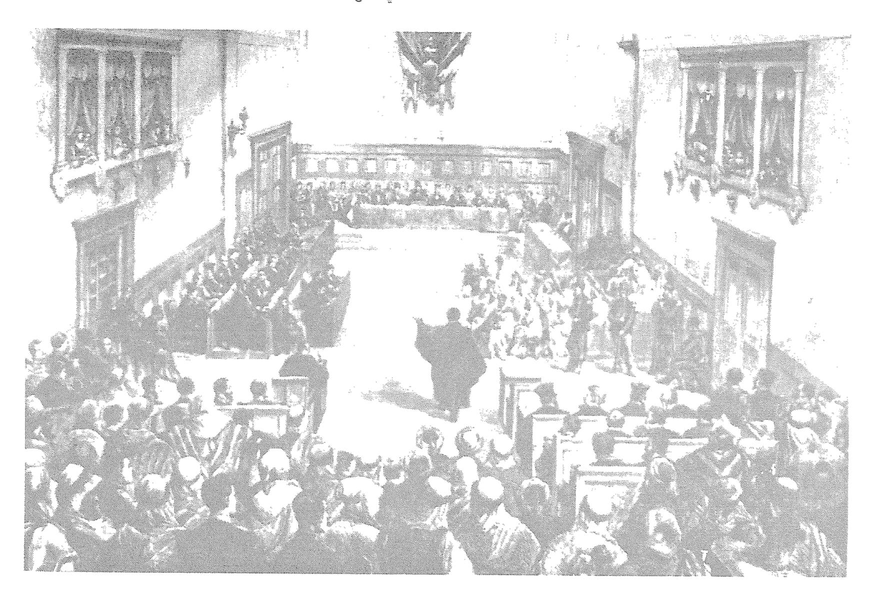
- الدورة العادية: يوم 10 مارس.
- الدورة الاستثنائية الأولى: يوم 31 مارس.
- الدورة الاستثنائية الثانية: يوم 28 أفريل.

القادة الكبار

حسب الإحصائيات المدونة في عقد الإدانة، فإن الوضعية الاجتماعية للمتهمين الـ 152 الذين امتثلوا أمام محكمة الجنايات تكون كالتالي:

- قادة وقادة قدامى (باشاغا، قايد، قايد سابق، شيوخ، شيوخ قدامى، أمناء العلماء... إلخ): 73 .
- عادل وباش عادل: 4 .
- مزارعون: 32 .
- عمال مداومون: 2 .
- بدون مهنة: 28 .
- عون شرطة: 1 .
- تاجر: 1 .
- قهواجي: 1 .
- خليفة – القايد: 1 .
- طالب: 3 .
- صباغ: 1 .
- ذوو ملكية: 2 .
- وكيل زاوية: 1 .

صورة تمثل قاعة الجلسات في ربيع سنة 1873.



تقسيم المجموعات العشر المتهمة

المجموعة الأولى: برج بوعريريج.

المجموعة الثانية: بومزراق المقراني (شكّل لوحده مجموعة).

المجموعة الثالثة: الحضنة.

المجموعة الرابعة: الريغاس.

المجموعة الخامسة: إقليم بجاية.

المجموعة السادسة: جيجل، القل، الميلية، ميلة.

المجموعة السابعة: أولاد عزيز (مقاطعة أومال).

المجموعة الثامنة: تيزي وزو.

المجموعة التاسعة: ذراع الميزان.

المجموعة العاشرة: إقليم بجاية (المنطقة الثانية)[1].

ذاكرة قائد ثورة

مقتطف من خاتمة الخطاب الذي ألقاه عبد العزيز خلال محاكمته: «إن السجن والفضيحة والموت والنهب والسلب وإضرام الحرائق وكل الضربات الأخرى الموجعة.. لا تثني الناس ولا تؤدي بهم إلى الخضوع والإذعان.. بل تزداد حدّتها وتجعل قلوبهم مليئة بالكراهية والعداوة للحكومة... ليس منّا من يفرح لموت أخيه أو أبيه أو ابنه، ناهيك عن أولئك الذين أُبعدوا عن وطنهم وتركوا قلوب ذويهم تدمي حسرة وتبكي لوعة الفراق، حتى أن الكثير منهم ينتهي بهم الأمر للتسليم بموتهم لطول مدة الفراق.. ولا يجدون خياراً في الاهتمام والتفكير في الحضور عن الغياب.

---

(1) العلاوي مهدي، ص: 36.



«السيدان: حامد باي وإبراهيم بن يلس، آخر قادة العرب الذين تمّ حبسهما بالريف القسنطيني»
الجريدة المصوّرة (Journal illustre).

كم هو عدد أولئك الذين وجدوا أنفسهم مسجونين وأسرى بين أيدي الحكومة سنة 1871 بسبب ثورات قاموا بها خلال سنوات مضت لم تسمع بها حتى العشائر والآباء والإخوة. ومن يدري لعلّ العدد الكبير من القبائل الفارة سنة 1871 لم تكن تضمّ أفراداً من عائلات الأشخاص المعتقلين في السجون وقد ثاروا ضد الحكومة لمجرد تفكيرهم في مصير آخرين ليسوا من ذويهم.. ولأن قلوبهم تكاد تتقطع لوعة على فراق إخوانهم المسجونين الذين يُقادون إلى الموت.

ورغم بعد مسافة السجن، فإن العشائر التي ينتمي إليها هؤلاء المسجونين بفرنسا ما فتئت تتصدر طليعة الثوار ضد الحكومة على أمل تحرير وإنقاذ إخوانهم، وذويهم وأبنائهم من قيد السجون»[1].



(الصورة) عزيز الحداد وهو يتقلّد وسام الشرف، لقد حكم عليه بالإعدام أولاً ثم استفاد من تخفيف الحكم وتمّ نفيه بعدها إلى كاليدونيا الجديدة.

بداية الترحيل إلى كاليدونيا الجديدة يوم 5 جوان 1874

قائمة مؤشرة تتضمن بالتحديد أغراض تخص العرب وذلك عشية إقلاع السفينة باتجاه كاليدونيا الجديدة. ونذكر من بين ما احتوته هذه الأغراض: برانيس من القماش ذو اللون الأبيض والأزرق، أحكية من الصوف الناعم، عمائم ذات الأقمشة القطنية، بردات وشاشيات وكذلك طواقم أحذية بطراز عربي.

أسماء الموقعين	برانيس			سترة ذات لون أزرق	سروال ذو لون أزرق	حايك صوفي ناعم	عمامة وطنية	حزام ناعم ذو لون أحمر	سروال (كلسون)	قمصان	قندورات	شاشيات	مناديل جيب	أزواج أحذية عربية	التوقيعات
	قماش أبيض	عصا بيضاء	قماش أبيض												
- أحمد بن عمار	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- أحمد بن بارح	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- علي بن سعد	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- أحمد بن سعيد	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- علي أمزيان أو زروق	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- علي أمزيان نايت أو عزوق	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- عمار بلعباس	1	1	–	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- بلقاسم بن حسن	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	3	1	
- العربي بن لعريبي	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- الحسين بن علي	1	1	–	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
لونيس بن الحاج	1	1	–	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد أو علال	1	1	1												
- الحاج محمد بن موسى	1	1	–	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- حسن بن لشيب	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- لخضر بن دودو	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد بن بلقاسم	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- امحمد بن مسعود	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد الأحمد بن حسين	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد أحمد بن طالب	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد بن علي	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد القاسم اوشوش	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد الحاج محمد بن دحمان	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
	1	1	1	1	1	1	1	1	1	3	1	1	2	1	
- محمد المدعو أحمد الحاج بن دحمان	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد بن حمو	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد بن سعد	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد بن سعيد	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- سي امحمد السعيد المدعو البقار	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	
- محمد بورحلة	1	1	1	1	1	1	1	1	1	2	1	1	2	1	

مخزن خاص بالمنفيين إلى كيلين (Quelirn). قائمة بالأغراض التي تزوّد بها العرب أثناء نزولهم من سفينة لالوار (La Loire) يوم 5 جوان 1874.

التقرير الطبي المتعلق بحملة كالفادوس (1874 – 1875)

لي الشرف العظيم أن أبعث إلى سيادتكم التعليمات الموجهة لقائد الكالفادوس (...)

إن العدد الإجمالي للمحكوم عليهم والذين يُقالون على متن سفينة كالفادوس لا يتعدى 320 شخصاً بما فيهم العرب الذين كانوا في حصن كيليرن (Quelern). ومنه، فإنه يمكنكم إخلاء قسم من هذه السفينة حتى يتسنى لكم إيجاد مكان لـ 320 معتقل نزلاء هذه السفينة... وكما تعلمون فإنه من المفروض أن تكون السفينة على أهبة الاستعداد للإقلاع يوم 1 سبتمبر وعلى متنها العدد الإجمالي للعرب المنفيين الذين كانوا في حصن كيليرن (Quelern) وعددهم 70 شخصا.

يجدر بكم القيام بزيارة لهم في أقرب وقت ممكن حتى تتمكن السفينة من الإقلاع في الوقت المحدّد لها.

المنفيين:

هم جماعة من العرب الجزائريين نُقلوا إلينا عبر ميناء كيليرن (Quelern) (بخليج برست). وكان عددهم 62 شخصاً، حيث قامت لجنة طبية بفحصهم ومعاينتهم ولم يُقبل منهم سوى أولئك الذين كانت تتوفر فيهم الشروط الصحية الملائمة.

على أية حال معظمهم كان في مقتبل العمر. ذووا هامات طويلة وقوية يشعرون بعزة النفس التي يتميز بها الشرقيين.. لا نقرأ في ملامح وجوههم عبارات الذل أو الإحباط النفسي والبدني مثلما يبدو عادة على ملامح المجرمين المتوحشين.

بالنسبة لهم جرائمهم لم تكن سوى جرائم سياسية ومن أجلها أصبحوا موضع اهتمام[1].

---

(1) العلاوي مهدي، صفحة 61.

حركة السفن المقلة للجزائريين المنفيين إلى كاليدونيا الجديدة

المسافة التي اجتازها المنفيون والتي دامت خمسة أشهر

الطريق الذي اجتازته سفينة لالوار (La Loire).

الطريق العادي.

معظم القوافل التي كانت تُقلّ المنفيين إلى كاليدونيا الجديدة كانت تتوقف بميناء سان كاترين (Saint Catherine) بالبرازيل بسبب مرض الحمى الصفراء، لكن سفينة لالوار تجنّبت عبور هذا الميناء وتوجهت مباشرة إلى جزيرة بوربون (Bourbon) قصد التزوّد بالمؤونة.

أسماء السفن	الإقلاع	الوصول	عدد المنفيين
– لالوار (9 قوافل)	– 5 جوان 1874 (من برست Brest)	– 16 أكتوبر 1874	– 39 متهم 5 توفوا
– كالفادوس (11 قافلة)	– 2 سبتمبر 1874 (من برست)	–18 جانفي 1875	– 62 متهم 3 توفوا
– لونافارين (17 قافلة)	–13 جوان 1876 (من تولون)	–6 جانفي 1877	–2 منهما 1 توفي
– لونافارين	–1 أكتوبر 1877	–24 جانفي 1878	– 7 (ويتعلق الأمر بالفارين من الأوراس سنة 1876)

أحد المسجونين في فرنسا يطلب العفو من الحاكم العام الفرنسي

آخر رسالة بعث بها محمد بن بلقاسم إلى المارشال ماكماهون يُطالبه فيها بالعفو عنه، وبعدها توفي بحصن كيليرن (Quelern) سنة 1874 وتمّ دفنه إلى جانب الضحايا من جماعة ثوار بلدية باريس بجزيرة ليل أو مور (L'ile aux morts) (جزيرة الموتى). أما جواب المارشال ماكماهون فلم يصل إلا بعد 22 سنة من وفاة محمد بن بلقاسم[1].

نسخة من الرسالة الأصلية

رئيس الحكومة الجمهورية السيد المريشال دماكماهون

حضرة المعظم الأكرم سعادة السيد المريشال دماكماهون رئيس الحكومة الجمهورية

[illegible]

محمد ابا القاسم

Mohammed ben Bel Kassem

(1) العلاوي مهدي، صفحة 52.

الوصول إلى كاليدونيا الجديدة

وصول الدّفعة الأولى من المنفيين الجزائريين إلى كاليدونيا الجديدة

من أعالي التلّ، كان سكان القرية يصفون وصول متمردي الجزائر: «كانت تنتظرنا مساء السبت 17 أكتوبر 1874 مفاجأة غريبة، ففجأة ظهر مراقبون في المنعطف يتبعهم حوالي 40 شخصا يرتدون ملابس بيضاء، في البداية ظننا أنهم زوجات زملائنا، ولكن وحدة لباسهم أظهرت أنهم إمّا مجموعة راهبات أو مجموعة من التائبين فكنّا نحاول جاهدين معرفة حقيقتهم.

وعند وصولهم إلى السجن، تعرّفنا عليهم وانبعث صراخ واحد «العرب، إنّهم العرب»، وبالفعل كانوا هم نفس الأشخاص الذين قابلناهم في قلعة «أوليرون»، وكانوا موجّهين إلى «جزيرة الصنوبر» وأنزلوا هنا لقضاء شهر رمضان».

جونيس كاتون (مذكرة منفي)

المنفية لويس ميشال تصل مع هانري روشفورد على متن الفرجيني في ديسمبر 1873، تدلي بشهادتها.

«في صباح أحد الأيّام، خلال الفترة الأولى للنفي، شهدنا وصول بعض العرب في برانيسهم البيضاء، وقد نُفيوا لأنهم ثاروا ضدّ القمع، هؤلاء الشرقيون الذين سُجنوا بعيدا عن خيمهم وقطعانهم، كانوا بسطاء وطيّبين وعادلين.» ولم يفهموا سبب معاملتهم على ذلك النحو.»

في 18 جانفي 1875، أحضر الكالفادوس 59 عربيا، هؤلاء التعساء الذين حرمتهم معتقداتهم الدينية المسبقة من كلّ ما قُدّم لهم على متن السفينة: خنزير مملّح، لحم البقر، خمر، وصلوا في حالة مزرية فلم يترك

داء الحفر فيهم شيئا، وكانوا يترنّحون في سيرهم وبعضهم لا يستطيع قطع 3 أقدام دون أن يجلس. وكان يقود هؤلاء الرّجال نصف الموتى، مراقبان مسلحان، ويجبرونهم على تفريغ مطارحهم التي كان يسهل نقلها على سيارات الإدارة.

وكانت تتبعهم عربات تحمل المطارح وعلى إحداها مطرحان، فوق أحدهما هيكل يرسم طيّات على غطاء رمادي، وفوق الآخر، مريض توفي بعد يومين، وهذا الأخير كان يغطّي عينيه بيديه حتى لا تحرقه الشمس.

ولا تعليق على هذه الأعمال اللاّإنسانية.

رسالة من كاليدونيا الجديدة، باريس[1].

(1) العلاوي مهدي، صفحة 66.

الجزء الثاني

الفصل الأول

كاليدونيا الجديدة: الوضعية الجغرافية

تقع كاليدونيا الجديدة في جنوب غرب المحيط الهادي، وتنتمي، مثلها مثل غينيا الجديدة، جزر سالمون والفيجي و فانواتو إلى ميلانيزي.

و ينقسم الإقليم إلى ثلاثة قطاعات:

– الأراضي الضّيقة والممتدة على طول 400 كلم، و50 كلم من ناحية العرض من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي. كما تبلغ مساحتها حوالي 16.750 كلم مربّع.

– أرخبيل اللّوايوتي، الذي يقع على بعد 100 كلم من الأرض الكبرى. وتحتلّ جزرها مساحة 1970 كلم مربّعا، وأهمّها ليفو (Lifou)، مار (Mare) وأوفيا (Ouvea).

– جزر شيسترفيلد الخالية من السكان، والتي تقع على بعد 400 كلم من الجهة الشرقية.

تاريخ:

لم يتم إكتشاف كاليدونيا الجديدة، إحدى أكبر جزر المحيط الهادي إلاّ في سنة 1774، بعد قرنين من إكتشاف جزر السالمون سنة 1568.

– وفي سنة 1774 إكتشف البحار الشهير جيمس كوك كاليدونيا الجديدة حيث أقام مدّة عشرة أيام وتعرّف على الساحل الشرقي. كما احتك بالأهالي الذين تعرّفوا لأوّل مرة على الرجل الأبيض بلباسه وأسلحته الفتاكة، وكنوزه العجيبة والحيوانات المرعبة التي كانت ترافقه: الكلاب والخنازير.

وقد أعطى الكابتان كوك لهذه المنطقة إسم منطقة تشبهها بسكوتلاندا وهو إسم كاليدونيا الجديدة.

– في سنة 1843–1835 وصلت البعثات التبشيريّة البروتيستانيّة والكاثوليكيّة التي قامت بأوّل محاولة تنصيريّة للمنطقة.

وقاد هذه الحملات المطران الفرنسي المدعى دوار (Douar) والبالغ من العمر 32 سنة والذي توفّي بعد معاناة طويلة من وباء أنهكه.

وُجهت لقادة البحرية الفرنسية أوامر إحتلال الجزيرة وتمّ ذلك يوم 4 سبتمبر 1853، وفُرِضت السّلطة الفرنسية في الأراضي الكبرى من طرف الرّبان دومونترافيل أثناء زيارته للقبائل الأساسيّة .

– في سنة 1853–1860 أصبحت كاليدونيا الجديدة تابعة للمستوطنات الفرنسية بالمحيط الهادي (تايتي)، وعُيّنت فور دو فرانس (Fort De France) كعاصمة لها.

– في سنة 1864 أُقيمت مستوطنة تنفذ فيها العقوبات، حيث نُقل إليها بدءا من سنة 1872 نقل إليها المحكوم عليهم بعد أحداث 1871 من بلدية باريس، وذلك عن طريق سفن الدولة.

تطور الأحداث التاريخية بالجزائر

– في 1873 : تمّ إكتشاف النيكل بالمنطقة .

– في 1878 : شنّ السكان الأهالي الحرب ضدّ البيض بقيادة أتاي .

– 1896 : وصول العمال المرحليّن من الهند وجزيرة جاوا.

– 1922 : وصول المرحلين من منطقة تونكا (Tonkin) بشمال الفياتنام.

– 1945 : إنشاء منصب نائب بالممنطقة ومنح الحق في الإنتخاب للأهالي.

– 1953 : نشأة الإتحاد الكاليدوني.

– 1956 : إدماج الإتحاد الكاليدوني ضمن أقاليم ما وراء البحار.

– 1957 : قيام الحكم الذاتي (كما أصبح جميع السكان الأصليين يتمتعون بحق الإنتخاب) وذلك في إطار قانوني .

– 1976 : إنشاء حيّز قانوني يسمح بنوع من الإستقلالية (حكم ذاتي) .

– 1979 : إبتداء من هذه السنة تعيش كاليدونيا الجديدة أوضاعا سيئة .

كيف تحوّل الوضع خلال قرنين؟ يقدم لنا برنار برو جدولا يشمل ثلاثة أجناس مختلفة من السكان ويبين فيه التطور الحاصل بين سنتي 1887 و1976[1] .

السنة	البيض	الآسيويين	الأهالي	المجموع
1887	16.558	1.852	41.874	60.237
1901	23.499	3.148	27.760	54.718
1911	19.319	2.454	28.835	50.608
1921	16.794	3.611	27.100	47.505
1926	16.897	7.489	27.490	51.876
1931	17.215	11.448	28.502	57.165
1936	17.400	7.000	28.000	53.200
1946	18.500	13.200	34.000	62.700
1951	20.400	12.000	34.000	66.400
1962	33.355	8.900	41.190	83.445
1976	41.668	12.203	46.200	100.579
1972	50.757	19.815	55.518	133.233

أثناء رحلتنا إلى كاليدونيا الجديدة سنة 1984 تطورت الأرقام بالشكل التالي:

:1984   53.974 :   28.156   :61.870   144.000

يوضح لنا هذا الجدول بشكل خاص التغيّرات المتباينة في عدد الأهالي. لكن من يكونون ؟

(1) برنار برو، تاريخ كاليدونيا الجديدة– نشر شركة الدراسات التاريخية– نوميا 1980 من الصفحة 15 إلى الصفحة 55.

السكان الأوائل لكاليدونيا الجديدة:

يُسمّى السكان الذين استقبلوا الكابتان كوك عام 1774 بالكاناك «أُناس شرفاء، في غاية البشاشة والمرح» حسب ما ذكره البحار الإنكليزي. ما الذي حلّ بتلك الفئة النشطة من السكان بعد الإحتلال الفرنسي؟

أمن الممكن أن نصرح بأنهم كانوا محلّ إبادة تصنيفية؟ ما الذي تسبب في انتقال عددهم من 50.000 سنة 1774 إلى 41.874 في سنة 1887، والأدهى من ذلك أنه مع قدوم الحضارة الفرنسية بمنافعها وتوافد البعثات التبشيرية، انحطّ عددهم إلى 27.100 سنة 1921.

كتبت دوست لينهاردت فيما يخص القضية ما يلي: «إلى كم حُدّد عدد السكان الميلانيزيين؟ إنه لمن الصعب الإجابة على هذا السؤال، إذ أنّ أوّل إحصاء رسمي أجري في هذا البلد، كان في سنة 1887 ويُشير إلى الرقم 42.519، ومن الواضح أنه منذ قدوم السكان البيض...مرت الجزيرة بأزمة ديموغرافية خطيرة...كان خطرها في تزايد مستمر... بسبب الخسائر التي عرفتها أثناء الحركة المسلّحة وخاصة بعد القمع الذي تبعها.» ...كما أضافت: «سيثور العميد البحري، قائد الفرقة البحرية للمحيط الهادي، ضدّ الجرائم البشعة التي ارتكبها الأُروبيون في إطار هذا القمع. وفي الواقع استمر عدد السّكان الأصليّين في الإنخفاض حتى سنة 1921 لكي يصل إلى 27.100 أهلي[1].

وقد لاحظ المبشّرون الأوائل الذين جاؤوا أن أولئك زالمتوحشين‌س كانوا أكثر كدّا في عملهم من غيرهم من سكّان الجزر الإستوائية. يمتلكون موهبة حقيقية في مجال الريّ، يُتقنون نقل المياه إلى التّلال والجبال لسقي زراعاتهم الناجحة غالبا[2].

---

(1) دوست لينهاردت (روزلين): الأرض الأم، أرض المنفى 1976. باريس ص 59—70.

(2) دوست لينهاردت (روزلين): استعمار ومتناقضات. باريس 1978. ص24.

وقد أنكر كل من المعمرين وممثلي الإدارة الإستعمارية، بالإضافة إلى المنفيين المستوطنين، وجود الأهالي الذين هُجّروا إلى الأراضي القاحلة، وكان ذلك من بين الأسباب التي دفعت لقيام الثورة المسلحة عام 1878.

وكتبت روزلين لينهاردت عن والدها الذي قدم في بداية القرن لتنصير هذه الشعوب قائلة: «حين نزل موريس لينهاردت في الأرض الكبرى سنة 1902م استُقبل بهذه الكلمات، ألقاها عليه رئيس بلدية نوميا: زما الذي جئت تفعله هنا؟س ففي بضع سنين لن يبقى من هؤلاء الكاناك سوى الذكرى»[1].

لكن القسيس أجاب قائلا: «وُصف لي شعب يهرول للوقوع في أحضان المسيح، لكنني لا أرى سوى شعب فخور، يُفضل، لكونه مهزوما، أن تنقرض سلالته على أن يرى البيض يستغلونها.»

من كل ما سبق نستخلص أن كاليدونيا الجديدة بشعبها المتعدد الأجناس، تضم عددا من الجزائريين ثوار الحركة المسلحة التي قادها المقراني ونسبة من المهزومين في حرب الجزائر.

وأثناء كل تلك الحقب، كانت فرنسا تعمر كاليدونيا الجديدة، كاليدونيا الأوربية، بالفئات البيض التي تشمل مساجين القانون العام، والمنفيين سياسيا كمنفيي بلدية باريس، ومتمردي ثورة المقراني المسلحة بالجزائر، بالإضافة إلى المعمرين الفرنسيين الذين جاءوا لجمع الثروة.

ونجد بالجزيرة فئة من اليابانيين والصينيين والفيتناميين مع مجموعة أخرى قدمت من جزر واليس الواقعة بشمال شرق الفيجي، ومن تايتي، يحملون كلهم الجنسية الفرنسية.

---

(1) دوست لينهاردت (روزلين): الأرض الأم، أرض المنفى 1976. باريس ص 15.

حياة الأهالي تحت السلطة الاستعمارية:

الواقع أن الهمجيين هم أولئك الذين قدموا من الخارج لتغيير طريقة عيش الشعوب الأصلية. وبالفعل، فمن أجل زحضارة أفضلس للجزيرة، «حولت فرنسا المنطقة إلى معتقل يُنفى إليه المجرمون والمهزومون في حرب الجزائر والمنفيون السياسيون.»

ويُروى أنه: «بينما كان الحاكم أورلي يلقي كلمة، إذا بالزعيم آتاي يدخل عليه حاملا كيسين، أولهما مليء ترابا والثاني حجارة، فأفرغ الكيس الأول قائلا: «هذا ما كنا نملك»، ثم الكيس الثاني قائلا: «وهذا ما تركت لنا»[1].

كيف يرى الكاناك وضعيتهم الجديدة؟

«إنّه لمن الخطير إعلان الحرب ضدّ البيض، إنّهم رجال أقوياء ومخيفون، مسلّحون بعصيّ مميتة.» وأيضا: «قريبا ستنقرض سلالتنا، فأولئك الأشرار يسلبوننا وطننا ويأخذون أراضينا ونساءنا، فمن الأفضل لنا أن نقاوم قبل فوات الأوان وإذا كانت الموت آخر ما تبقى لنا، فلنمت محاربين.»

لكن لماذا قال زعيم الأهالي: «يأخذون نساءنا»؟ يعيش أغلبية المعمرين المحتلين للمناطق الغابية، مع نساء الأهالي، وحتى الجنود المنعزلين عن وسط المدينة لا يحرمون -قطعا- أنفسهم.»

كل ذلك أدّى بالأهالي إلى شنّ حرب حقيقية ضدّ العدو زالشيء الذي تكرّر في مناطق أخرى من الجزيرة خلال السنوات التي تلت 1859 62- 64- 65- 67 - 68[2].

---

(1) دوست لينهاردت (روزلين): استعمار ومتناقضات. باريس 1978. ص 79.

(2) دوست لينهاردت (روزلين): التعمير السكان، مرجع سابق ذكره، ص 17.

ثــورة 1878

تعتبر الثورة العامل الأساسي الذي يفسر العدد الذي وصل إليه السكان الأهالي . سينتظر أولئك سنة 1868 لتنظيم أنفسهم حتى شهر جوان من عام 1878 لإعلان الحرب تحت قيادة آتاي لـ «طرد المحتلّين» كما فعل المقراني بالجزائر. وفي أسابيع قليلة توسّعت الحرب إلى مدى جعل الفرنسيين يحسون بالخطر كما قال حاكم مدينة أورلي (Orly) [1] .

وقد اهتمت الصحافة في كاليدونيا الجديدة كثيرا بالموضوع، وكتبت كثيرا عن هذه الحرب، لكنها غفلت عن حقيقة وهي أن البعض من أولئك الأهالي يجيدون القراءة والكتابة. وقد وقّع أحدهم على إحدى الصفحات، حيث كُتب فيها مايلي: «يجب القضاء على ما وُجد من الرجال لأنهم يقاتلوننا وسيقاتلوننا، على النساء لأنهن يلدن أطفالا سيحاربوننا مستقبلا، وسيحاربون الشبان لأنهم سيسيرون في درب آبائهم حين بلغوهم سن الرشد.» «وتساءل الشاب عما إذا كان مهددا بنفس الخطر، خطر فقدان الحق في الحياة»[2] .

هذه الثورة التي اندلعت في جوان 1878، انتهت بتاريخ أفريل 1879. وانتقل إلى تلك الأراضي، مبعوثون من فرنسا، حوالي 4465 جندي بالإضافة إلى عدد من المعمرين والمنفيين والمحكومين عليهم مع بعض من المحررين .

وكانت نتيجة الحرب أن قُتل 200 فرنسي و1200 ميلانيزي دون حساب عدد المقتولين رميا بالرصاص وبسبب جروحهم، وأغلبيتهم زعماء[3] .

---

(1) دوست لينهاردت (روزلين): التعمير السكان، مرجع سابق ذكره، ص 17.

(2) دوست لينهاردت (روزلين): استعمار ومتناقضات، ص 154.

(3) دوست لينهاردت (روزلين): الأرض الأم، أرض المنفى 1976. باريس ص 168.

ومن بين الأسماء التي تظهر في قائمة الضحايا الفرنسيين في ثورة 1878، نجد ثلاثة منها جزائرية: «بوجنة والطيب من وهران ومحمد بن حديد العربي.»

وتعد الأسباب التي أدت إلى هذه الثورة، حسب أحد الضباط الفرنسيين هي:

1 – نفي الأهالي من قراهم وأراضيهم .

2 – الإستغلال التعسفي للأهالي في الأشغال العمومية، كإصلاح الطرقات، الخطوط التلغرافية، وغيرها وذلك دون تقاضي أجورهم بانتظام.

3 – الإستخدام اللا قانوني للأهالي لدى المعمرين .

4 – ازدياد عدد السكان البيض، مما زرع بين الأهالي الخوف من خطر تجريدهم من أراضيهم لنفيهم إلى الأراضي القاحلة[1].

سلوك المنفيين الجزائريين.

كتب أحد الضباط في تقرير له قائلا: «قال لي المسمى ديك..أن المحكوم عليهم التحقوا بالأهاليُ لمقاتلة الفرنسيين... في حوض واميني.» شيء فاجأ الضابط الذي شك في صحة الخبر، إذ أنه إذا كان الأمر واقعا فلن يكون ذلك في صالح الجماعات الفرنسية التي ستضعف مقاومتها. وأضاف: «بعد أن تحدثت قليلا مع المسمى بشير بن علي... بدا لي شخصا ذكيا وجريئا، فلم أتردد لحظة في توظيفه، وسُرّ لكونه تحت تصرفيَ، ولاختبار قدراته بدأت بإرساله في أول مهمة استطلاعية ببولوباري.»

«وصل دون صعوبة لمركز الدرك الفرنسي الذي أرسلته إليه، حيث وجد القتلى، وزار المخيم الذي كانت تترامى فيه جثث المحكوم

(1) التقرير رقم 14 لـ 16 جويلية 1878 لمقدم الدرك (شانك). دوست لينهاردت (روزلين)، نفس المرجع. ص 229–230.

عليهم، كما مرّ بالقرب من مقر الحراسة الذي التهمته النيران، وحين رآه الأهالي حاولوا اللحاق به، ولكنه فرّ بسهولة لكونه فارسا ماهرا.»

«آتاني بشير بن علي بالمعلومات المطلوبة التي طمأنتني، حيث اتضح أن خبر تحالف المحكوم عليهم مع الأهالي كان كاذبا»[1].

إضافة إلى تلك الشهادة بخصوص تصرف المنفيين الجزائريين أثناء الثورة المسلحة، كتب مولود قايد ما يلي: «في سنة 1879 ثارت الشعوب بكاليدونيا الجديدة أين نُفي أحمد باي، علي أُوقاسي. وقدم السجناء الجزائريون مساعدة قيمة للحاكم مما جعلهم يستفيدون من بعض إجراءات العفو دون أي تسريح بالرجوع للجزائر[2].

ولمعرفة أوسع حول الخلافات التي تواجدت بين المنفيين العرب والأهالي فقد يستلزم منا الأمر العودة إلى الماضي البعيد. وقد عثر الدكتور يحي بوعزيز على وثيقة توضح أهمية الدور الذي لعبه كل من بومزراق، وأحمد باي بن الشيخ المسعود، القايد علي أوقاسي لمساعدة الفرنسيين في درء الحركة المسلحة لسنة 1878 التي سبق ذكرها. كما تبين الدور الراجح الذي لعبه بومزراق في استرجاع المناطق التابعة للأهالي من بينها مدينة كانالا والعاصمة المحمية نوميا[3].

أول جزائري من ثوار 1871 توفي في كاليدونيا الجديدة

كان السيد: علي بن ڤالوزة، مولود بالتقريب سنة 1821 بذراع الميزان، المهنة: خليفة ڤايد، محكوم عليه يوم 20 ماي 1873 من طرف المحكمة العليا للجنايات بقسنطينة.

---

(1) دوست لينهاردت (روزلين): الأرض الأم، أرض المنفى.
(2) قايد (مولود) المقراني. نشر دار الأندلس، الجزائر 1993، ص: 147.
(3) م. س. ذ. يحيا بوعزيز. ص. 271.

وصل إلى حصن كيليرن (Quelern) يوم 4 أوت 1874 انطلاقا من وهران ومرورا بمدينة مارسيليا (Marseille)، مقيّد ضمن السجل الخاص بالسجن تحت رقم: 2606.

نزل بسفينة الكلفادوس (Calvados) يوم 1 سبتمبر 1874 توفي بجزيرة الصنوبر (L'ile des pins) يوم 17 نوفمبر 1875، دفن بمقبرة توار بلدية باريس ويحمل قبره الرقم 103.

لنرجع إلى المنفيين الجزائريين

من مجموع مئة متمرد جزائري وصلوا في نهاية 1874 وبداية 1875، التحق 70 منهم «بجزيرة الصنوبر»، وظل هذا العدد مستقرا إلى أن أضيف له 20 فارًا من ثورة الأوراس (1876) وصلوا على متن النافارين.

للأسف، لم يكن هؤلاء المنفيون الجزائريون أوّل المنفيين، ففي كتاب حول تاريخ كاليدونيا الجديدة، نُشر بنوميا في 1997، وهو مؤلف جماعي نسّقه «فريديريك انجلوفيال»، نقل في صفحة 17 تحت عنوان «عرب»: «يجمع هذا المصطلح حقيقتين مختلفتين، حوالي 1800 محكوم عليه في القانون العام و120 جزائري منفي بسبب الثورة، وفيما يخص المنقولين، كان إبراهيم بن محمد، أوّل عربي يصل في 1864، ثم وصل في 1868، 133 عربيا. ويجب انتظار 1889 حتى يُنقل من جديد العرب المحكوم عليهم بالنفي إلى كاليدونيا الجديدة. والتحق 1560 شمال إفريقي حتى نهاية المواكب في 1897»[1].

للأسف، لم تكن هذه نهاية نقل المنفيين، حيث أنّه خلال زيارتي، اكتشفت عند سؤالي للأهالي، أنّ والد زالطيّب العيفةس وصل في 1916، وكل جزائري أو أكثر، تسبّب في مشكل أو رفض أداء الخدمة العسكرية، أُعتبر متمرّدا وأُرسل إلى كاليدونيا الجديدة.

---

(1) أنجلوفيال (فريدريك)، تاريخ كاليدونيا الجديدة، نشر مجموعة البحث في تاريخ المحيط المعاصر. توزيع إيل دولوميار، ص 18 أوت 1997، 225 صفحة (مؤلف متفرّد).

دور بومزراف وثورة الكاناك.

حول دور بومزراف في هذه الثورة، يكتب زفريدريك إجليفالس: «خلال ثورة 1878، شارك 52 منفيا وحوالي 19 منقولا عربيا في عملية القمع، من بينهم مجموعة مستطلعين يتكوّنون من 40 منفيّا ومنقولين ومحرّرين، بقيادة بومزراف المقراني الذي كان آنذاك ممثّل كل الجالية الجزائرية، وقد استثني المنفيون العرب من العفو العام الصادر في 1880[1].

والشاهد الثاني يكتب حول نفس الموضوع هو الحاكم في كاليدونيا الجديدة الذي كتب إلى زميله في الجزائر بعد ما تمّ العفو عن بومزراف.

«لقد قدّم المقراني أدلة أكيدة حول ارتباطه ببلدنا. كان يوجد بنوميا في 1878 خلال انفجار ثورة الكاناك لقضاء إجازة لبضعة أيّام قادما إليها من «جزيرة الصنوبر» أين كان مقيماً إقامة جبرية منذ 1875 ومنذ الإعلان عن الاضطرابات الأولى، عرض خدماته عفويا على الحاكم «أوباي» الذي قبلها. وكان المقراني يعمل رفقة مجموعة من العرب المحرّرين والمنفيين أو المحكوم عليهم والتي أُسندت له قيادتها، كمستطلع لجنودنا، وقد قدّم خدمات جليلة للسلطات العسكرية في عدّة مناسبات. ونظرا للتقدير الذي كان يحظى به فقد تخلى عن تجارته المزدهرة في زجزيرة الصنوبرس والتي انهارت خلال غيابه أُبيدت تماما»[2].

كما ذكر شاهدان آخران مشاركة بومزراف المقراني وأكتفي بذكر اثنين فقط.

---

(1) أنجلوفيال (فريدريك)، تاريخ كاليدونيا الجديدة، نشر مجموعة البحث في تاريخ المحيط المعاصر. الناشر (جزيرة) «ليل دولوميار»، نوميا، ص 18 أوت 1997.

(2) رسالة رقم 608 بتاريخ 18 ماي 1904 من حاكم كاليدونيا الجديدة إلى الحاكم العام للجزائر والمتعلقة برحيل المقراني إلى الجزائر، من كتاب المهدي لعلاوي، ص 93.

حياة المنفيين الجزائريين

هذه شهادة بخصوص المنفيين الجزائريين: «كان معسكر العرب المنفيين والمقاتلين القدماء في ثورة سوق أهراس والانتفاضة الكبيرة في القبائل الشرقية في 1871، يضمّ عددهم حوالي 50، فخورين وهادئين يعيشون من المنتوج الضئيل لزراعتهم، لا يشتكون أبدا، وكانوا في كل مساء منذ 24 سنة من النفي الفضيع، يسجدون بخشوع عند غروب الشمس، قبلتهم المدينة المقدسة، لم ييأسوا أبدا من رحمة الله الواسعة. ومن بينهم قائدهم السابق «بومزراڤ» الذي التمس منهم الانضمام إلى صفوف رفقائه في 1878 قصد مساعدتهم للسيطرة على محصول الكاناك. كان العرب يُقاتلون بشجاعة ومنهم من قُتل ومنهم من جُرح، ورغم هذا الدّليل للسماواة والتسامح، لم يصدر العفو عنهم بعد»[1].

---

(1) لعلاوي (مهدي)، ص 113.

الفصل الثاني

الخبـــر السعـيـد

جاء من سي عزيز الذي كتب من نوميا بعد سنوات عديدة من وصوله إليها. ماذا قال؟ يُعلم أحد أقربائه بإمكانية تحرير جميع المنفيين السياسيين، وقدّم رقما يفوق 5000 منفي، وكتب: «بعضهم وصل قبلنا والبعض الآخر معنا وآخرون بعدنا، وتمّ نفيهم جميعا لنفس الدّوافع، ففي حين أنّهم ثاروا ضدّ السلطة في فرنسا، نحن ثرنا ضدّ السلطة في الجزائر وبالتالي نفس الدّافع خلال نفس السنة»[1].

يقدّم عزيز عدد 104 بالنسبة للجزائريين، ورغم الأسى الذي كان يعتريه فقد عبّر عن فرحته لأنّ المنفيين علموا أن العفو سيصدر عليهم وأنّهم سيعودون جميعا إلى الوطن، ويضيف سي عزيز قائلا أن سفينة وصلت وأن موكبًا انطلق وعلى متنه 200 محرّر، وتُبع بموكب ثان وعلى متنه نفس عدد المعفى عنهم، ويُضيف أن المنفيين ينتظرون عودتهم سواء كانوا فرنسيين أم عربا ويكشف عن ثقته ولكن للأسف لا عفو على الجزائريين.

وفي أفريل 1879 وسبتمبر 1880 فرغت الجزيرة من المنفيين الباريسيين وظلّ بها المنفيون الجزائريون. في حين أنّ مادة قانون 1879، ذكرت الثورات في صيغة الجمع.

إن العفو مُنح لجميع المحكوم عليهم بسبب أحداث متعلقة بثورات 1871 وجميع المحكوم عليهم بسبب جرائم وجنح متعلقة بأحداث

(1) بوعزيز (يحيى) توصيات شيخ الحداد ومذكرة ابنه سي عزيز، الجزائر، 1989. ص 162 بالعربية.

سياسية، وإثر احتجاجهم، كانت الإجابة كما يلي: «إنه القانون يقتصر فقط على الثائرين في (بلدية باريس)، وهذا ما لم يكن صحيحًا»[1].

دور ثوار بلدية باريس في مساعدة ثورة المقراني 1880 – 1904

الكفاح من أجل العفو الشامل

طوال فترة حبس الجزائريين، تحوّلت جماعة ثوار بلدية باريس إلى جماعة حليفة للجزائريين، حيث ما فتئت تطالب بالعفو الشامل عنهم، من بين هؤلاء روشفورد (Rocheford) الذي لجأ إلى سويسرا بعد فراره من نوميا (Nouméa) ، كما أنه خصّص بداية من 1876 نصف صفحات جريدته (La Lanterne) (الفانوس) لتحسيس الرأي العام بمصير العرب المنفيين.

أوليڤر بين (Oliver Pain) (فرّ هو أيضا مع روشفورد (Rocheford) من (نوميا) يوقّع مقالا في جريدة (L'intransigeant) بتاريخ الثلاثاء 27 جويلية 1880، أي أيامًا قليلة فقط بعد المصادقة على قانون العفو الشامل يقول فيه: «لقد تلقى السيد روشفورد رئيس تحرير الجريدة من السيدان إبراهيم بن شرين وأحمد بن إبراهيم اللذان حُكم عليهما مثله بالنفي بين أسوار قلعة منيعة وكانا رفيقين له في الأسر داخل هذه القلعة، رسالة يلتمسان فيها منه التدخل لدى الحكومة الفرنسية ليسري عليهما مفعول قانون العفو الشامل، وبما أنّ الحكم عليهما بالنفي كان حكمًا سياسيا فمن البديهي أن تسري أحكام قانون العفو الشامل المصادق عليه من طرف الغرفتين وتشمل العرب المتمردين سنة 1871»[2].

---

(1) لعلاوي (مهدي)، ص 44.

(2) لعلاوي (مهدي)، ص 106.

السنوات الأخيرة في حياة بومزراق المقراني

«إن الأعمال التي يديرها بومزراق في نوميا (Noumea) لم تمنعه أبداً من الكفاح والنضال، فقد شكّل إقصاؤه من الاستفادة من العفو الشامل سنة 1895 موضوعا لكتابة مقالات صحفية مطولة من طرف الصحافة الباريسية للتنديد والاعتراض على هذا الإجراء. فمثلا صحيفة (L'intransigeant) (الثابت) الصادرة يوم 17 ديسمبر توضح وتشرح وضعية المعفى عنهم الذين عادوا إلى الجزائر فتقول: «لا يختلف اثنان أن العرب الذين تُركوا في كاليدونيا الجديدة هم أيضا مدانون إدانة سياسية مثلهم مثل الذين استفادوا من قانون العفو. ألم يُحكم على ثوار بلدية باريس بموجب القوانين العادية مثلما حُكم على المقراني؟ ألم يُتهموا بالسرقة والقتل وإضرام النيران؟ هؤلاء أيضا لم يستفيدوا من العفو سنة 1880. إنّ القانون لا يحتمل أي إجراء استثنائي، ولكن الحكومات ترى أنه إضافة إلى الإجراءات القانونية المعمول بها ثمة دائما تدابير أخرى وعلى هذا الأساس تمّ إبعاد ونفي العرب إلى نوميا (Nouméa) خشية أن يطالبوا باستعادة أملاكهم عند عودتهم إلى الجزائر. لقد تمّ العفو على المقراني وجماعته يوم 2 فيفري ولكن السيد فيليكس فور (Felex Faure) لم يعفوا عنهم.. وهاهي عشرة أشهر مرّت وهم لا يزالون محبوسين بصفة غير شرعية».

لقد كان لبومزراق دوراً جدّ هام إبان ثورة القبائل حيث قادها بعد وفاة أخيه باشاغا المجانة، أليس هذا دليلا لنسحب بعدها القول بأن عودة بومزراق إلى المستعمرة لا يشكل خطرا ولو بعد 30 سنة من غيابه عنها؟؟ إن عودته إليها يحي من جديد الضغائن والأحقاد، ويقوي شوكة أنصاره القدامى الذين صودرت أراضيهم ووُزّعت على المستعمرين...

إنّ بومزراق لا يسعه إلاّ إبداء الشعور بالحسرة والأسى عند عودته وهو في حالة من الفقر والعوز بعدما كان في وقت مضى يتمتع بالقوة والنفوذ. كما أنه سيكتشف أن ممتلكاته كلها أصبحت في يد المستعمر الفرنسي، وأفراد عائلته وأصدقائه أصبحوا مشتتين وضائعين[1].

يبدو أن إجراء العفو والرحمة لصالح بومزراق محفوف بالمخاطر، ولذلك لا يسعني إلاّ أن أبدي رأيا مثل رأي الذين سبقوني مخالفا لإجراء العفو على بومزراق.»

– كل سنة يجدّد المقراني طلبه بالعودة إلى الجزائر، وفي كل مرة يُلاقي طلبه بالرفض من طرف حاكم الجزائر.

وإذا أجرينا مقارنة بسيطة بين الرسائل التي بعث بها حاكم الجزائر والتي تتضمن رفض الدخول إلى الجزائر بين سنة 1960 والسنوات الموالية لها فإننا نجد نفس الحجج تتكرر وتتعلق دائما بالأخطار التي تترتب عن دخول المقراني إلى أرض الوطن[2].

رد فعل سي عزيز

تكرير طلب العفو عن بومزراق وأصحابه

إن الفضل في إجراء العفو يعود للسيد لوهناف (Le Hennaf) الذي قدّم تقريراً هاماً سنة 1892 أثبت فيه «أنه تمّ حبس الثوار المتمردين في كاليدونيا الجديدة بغير حق وبطريقة عشوائية.. وأنه كان من المفروض –في حالة ما إذا طُبّق القانون– أن يستفيدوا من العفو الشامل الذي صدر في 11 جويلية 1880 .

(1) لعلاوي (مهدي)، ص 116.

(2) لعلاوي (مهدي)، ويشير إلى رسالة الحاكم العام بالجزائر إلى وزير العدل رقم (6903) بتاريخ 1900/06/11، ورسالة ثانية إلى وزير المستعمرات رقم (3820) بتاريخ 1901/06/4 صفحة 116.

هذا التقرير الجدير بالاهتمام والذي طبع بحجم صغير من 52 صفحة تطرق بالتحليل إلى الحيثيات الدقيقة للقانون خاصة الجانب الفقهي منه والذي يمكن من خلاله إبراز الوجه الحقيقي للعدالة فيما إذا لم تطغى عليها المطامح والمصالح الاستعمارية. كما تمّ طبعه وتوزيعه في باريس على جميع النواب على إثر رفع دعوى ضد مدير الإدارة العقابية بكاليدونيا الجديدة باسم كل من أحمد بومزراق بن الحاج أحمد المقراني، أحمد باي بن الشيخ مسعود، علي بن محمد أوقاسي وبقية العرب المنفيين[1].

سنة 1903 وخلال مناقشات غرفة النواب المتعلقة بالعفو الشامل عن العمال المضربين، والذين تمّت إدانتهم بفرنسا، استغلّ النائب مارسال صومبا (Marcel Sembat) الفرصة ليذكر النواب بقضية الثوار العرب، حيث توجه بكلمة إلى السيد وزير العدل جاء فيها: «سيدي وزير العدل أرجو من سيادتكم أن لا تنسوا قضية ذكّر بها السيد ليون كليري (Leon Clery) ويعرفها جميع أعضاء هذه الغرفة... أنها قضية العرب المنفيين حاليا رفقة الشيخ المقراني في كاليدونيا الجديدة...»

ويضيف: «من المؤكد أن ثمّة أسبابا وُصفت بالمهمة جدّا حالت دون عودتهم إلى الجزائر، كما أن البعض يزعم أنهم لو عادوا إلى الجزائر فإنهم حتما سيفكرون في استعادة أملاكهم التي استغلها آخرون. وبالتالي يصبح من مصلحة المستغلين عدم عودة هؤلاء إلى بلدهم. أظن أن الحكومة تذكر جيدا التضحيات الجسام التي قدّمها هؤلاء الرجال مؤخرا حيث شاركوا في القضاء على ثورة الكناكيين (Les Canaques) مقابل أن

(1) لعلاوي (مهدي)، ص 115.

يستفيدوا من إجراء العفو.. إنّ عدم استفادتهم من هذا الإجراء يعني عدم الاعتراف لهم بشجاعتهم وشهامتهم، أعتقد أن الوعد قد أعطي لهم فأرجوا أن تنفذ الحكومة هذا الوعد باسم فرنسا كلها»[1].

ردّ فعل سي عزيز

إذا كان بومزراق قد انضم إلى جانب الجيش قصد مساعدته على إبادة ثورة الكاناك آملا بلاشك في الحصول على مكافأة، فإن سي عزيز سيتخذ قرارا معاكسا له تماما، وهكذا يمكن أن نقرأ في كتاب مهدي لعلاوي، صفحة 93: «لقد رأينا أنّ سي عزيز كتب أن جميع المنفيين عربا كانوا أم فرنسيين ينتظرون لحظة عودتهم بشوق.» نظرا لكون عزيز لم يعد يطيق الانتظار، سيفرّ إلى أستراليا في أفريل 1881».

وعن طريق رسالة من حاكم كاليدونيا الجديدة، سيعلم وزير المستعمرات بفرار سي عزيز، وسيثير هذا الهروب اضطرابا كبيرا سواء في فرنسا أم في الجزائر، وبخاصة أنّه أوّل هروب ناجح لمتمرّد جزائري بعد الفرار المذهل لصديقه «روشفورد» ورفقائه في 1874.

وحتى في الجزائر، كتب الحاكم العام: «في نهاية شهر أوت، كانت تتسرّب إشاعة مفادها أن سي عزيز بن شيخ الحداد من صدّوق، القائد الرّئيسي لثورة 1871 بعد المقراني، قد فرّ من كاليدونيا الجديدة وأنه يتواجد إما بتونس أو في مكّة».

يذكر سي عزيز هروبه قائلا: «في شهر أفريل، قرّرت أن أذهب بدون ترخيص، ونظرا لكوني بلا مال ولا قدرة على شرح موقفي، فقد وجدت نفسي بين أُناس نجّاني الله منهم، وعندما غادرت كاليدونيا، سافرت في

(1) لعلاوي (مهدي)، ص 117.

البداية على متن زوارق صغيرة من جزيرة إلى جزيرة، وكان البحر هائجًا، ولم أصدّق بأني نجوت إلاّ بعد وصولي إلى زيلندا الجديدة، ثم سافرت في سفينة بخاريج إلى سيدني.

وخلال إقامته بسيدني، كتب سي عزيز إلى أحد أصدقائهس «إن المسافة بين سيدني ومكة هي بين 20 إلى 25 يوما عن طريق البحر، وأتمنى الوصول في 5 جويلية.»

كان سي عزيز يُقلق السلطات، وتُعتبر قناة السويس التي وصل إليها في الأيّام الأولى من شهر جويلية، ممرًّا إجباريا للوصول إلى فرنسا أو إلى الجزائر.

وهذه المنطقة (مكة، دمشق، القاهرة) كانت ملجأ عشرات من الفارّين من ثورة 1871.

وفي موانئ البحر الأحمر، نشرت الإدارة الفرنسية جواسيسها[1].

تدخل قنصل فرنسا بجدّة لصالح سي عزيز.

حُدّد مكان سي عزيز بعد شهر... وهكذا في 14 فيفري 1895، كتب قنصل فرنسا بجدّة للسيّد «هاناتو» وزير الشؤون الخارجية: «تمّ الحصول أخيراً على العفو لصالح المتمرّدين المنفيين في 1871، و«عزيز» يريد العودة إلى الجزائر ويطالب بأراضيه وأملاكه المُصادرة والمُوزّعة في نهاية الانتفاضة.»

كان قنصل فرنسا بجدّة يُكنّ للسي عزيز التقدير والمحبّة، والرسالة التي وجّهها لوزيره الوصيّ والتي طلب فيها رأيه، هي في الحقيقة مرافعة حقيقية لصالح المتمرّد السابق.

ويواصل القنصل: «يشرّفني أن أُعلم سعادتكم أن الشيخ «عزيز» القادم من السويس، قد نزل أول أمس بجدّة، ووصلتني عن طريق

(1) لعلاوي (مهدي)، ص 100.

البريد الذي حملته السّفينة التي سافر فيها، الجريدة الرّسمية التي صدر فيها قانون العفو المؤرّخ في 1 فيفري.

وأثناء قيام عزيز بزيارتي، سألني إذا كان سيستفيد من القانون الجديد الذي كانت فيه للجزائر خطوة كبيرة. لم أكن أظن أنّه ينبغي عليّ أن أجيبه بالإيجاب قبل أن أتلقى من سعادتكم جوابًا بخصوص ما إذا كانت الحجج التي قدّمها «سي عزيز»، والقرار الذي أدانه وسلّم لي منه نسخة طبق الأصل لا يسمح لي أشكّ في أنه لا يدخل في مقتضيات قانون العفو الجديد.

ثم تلاه التحليل الكامل لقانون العفو.

«حالة الشيخ عزيز تبدو أنّها تدخل في مقتضيات(. . .) من قانون 10 فيفري الأخير الذي يعفو عن المحكوم عليهم بسبب ارتكاب جرائم، اعتداءات أو مؤامرات ضدّ الأمن الداخلي للدّولة. هكذا فإنّ الشيخ عزيز استفاد من القانون الجديد وسيصبح حرًّا في تحديد مقرّ إقامته أين ما يحلو له، حتّى في الجزائر إن أراد ذلك. وهذه النقطة لم يُفوّت الاستعلام عنها».

فيمَ يفكّر الحاكم العام للجزائر؟

«إذا كان ذهابه حقيقيا فسيكون لهذا الحدث خطورته، حيث أنّه رغم المعارضات الرسمية لسي عزيز، فإنّه لا يستطيع الاعتماد على النيات الحسنة تُجاهنا وعلى أي حال فإنّ حضوره إلى الجزائر سيمثّل خطرًا، أو على الأقل ورطة كبيرة، حيث أن رجوعه في هذا الوقت سيكون تحديّا حقيقيا معروضا على الرّأي العام الفرنسي.» للأسف، لم يقبل المسؤولون الجدد للجزائر سي عزيز. ولم يتمكن من العودة إلى الجزائر، فيغادر جدة إلى باريس أين يبقى مع أصدقائه من ثوار بلدية باريس[1].

(1) لعلاوي (مهدي)، ص 105.

كان المنفيون يحنّون إلى الجزائر ولا يفكرون إلاّ في الهروب

سيتمكن بعضهم من ذلك، ويُلقى القبض عليهم من جديد ويقومون بدورة حول العالم مرّتين، وهذا ما كان سيحدث لأحمد أوعراب أو يحي الذي هرب في 1889 وألقي عليه القبض من جديد في الجزائر في 1896 ولن يُعاد إلى المحيط الهادي بسبب العفو.

في حين، حدث هذا لكل من علي أوسعيد الذي أبحر ثانية في 12 أوت 1893 إلى كاليدونيا الجديدة باتّجاه نوميا، وعمر بن العونوڤي الذي سيصبح مجرما، وبعد هروبه من نوميا على متن الفيجيان في 19 ماي 1888، أوقف بتونس في أفريل 1893 ثم هرب من جديد من نوميا.

سيهرب رحمان بن محمد أولجاج رفقة أخ سي عزيز محمد أمزيان بن شيخ الحداد في 5 ديسمبر 1886 على متن الفيجيان مستعملا أوراقا مزوّرة وبعد إيقافه في الجزائر، سيُسجن من جديد «بسانت مارتان دوري» في 1888 ويُرسل إلى كاليدونيا في 1889.

ويوجد في «جزيرة الري» منفي آخر وهو محمّد بن قاسم، الذي هرب من كاليدونيا الجديدة في 1884، وأُعيد إلى الجزائر بعد سنتين، وكان محمد أخ سي عزيز شديد الاحتراس حيث اختبأ بالقبائل ولم يُلق عليه القبض أبداً.

ويجب انتظار 1 فيفري 1895 حتى يُعترف بالعفو وتُرفع الإقامة الجبرية ويطبّقان، (باستثناء المقراني وعلي أمزيان نايت وشيخ حسين محمد أوالحسين).

ويعود الفضل في هذا العفو إلى التقرير الملحوظ الذي أعدّه السيّد «هناف» الذي أثبت في 1892 أنّ: «سجن المتمردين أمر تعسفي، فإذا طُبّق القانون فإن هؤلاء سيستفيدون من عفو 1880/07/11».

طُبع تقرير السيد «هناف» بباريس ووُزّع على جميع النّواب بمناسبة شكوى «ضد السيد مدير إدارة السجون بكاليدونيا الجديدة» باسم كل من أحمد بومزراڤ بن الحاج أحمد المقراني وأحمد باي بن شيخ مسعود وعلي بن محمّد أوقاسي وكذا المنفيون العرب الآخرون.

وفي 22 أوت 1895، أبحر عدد من المنفيين من نوميا، وفي هذا اليوم تُوفيّ عزيز بن الشيخ الحداد بباريس عن عمر يناهز 55 سنة، وهو الذي كان قد قدم من جدّة في شهر جوان، وطالب باسترجاع أراضيه، توفي عند صديقه ورفيقه في النفي، نصير ثورة بلدية باريس «أوجان مورروت» الذي كان يقيم مقابل مقبرة الأب «لاشاس».

وكان قدماء البلدية هم الذين جمعوا اشتراكات قصد إعادة جثّته إلى الجزائر[1].

أحوال الجزائريين في كاليدونيا الجديدة

من بين مئات المنفيين الذين وصلوا عبر البواخر كالفادوس (Calvados) لالوار (La Loire) ولونافارين (Le Navarin) سنة 1874 و1875 و1877 و1878 (يقدر عددهم الإجمالي 120 جزائري)، أكثر من ثلث العدد فُقدوا في كاليدونيا الجديدة (16 منهم توفوا و29 أصبحوا في عداد المفقودين) وحسب تقديرنا فإن الثلث الآخر منهم غادروا التراب باتجاه العاصمة وذلك قبل العفو الشامل الذي كان سنة 1895 حتى يستفيدوا من تخفيف الحكم عليهم (عشرين منفي خلال عشرية كاملة بداية من 1880) أو ببساطة الإعفاء عنهم بدون تحديد شروط الإقامة (7 أشخاص). وفي طريق عودتهم إلى فرنسا عبر كاليدونيا الجديدة يوم 22

(1) لعلاوي (مهدي)، ص 125.

أوت 1895 لم يعثر سوى على 12 منفي، وعلى أية حال فإن عدد الفارين كان 16 شخصا ثم استلام أربعة منهم في الجزائر أو تونس لكي يتم بعد ذلك إعادتهم إلى كاليدونيا الجديدة.

«الجريدة الرسمية لكاليدونيا الجديدة كانت أكثر دقة عندما أشارت أنه من بين 120 محكوم عليه عربي سُجلت 70 عملية فرار»[1].

حياة أول المنفيين

ولأجل تكوين فكرة عن المعيشة التي كان يعيشها المنقلون الأولون بكاليدونيا الجديدة، إخترت بعض المقاطع، أولا من كتاب ألفه أحد المنفيين الفرنسيين، وذلك كي نتوصل إلى القيام بمقارنة مفيدة مع المنقلين من أصل جزائري، ثم من «صراخ محكوم عليه بالأعمال الشاقة» كتبها أحد المواطنين المنقلين إثر ثورة 1871.

يحمل الكتاب الذي ألفه الفرنسي عنوان «مذكرة أحد منفيي بلدية باريس.» من يكون؟

إنه -كما كتب الناشر- عامل طباعة: «قضى 27 سنة بالبلدية يخدمها بجد دون الطمع في منصب أرقى. محكوم عليه بالأشغال الشاقة، سيروي لنا المآسي التي عاشها في كتاب بعنوان: «الأشغال الشاقة بالبلدية...» بصراحة مريرة ودون أدنى تحفظ».

«من بين كل المؤلفات التي صور المنفيون فيها معاناتهم، كان كتابه من أدق ما كُتب، ومن أبشعه، وخاصة من أكثرهم إنسانية، عن القصة الكاليدونية».

---

(1) لعلاوي (مهدي)، ص 120.

مذكرة أحد منفيي البلدية

هكذا يروي لنا السجين مقطعا من إقامته، بعد عدة أسئلة:

يومان بعد ذلك، تفاقم وضعي، حيث زاد تعذيبي الجسدي تشددا، شُدت يداي وراء ظهري... عوملت كالحيوان، إن التعساء الذين عرفوا هذه المعاملة الوحشية هم وحدهم الذين يمكنهم وصف هذه المعاناة الفظيعة.

«مربوط بهذا الشكل، كان على السجين جر قدميه إذا أراد القيام بأية حركة كانت، وإذا أراد الحارس أن يمعن في تعذيبه، فيمكن له أن يبقى أياما عديدة دون أن تحرر يداه، أن يقدر على الشرب أو أن يسمح له بأداء بعض الحاجيات(...) أجل يا أهل فرنسا! ياأيها الملكيون، البونابارتيون، أيها السيزاريون، الوطنيون، الشعبيون من كل الدرجات، اشتراكيون وثوريون. هذا ما جرى ومن الأرجح أنه لازال يجري بسجون الأعمال الشاقة مدنية كانت أم عسكرية، بأكثرالبلدان روحية على ظهر الأرض، بهذه البلاد التي نناديها بالتعجرف الأحمق الذي يميزنا، البلاد المثلى، بلاد التحضر! «الضفدعية، الحفر، البكلة المضاعفة السمامة ذات السبعة أغصان، الحساء داخل الحذاء، طريقة التجويع» (وهي تقنيات للتعذيب). كل ذلك -إضافة إلى الباقي- مما يبعث على الفخر والاعتزاز، أليس كذلك؟

ويكتب متحدثا عن مسؤولي سجون الأعمال الشاقة: إثر نيابة العقيد أليرون «جزار ثكنة لوبو» سلمت حكومة كاليدونيا الجديدة إلى سيد من مدينة بريتزبوور (Pritzbuer) وقد تخلى هذا الأخير عن عقيدة لوثر ليصبح كاثوليكيا وذلك لهدف وحيد(...) المشاركة في الصراع لأجل الحصول على أشرف مقام ديني.

وقد بلغت التعسفات والتسلط الإداري تحت سلطته أقصى حد. ولم يسبق من قبله أن استعملت منصة الإعدام بتلك الوتيرة، وكما أنه يمكن القول بأن الضرب والفلقة كانا ينافسان المقصلة. (...) «وقد أصبح منذ وصوله أكبر تابع للآباء الماريزيين (pères Maristes) الذين كانوا أكبر الملاك وأكبر التجار فكانوا وكأنهم ورثة الحي الدائم.» وحتى الفضائح المالية لم تكن ليستهان بها: «لقد كانت للأوراق النقدية من فئات: خمسة وعشرون وخمسون ومائة فرنك قيمة إجبارية. وقد طبع منها ما قيمته الملايين. وعندما صرف الذهب والفضة وعوض بهذه الأوراق، اختفى هذا البنك. (...) وبعد هذا حلت بالبلاد المجاعة[1].

لقد أعطيت هذا المثال عن منفي فرنسي حتى أبين الظروف التي كان يعيش فيها أولئك الذين كانت فرنسا تبعث بهم إلى هذه الجزيرة البعيدة.

وإذا كان الفرنسيون يعاملون بهذه الطرق فما بالك بالجزائريين الذين كان محكوما عليهم هم كذلك بالأشغال الشاقة وهم الذين لا يتحدثون اللغة الفرنسية، ويدينون بديانة مختلفة، الإسلام؟.

وفيما يخص المنفيين الجزائريين ها هو ذا ما يقوله سليلوهم :

«لقد كان المساء يعزف على نغم جلجلة تلك السلاسل التي بقيت علاماتها في جسد أبي حتى اللحد»، هكذا عبر لنا العربي فرانسوا. واسمه هكذا فرانسوا، لأن القانون الفرنسي أجبر المنفيين على تسمية أبنائهم بأسماء مسيحية وهذا حتى سنة 1936».

---

(1) ألمان (جون)، «مذكرات منفي من الكمونة»، نشر جمعية الدراسات التاريخية لكاليدونيا الجديدة، رقم 15 نوميا، 1977؛ إعادة الطبعة في 1982، 190 صفحة، مقاطع أخذت من ص 94 و137.

وإذا اعتبرنا حسب التشريع الفرنسي أن الشخصية الفردية تتكون من عناصر أربعة وهي، الحالة المدنية، والذمة المالية، والتسمية والسكن فإننا نلاحظ أن كلا من النفي ومصادرة الممتلكات وانتهاك القانون المدني بالاجبار والمنع من حمل أسماء الأسلاف، هي في الحقيقة تشكل حلقات محكمة من مخطط شيطاني يرمي إلى نزع الشخصية. وهذا ما يفسر كيف أن بعد بضعة عقود من أحداث 1871، أصبحت غالبية المنحدرين من المنفيين الجزائريين تحمل أسماء فرنسية.

وهؤلاء الخلف كانوا حقيقة من آباء جزائريين ولكن أمهاتهم لم تكن جزائريات، وفي أغلب الأحيان كن نساءا من مسجونات القانون العام، وكن مشبوهات الأخلاق والسلوك وفوق ذلك فإنهن كن يعلمن أولادهن ديانة مخالفة لديانة الأب. ورغما عن هذا فإنه إذا كانت الغالبية من أبناء المنفيين الجزائريين تسمى فرانسوا وباتريك ولويس... فإنهم في سجلات الحالة المدنية قد احتفظوا -عن اعتزاز بدون شك- بأسماء الميسوم وأحمد والطيب في العائلات. وقد كانت ظروف الاعتقال مريرة بشكل لا يتصور. فقد كان المسجونون رهن نزوات الحراس وتحت تصرفهم الكامل. وقد علمت أن الحراس كانوا يلعبون الورق برؤوس المساجين. «فكان على الخاسر أن يقتل أحد المساجين الذي يعين قبل اللعب».

«وقد كان تنفيذ الإعدام أكثر حيوانية، فكان يحفر لتعيس الحظ حفرة، ثم تقاس على مقاسه، وبعد أن يطرح فيها تطلق عليه رصاصة في الجمجمة»[1].

ولم يكن جون لالمون الوحيد الذي تحدث عن عذابه. فها هنا كيف يعبر أحد بني وطننا عن مقامه في كاليدونيا الجديدة.

---

(1) عيساوي جعفر، العرب في كاليدونيا الجديدة، مقال نشر بجريدة لوموند في 1984/11/15.

شجو المُسترق

والمتحــدث هنــا منفـي جزائـري من القرن الماضي، وهو مؤلف قصيدة حزيـنـة مـن الشعـر الملحـون باللغــة العاميــة نشـرها الدكتور ساري جيلالي في جريدة بالعاصمة[1].

وحسـب الدكتـور سـاري، فإن المنفي كان من اتباع الزاوية الرحمانية. وهذه رسالته.[*]

«يا رحمن نجنا من هذا الحكم الجائر الذي نطق به في حقنا قضاة فرنسا.

«وأين نحن من أولئك الرجال الذين كانوا مجاهدين يقاتلون في الميدان.

«ازداد الظلم والجور... العراء والجوع والعمل الشاق اكبر مما نتحمل.

«يا حمامة القصور، الحكم علي كان جور، هذا الحكم المخيف زاد علي محنا شدادا. يا حمامة القصور، العالم اليوم يعيش ثورة، هذا القرن تاه وأخباره منحوسة. لماذا؟ لماذا يا أقوياء المحبوس عندكم يهان؟ دائما في الأشغال، حتى ينشف دمه في القفار...

«لـم يبـق هنـاك عـدل، والـوزير أظنـه لا يبـالي، إنـه لـم يـر الظـلم الذي اقترف في حقي.

«إنه لم ير الظلم ومع ذلك، فأنا قد شبعت الذل والهوان، لقد وضعوا في رجلي سلاسل الحديد. زمان، كان القادة عماد المقهورين، وكانوا يصدرون العفوكل سنة، ولم يكونوا عديمي الرحمة في الأخطاء التي تقترف.

«الله يعلم أن الكثير من عباده قد حكم عليهم ظلما وبهتانا، القضاة أصدروا الحكم لكن شهداء الزور هم السبب في تعاستي».

---

(1) جريدة المجاهد (يومية تصدر بالجزائر).

(*) تعذر على فريق الترجمة الوصول إلى النص الأصلي الذي ترجم منه إلى الفرنسية وعليه فهذه ترجمة شعرية اجتهادية من الفرنسية إلى العربية.

«أقضي الليل بلا نعاس، وأذرف سيولا من الدموع، حتى يفارقني قلبي الغضبان ثم يرجع إلي.

«لقد حكم علينا بالشقاء ، فنحن أموات ولوأننا أحياء. نلبس ألوانا فظيعة ، وقد خلقت لحانا.

شعر المسجون أصبح كله أبيض ومع ذلك فمازال السجان يهينه: العمل والضربات: مسلسل في المساء يمضي ليله في الحديد. المسجون حزين، سالت دموعه وديان. يعمل عريان، يقاسي البؤس والتعاسة والحرمان. لقد جاؤوا بنا إلى كاليدونيا الجديدة بلا حق ولا شرع. فذاك الذي كان يعرف بالمقدام هنا حط من قدره ولم يعد حتى فلان.

كاليدونيا الجديدة قاسية تشيب رأس المسيح والعربان. السجانون يضربون ويقولون القانون، هاكه. القانون قاسي. وأنا اتوسل إلى أسيادي وأدعوك يا من ترانا، أن تستجيب لدعواي ورغبتي.

«يا للحسرة فقد كنا في افريقيا بلدنا نفعل مثل الآخرين ز كنا نزدان باللباس الجميل الذي يعجب العين. الآن قد تعودنا على مصيرنا. لقد عرفنا ما هومحتشد برون وعرفنا الجوع. فلباس المسجون قماش الأكياس وكل من يراه يولي منه فزعا. وسواء الشاب أوالشايب لا أحد في مأمن. لقد أتى علي الجوع والعري وكل يوم أدعووأطلب، أدعومن عظيم الجاه والسلطان أن يخرجني إلى بر الأمان. لم يعد في قلبي شيئ من الصبر. فحسرة المنفى صعب تحملها. يا رحمان نجنا من هذا الحكم الجائر الذي حكم علينا به قضاة فرنسا. فأين نحن من أولئك الرجال الذين كانوا في الميدان وقادوا القتال. آه لوأن الإمبراطور كان يحكم، لكان عفا على المسجون وما كان ليتركه في معاناته. زادت حيرتي. والعرى والجوع والعمل الشاق فوق ما نتحمل.

«لقد روعني هذا النظام الوحشي: أريد أن أكتب رسالة للسلطات. سوف أكتب يومية، سوف أروي فيها كل ما جرى، والقارئ اللبيب سيرى هذه القصة. المحبوس، قولوا أنه بلغ حد الصبر؛ إنه يبكي من فراق أبنائه؛ ثم تأتي الموت لتأخذه : هكذا حكمت الأقدار.

«المحبوس قد فنى، انتهت كل قواه ولم يعد يفلت من المرض؛ وكل يوم يعمل في أشقى الأعمال. والمسجون شيء عديم الأهمية، إنسان حقير وضع في يد الحراس، ومع ذلك فإن قلبه المهان مازال يعشق لذات الحياة».

«الله يعلم أنه لايوجد هنا فيما قلت لا زيادة ولانقصان: والشيء الذي رأيته أعدته وقلت ما جرى لي في هذا العالم.

«إننا مفرقون ومكبلون في عنابر وزنزانات: هذا يحيا وهذا يموت، هكذا حكمت الأقدار، والله يعلم بأنهم سواء حكم عليهم بحق أوبغيره فقد تركوا أبناءهم ونساءهم يذرفون الدموع.

علي بن – 1895».

وقد اكتفيت بهذين النصين فقط حتى تتكون عند القارئ صورة عما كانت عليه حياة المنفيين السياسيين إلى كاليدونيا الجديدة.

حياة المنفيين بعد إطلاق سراحهم.

كيف عاش هؤلاء الجزائريون بعد انتهاء فترة سجنهم؟ لقد عاد البعض منهم إلى الوطن، وهم قلة؛ أما الآخرون فقد ماتوا تحت وقع الحياة القاسية التي عاشوها، والبعض الآخر ماتوا وهم يحاولون الفرار من هذا الجحيم الذي لا يطاق. «وقد سجلت 70 حالة فرار من مجموع المائة والعشرين سجينا عربيا»[1].

فكم عدد الذين نجحوا في الفرار؟ وكم عدد الذين أمسكوا؟ وكم عدد الذين اختفى أثرهم؟ الله وحده يعلم.

ولنحاول الآن أن نتعرف على وضعية أبناء هؤلاء المنفيين الجزائريين إلى كاليدونيا الجديدة. وبادئ الأمر سنتعرف عليهم عن طريق بحث قام به عن هذا الموضوع م. كوليني، وهي دراسة لم تنشر بعد. فهذه المجموعة البشرية قد أهملت تماما حتى في ميدان البحث والدراسة زالتاريخيةس وسالعلميةس، فالتحريات والبحوث كانت متحيزة وتفريقية وإلا فكيف نفسر أن رفقاءهم في الشقاء من منفيي بلدية باريس، قد نالوا ذلك النصيب الكبير من الإعلام والتشهير. فعشرات العشرات من الكتب تناولتهم وتحدثت عن حياتهم في هذه الجزيرة النائية في المحيط الهادي. فيما تجاهل الجميع مصير بني جلدتنا وعمومتنا. وهكذا ارتأينا الأهمية الكبيرة في استغلال هذه المذكرة العلمية التي تحمل عنوان: العرب في كاليدونيا الجديدة. وهو ما نتناوله في الفصل الثالث.

---

(1) النشرة رقم 36 لجمعية الدراسات التاريخية لكاليدونيا الجديدة، وهي تذكر هذه المعلومة من الجريدة الرسمية لكاليدونيا الجديدة J.O.N.C رقم 1623.

الفصل الثالث

العرب في كاليدونيا الجديدة

لقد بدأتُ مهنتي كمعلم في عمق القبائل الكبرى بقرية صغيرة واقعة في أعالي جبال جرجرة حيث بقيت ثماني سنوات .

ولقد بقيت بالصحراء ثلاث سنوات، أين تعرفت أكثر على العرب بتقاليدهم وطريقة عيشهم وطبائعهم التي لها علاقة وطيدة بالدين الإسلامي، بعد ذلك تم نقلي إلى «بوراي» في كاليدونيا الجديدة . وفي أول لقاء لي مع تلامذتي أكرهت على تقبل فكرة وجود عرب يعيشون بعيدا وكل البعد عن الجزائر.

وبعد وقت قصير، أعلن في الراديو عن قيام المجلس الإقليمي بإجراءات طلب ملتمسا قطعة أرض لبناء مسجد في نوميا (Noumea) . كما أكدت الجرائد عن وجود هذه الجماعة في الإقليم يلعب مسؤولوها دورا لا يستهان به في مجال الرياضة والسياسة والتجارة(. . .) .

وهكذا، وبالرغم من جهلي التام بتاريخ اقتصاد وسوسيلوجية هذا البلد، أوصلني فضولي وبكل تلقائية، إلى تحليل هذا المجتمع وتحديد شخصيته .

لقد أعلمني السيد لوك شوفاليي أنه لا يملك المعلومات الرئيسية التي بإمكانها إعانتي في كتابة مذكرتي . كما أكد لي بأن كل الوثائق الرسمية والمطبوعة المتعلقة بوصول العرب إلى كاليدونيا الجديدة موجودة حاليا في عاصمة فرنسا .

وبما أن المبشرين لعبوا دورا هاما خلال فترة الاحتلال، فإني اتصلت «بقسيس» بوراي الذي أرشدني بدوره إلى القسيس بوسي دولافوا البالغ

من العمر 84 سنة، وبالفعل كان من أوائل الذين تغلغلوا في عائلات مدينة نيساديو.

وهكذا تلقيت قدرا واسعا من المعلومات التاريخية، بحيث وجهت أسئلة وعملت من أجل الحصول على لقاءات مع العشرات من كبار السن والأبناء والحفدة أو زوجات العرب، وذلك للتأكد من صحتها وتمامها. وبغرض تكوين فكرة أقرب إلى الحقيقة، سألت معمرا من الناحية الشرقية.

وقد ختمت وثائقي المعلومات الصادرة من مصلحة الهندسة والتخطيط.

ما الجديد الذي تحمله طيات هذه المذكرة؟ وفيما يخص عدد المنفيين تتحدث وثيقة 1876 عن يوم 31 ديسمبر(...) وعن 72 شخصا من أصحاب الديانة المحمدية من بينهم اثنان يستحقان الذكر، وهما: المقراني أخ زعيم التمرد، وعزيز ابن الشيخ الحداد، وبتطبيق قانون البلدية لـ 23 مارس 1872، حُكم عليهم بالأشغال الشاقة أو السجن، وهكذا توجهوا إلى الجزيرة(...) ولما صدر قانون العفو الشامل لعام 1879(...) في 17 جويلية 1880 بكاليدونيا الجديدة (...) أخلى الحاكم أورلي المدينة من كل «الباريسيين»، هذا العفو لم يكن يخص الجزائريين لذا اعتقدوا أن في الأمر خطأ، فقدموا شكوى. زبينت الرسالة الوزارية المستعجلة لـ 12 أفريل 1881(...) أن قانون العفو الشامل لا يخص سوى الأعمال الثورية التي جرت في إقليم العاصمة باريس.

مع قانون 1 فيفري 1895 أُصدر العفو عنهم؛ الكثير منهم عاد إلى وطنه، ولكن البعض(...) أقاموا بعين المكان(...) وآخرون آتوا بأعداد كبيرة من الجزائر أين لم تكن الوضعية السياسية مستقرة»[1].

بما أن أوائل المنفيين ينتمون إلى الحركة المسلحة التي قادها المقراني فلماذا يستمر الآخرون في الهجرة إلى كاليدونيا الجديدة.

---

(1) مرشد العرض – الهجرة إلى كاليدونيا، نوميا 1977، ص: 31.

المنفيون الجدد

في 31 مارس 1898 أعلن الجنرال بوردو للجنة التقنية للدفاع في حديث له عن العرب المحكوم عليهم في المحاكم الجزائرية وأرسلوا إلى كاليدونيا الجديدة لقضاء فترة العقوبة: «حسب القانون الفرنسي، فهم غير جديرين بالاحترام، غير أن العرب وخاصة سكان منطقة القبائل لم يروا فيهم ذلك: مثل من حُكم عليهم بتهمة القتل لما ارتكبوا هذه الجريمة لظلم واقع على العائلة أو القبيلة.

«بالعكس، يلطخ شرف من لا يثأر من ظلم واقع عليه» يؤكد الكاتب: م.أ من نيساديو أخبرني بأن أباه حكم عليه بالأشغال الشاقة لقتله ضابطا استهوى صغيرته (ابنته الصغيرة)، وآخر حكم عليه وإخوانه الثلاثة الذين انتقموا بقتلهم معمرا فرنسيا داس على كرامة واحد منهم.

عدد المنفيين:

نظمت عملية التهجير وازداد عدد المهجرين إلى درجة أن الشعب الحر بدأ يستاء. كتب «كلوفيس سافوي» (Clovis Savoie) قائلا: «التوسع السريع للسجون ينتشر من يوم لآخر في مستوطنتنا المضحى بها»[1].

سنتذكر جيدا تعبيره عن الغيظ في قوله: «المضحى بها» حيث أنه سيصبح المحفز الرئيسي للسياسة المحلية التي ستعمل جاهدة على تقليص محاولات مختلف الجماعات العرقية للجزيرة للرجوع إلى عادات ومعتقدات الأسلاف وسنعمل حتى على إكراههم على التقرب إلى لغة وثقافة الوطن الأم فرنسا.

(1) سافوان (كلوفيس)، تاريخ كاليدونيا الجديدة، المطبعة الوطنية نوميا، مذكورة من طرف السيد كوليني.

يقول برنار برو (Bernard Brou) في هذا السياق: «من ضمن 66.000 ساكن بلغ عدد العرب 300 شخص سنة 1879. العرب لا يختلفون كثيرا عن من جمعهم بهم الحظ، إلا في أمر واحد هو كونهم أكثر المنظمين لعمليات الهروب.»

نشأة بوراي ومستوطنة نيساديو

لقد ظهر تحقيق في جريدة «المرشد إلى كاليدونيا الجديدة» في ٩ جوان 1867 وصف (واد نيرا) كونه جد خصيب، من أجل ذلك وفي سنة 1869 أنشأت الحكومة الفرنسية مزرعة عقابية في بوراي. أرسل المسجونون إلى بوراي للقيام بتربص يحصلون من خلاله على امتيازات في الأرض بالإضافة إلى منحهم الأدوات والمؤونة. كما أرسل أيضا أفواجا من النساء المحكوم عليهن لتزويجهن بالمهجرين. كتب فيري قائلا: «لقد أخلوا مدينة (سان لازار) والمراكز العقابية.»

«تعيش زوجات المستقبل في شبه معبد تشرف عليه أخوات من أتباع (سانت جوزيف كيليني) اللائي كن يحملن بأحزمتهن وبالقرب من سبحتهن مسدساً.

ومن أجل كل هذا عرفت مدينة بوراي بين أوساط سجناء الأشغال الشاقة في فترة السجون العقابية على أنها تشبه الجنة وأطلقوا عليها إسم «بوراي الفضليات»[1].

مع مرور الوقت، أصبح العرب أكثر حرية من ذي قبل، وتحصل أكثرهم على امتياز يتمثل في أربع أو خمس هكتارات في وادي نيساديو الغني، ومثلما هو الشأن بالنسبة للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، العرب الأحرار مقسمون إلى قسمين:

(1) فيري، سجناء الأشغال الشاقة، معمرون وكاليدونيون، نوميا، حسب م. كوليني.

- يضم القسم الأول المجبرين على الإقامة في المستوطنة بموجب قانون 1854.

- يضم القسم الثاني المحكوم عليهم بأكثر من ثماني سنوات أشغال شاقة، وهم مضطرون للإقامة الدائمة.

حياة المنفيين العرب في نيساديو:

كتب فيري في كتابه (Canaques, bagnards colons) «نيساديو وادي المآسي» لماذا يتنهد الكثير من الأشخاص إذا ما تحدثنا عن هذه الفترة؟ ولماذا اجتمع العرب في نيساديو؟ [1].

«منذ سنة 1885 أصبح «حاسي» أو «الحاج» مؤقتا مالكا لقطعة أرض صغيرة تبعه بعد ذلك البشير، الطيب، أحمد، أعمر، محمد، عباس، رابح، قواسم، بوعزة ،مهدي...

وعلى كل هؤلاء الرجال خدمة أراضيهم ليبرهنوا للإدارة على قدرتهم على ضمان قوت يومهم.

«تحريرهم النهائي يتم بعد مدّة تطول أو تقل عن 3 إلى 8 سنوات، ثم تصبح هذه الهكتارات القليلة ملكيتهم الخاصة مقابل:

- دفع ضريبة سنويا ومدى الحياة و ذلك يتم على قسطين، ومقدما في 1 جانفي و 1 جويلية، ويمكن شراؤه بدفع رأس مال تحدده الإدارة ويتم ذلك مرّة واحدة نقدا.

وفي هذا السياق يعطي الكاتب مثالا عن: «بلقاسم بن محمد الذي وضع في المزارع العقابية بصفة مؤقتة في 25 سبتمبر 1917، بعد ذلك أطلق سراحه في 21 ماي 1925، وفي 21 ماي 1928 أصبح مالكًا للأرض».

---

(1) فيري، مصدر سبق ذكره.

حددت الضريبة السنوية بـ 40 فرنكا و 12 سنتيما، وحددت قيمة رأس المال بألف وثماني مائة وأربعة فرنك فرنسي، يعتبر هذا المبلغ ضخما بالمقارنة مع عصر يباع فيه كيس به 100 كيلوغرام من الذرة بخمس فرنكات، حسب ما أدلى به مزارع عجوز من نيساديو.

بذلك تخلق الإدارة لأفضل رعاياها المشاكل التالية:

- إما العمل في قطعة الأرض دون رجاء تطور سريع بالنظر إلى قلة مساحة الأرض، وصعوبة الحصول على الأدوات والقيمة الكبيرة لرأس مال الشراء والبقاء تحت سيطرة الإدارة.
- أو بيع المزرعة للعودة إلى الوطن الأم.
- وأخيرا العمل على توفير المال اللازم لشراء الأرض وتملكها، وبذلك يصبحوا ملاكا أحرارا.

الأحـــرار

لم يمتلـك الأراضي كـل المحكـوم عليهـم، ومنـهم العرب. فلقد نصّ مرسوم 4 سبتمبر 1881 على أن يوضع مساجين الدرجة الأولى إما في أراضي الامتيازات أو أن تمنح لهم حرية مشروطة. كان هذا المرسوم الذي أصدر في إطار إنساني وللأسف سببا في الكثير من الإحباطات كما ساهم في زتدهور حالة التائبين من المحكوم عليهم».

فحسب فيري فإن الحكومة تجاهلت بالفعل أمرين عند إصدارها المرسوم.

1 - إلتزام الحكومة بعقود لتوفير يد عاملة معتبرة وكافية من المسجونين لإنجاز الأعمال ذات الفائدة العمومية(...) مرغمة بذلك السجون على تقليص التخفيضات في العقوبات إلى نسبة ضئيلة تتراوح بين 3 إلى 5٪ من المساجين.

2 – إن الأراضي التابعة لإدارة السجون التي كان من المفروض أن تتوسع لتأوي المساجين ذوي الحرية المشروطة الذين لم تمتهنهم المناجم، وهذه الأراضي أصبحت على العكس تتقلص لحساب الأراضي التابعة للأملاك المحلية (. . .) ولذلك فإن المساجين التائبين والعاملين زذوي السلوك الحسنس لم يجدوا في حسن السلوك أية فائدة ففقدوا الأمل وأصبح كل منهم يحطم معنويات الآخر.

ومما يزيد من مأساتهم، أنهم عندما يحررون بعد طول المدة لا يجدون عملا، إذ أن قطع الأراضي الممنوحة صغيرة ولا تسمح بتشغيل الأجراء اليوميين، فيما كانت المناجم مكتظة باليد العاملة.

وبإحساسهم بالوحدة، وهم عاطلون عن العمل ومتخلى عنهم، أصبحوا يهيمون في البلاد.

كيف يستغل المنفيون؟

يسرد لنا برنار بروا هذا المثال الحي: «تم الفصل في قضية إيڤنيسون، وانتهت في 18 جويلية 1878 إلى السجون.»

عقد (لابالاد) تنازل من خلاله إيڤنيسون عن مصنعه للسكر ببوراي بالإضافة إلى 500 هكتار مقابل تزويده بـ300 من المحكوم عليهم للعمل في مناجمه لمدة 20 سنة ! إنه حقا عقد استرقاق[1].

الزواج:

بمجرد أن يحرر صاحب الامتياز العربي، يرغب في الزواج، وبما أنه من المستحيل أن يتزوج بامرأة من عرقه فإنه يتوجه إلى معبد أخوات سانت جوزيف لكيليني في بوراي، وحسب ما تمليه العادات

(1) برو (برنارد)، تاريخ كاليدونيا الجديدة، مرجع سبق ذكره، ص 146.

فإنه يختار الزوجة التي سيقترن بها بعد بضع زيارات. وغالبا ما تكون هذه الزوجة ذات أفكار مشكوك فيها، لذا فهي تجد الجو مناسبا لتشبع غرائزها.

يستغل المغامرون ذوي السلطة في نيساديو الموقف ويستعينون بالنساء للحصول على المال، أما النساء اللائي ساعفهن الحظ لتجنب هذا القدر المشؤوم فهن يقضين وقتهن بين العمل في المزارع وبين رعاية الأطفال الذين يعيشون في أكواخ قذرة، حيث أن مأواهم لا يشبه المنازل إلا في الإسم. فالأمر يتعلق ببعض اللوحات المجمعة بطريقة عشوائية تعلوها صفائح معدنية يعيش الناس بداخلها حفاةً، وبثياب بالية. والأطفال العراة يلعبون في التراب الذي يشهد على البؤس الذي عرفه هذا العصر. يضطر أصحاب الامتياز الذين هم من أصل جزائري لتوفير قوت يومهم إلى محاولة جمع المال الذي يناسب قيمة رأس مال الشراء، غير أنهم لا يملكون سوى بعض الهكتارات ومجرفة ومعول. وعلاوة على زراعة الخضر للاستهلاك الخاص من فاصولياء وبازلاء والقهوة والسلاطة والجزر والفول السوداني فإنهم يزرعون الكثير من الذرة التي تعتبر مصدرا رئيسا لمواردهم.» يتوجهون إلى تربية الحيوانات.

«كما هو الشأن في كل المزارع فهم يربون الدجاج والماعز وحتى الخنازير»، والأمر لا يدعو إلى الدهشة فالزوجات اللائي يتكفلن بهذا القدر البسيط من رزق العائلة يجهلن تماما ديانة أزواجهن ولا يستوعبن سبب تخليهن عن تربية الخنازير رغم سهولتها لكونها تحقق مردودا مزدوجا والذي يتمثل في المال والقوت، وبذلك نستنتج أن كلاً من البنية الأسرية وتربية الحيوانات هما في استراتيجية تحطيم ثقافة المجتمع.

الديانة:

الأمر المؤكد هو أن أوائل العرب أصحاب الامتياز لا يتنكرون لدينهم:

- يؤدون فريضة الصلاة خمس مرات في اليوم وعلى الدوام.
- يرفضون شرب الخمرولا يأكلون في أي حال من الأحوال لحم الخنزير.
- يرفضون تعميدهم ويجنبون الأمر كذلك لأولادهم.

وهم يشكلون العامل الذي ضمن الاعتدال ووضع حداً لموجة الإجرام التي اجتاحت مدينة نيساديو، كما ورثوا عادات بعضها لايزال يتداول حتى يومنا هذا، الأمر الذي يسمح للعصر أن يسمي هذه المنطقة «إفريقيا المصغرة.»

ومع مرور السنين، انتشر البؤس في نيساديو وأخذت الحاجة إلى المال تزداد يوما بعد يوم، ومن تجاوزات إلى أخرى وصلنا إلى قاع الهاوية، من أجل كل هذا ترك العرب الناحية وتوجه بعضهم إلى إفريقيا والبعض الآخر إلى نوميا أو إلى مناطق أخرى من الإقليم وأصبحت ممارسة الشعائر الدينية في تدهور مستمر.

الهجرات

الكثير من أوائل المحكوم عليهم يلقون صعوبات كبيرة في التأقلم نظرا لحنينهم إلى الوطن، لذلك فهم يفعلون كل ما في وسعهم من أجل الرحيل (الهجرة) من أرض المنفى. وببقاء معظمهم غرباء تسنى لهم توفير مجمل ثمن التذكرة تقريبا للذهاب إلى إفريقيا (3000 فرنك فرنسي سنة 1925–1930) ومروراً بأصدقائهم لجمع ما ينقصهم من المال فلسا فلسا.

أما في نوميا فقد كانت أولى أسباب الهجرة هو البحث عن العمل، والبعض منهم يسترزق بتوفير النقل على عربات الأجرة.

التعليم

لم يفتتح قسم مختلط لأطفال العرب إلا في سنة 1928 ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال، وذلك راجع إلى:

- جهل الأولياء.
- غياب البواعث (الدوافع) كون التعليم باللغة الفرنسية.
- عدم استقرار عاملي قطاع التعليم (لم تبق أولى المعلمات سوى شهور معدودة، وكذلك الأمر بالنسبة لزملائها وذلك يعود إلى انتشار البعوض ونقص وسائل الاتصال وأيضا إلى العقليات المهيمنة في نيساديو).

أعطى فيري جدولا يبين فيه عدد الأطفال المتمدرسين في القسم لسنوات 1957 إلى سنة 1966، فقد بلغ عدد التلاميذ في السنة الأولى 24 تلميذا منهم 8 ذكور و16 إناث، ثم تقلص العدد في السنة الأخيرة إلى 16 تلميذا، 6 ذكور و10 إناث. وبعد انتخاب رئيس البلدية الذي كان من المنفيين أغلق القسم وكان ذلك سنة 1967 وأصبح نقل التلاميذ ينظم للمدينة التي تملك أكبر قسط من الإمكانيات.

المحاولات التبشيرية

باشر الأب «بوسي» سنة 1932 حملة تبشير بالإنجيل في نيساديو، إذ أنه أراد فعل «شيء ما» لشعب محروم (معنويا). ولقد استطاع التغلغل في أوساط العرب بفضل بعض المستوطنين الأوروبيين الذين يدرس أولادهم بالمدرسة الخاصة. مرتديا ثوب الكاهن، ممثلا الله فهو بذلك سيحظى دائما بالاحترام وحتى بحب العرب الذين يشجعونه على متابعة دعوته خدمة لمصالح أولادهم فهم لا يرغبون في «تربيتهم كتربية قطيع الغنم».

ولتحقيق هذه الإرادة الحاسمة والطيبة وبهدف خلق روابط وثيقة بين السكان، نظم الأب بوسي سوقا خيرية تخصص الأموال المحصلة منها لبناء كنيسة صغيرة (معبد)، إذْ ساهم السيد بيراتوا بالأرض والعرب بكدّهم وتعبهم. وبعدما كسب بوسي ثقتهم أصبح وفي الغالب وسيطا بين الضالين والدّرك». ومع كل هذا بقي العرب أوفياء لدين الإسلام، «فهم يرفضون الزواج في الكنيسة، ويرفضون تعميد أولادهم، ويرفضون الأسماء كسيلفيان، وفرنسوا، أوندري، أو...»، حيث لم يثبت بتاتا تسلط المسيحية على هذا المجتمع، إذ أنه حتى سنة 1936 كان محظورا عليهم تسمية أولادهم: محمد، صالح، أحمد... .

العادات والتقاليد

دون أدنى شك فإن عدم وجود نساء من أصل عربي هو السبب الرئيسي في غياب العادات الأساسية مثل الغناء، الحكايات والأساطير والرقص واللباس والنسيج، وفوق كل هذا وذاك صيانة الدين وبزوال الأولين تزول معهم فريضة الصوم والصلاة وحتى اللغة نفسها.

كانت عملية الختان تتم شعائرها إلى غاية هذه السنوات الأخيرة، أما اليوم فهي تتم في المستوصف فاقدة بذلك الطعم والمعنى، ولا يقام أي احتفال بالمناسبة.

وفيما يخص احتفالات الزواج، ففي السابق كان يكلف فارس بدعوة كل العرب وكل أصدقاء المنطقة. وبهذه المناسبة كنا نذبح الدجاج أو الثيران، كما كان يرافق الفرسان الأزواج إلى البلدية، وحسب العادات يقوم الفرسان باستعراض فروسي.

خلال مأدبة العشاء ينظم المدعوون عملية التبرعات وكان يسير الأمر كالتالي: يقف ضيف ويبسط منديلا فوق المائدة وينادي: «التفوا من

حولي، وضعوا المال!» فيضع كل واحد منهم ما يقدر عليه من فلوس، فيشكرهم مسيّر اللّعبة قائلا: «فاليخلف الله عليك»، وإن كان منهم أعزب يقول له: «فليزوجك الله امرأة».

وينتظر الأغنياء علو المزاد وبذلك ينتهي الأمر إلى مبالغ معتبرة، ينادي مسير اللعبة قائلا: زاضربوا الضربة القاضيةس، فيتبرعون بمبلغ أكبر من سابقه، بعد ذلك يطوي المنديل بكل ما فيه ويعطيه إلى والد العريس.

المقـابـر

وبعـد وقـت قصير من إعطاء امتيازات للعرب وُجد سيدي مولاي غريقا في وادي «نيساديو» ودفن مباشرة في أقرب أرض من مكان الحادث، والتي هي ملك «لميلود» يرقد جثمانه داخل بناء من الإسمنت لا يعلوه سقف وهو يعتبر مكانًا مقدسًا حيث يشترط لدخوله النظافة وخلع الحذاء.

تجرى مراسيم الدفن بالطقوس نفسها، ففي حالة الوفاة يحفر قبر...

«توضع التربة الرطبة في جهة والتربة التحتية توضع من جهة أخرى.»

يُغسّل الفقيد ويحلق له ثم يُلف عاريا في الكفن –حاليا بدل الكفن بالتابوت– يوضع الجثمان على الجهة اليمنى، الوجه ناحية شروق الشمس والأرجل نحو غروب الشمس ويكشف على وجه الميت وتغطى الحفرة الصغيرة بحجـارة مسطحة متلاصقة مع بعضها بفضل التربة اللينة لكي لا يلطخ الجثمان بالتراب.

«يصلى على الميت رجل حكيم يتقن اللغة العربية، ويعتبر السيد ناصر الذي قدم من (عدن) الوحيد حاليا القادر على أداء هذه المهمة.»

«يقام احتفال بعد مرور أربعين يوما وتقوم عائلة الفقيد بذبح ثور ويشترط في الذابح أن يكون عربيا ومختتنا ويقسم اللحم إلى قسمين:

يحضر بالقسم الأول العشاء وتوجه الدعوة للكل. أما القسم الثاني فيفرق على الحاضرين.»

حاليا، حسب القدرات، تذبح كل عائلة ثورا دوريا وتوزع اللحم على كل سكان نيسساديو دون الأخذ بعين الاعتبار العرف أو الديانة.

جمعية العرب وأصدقاء العرب

نشأت سنة 1967 جمعية العرب وأصدقاء العرب وسطرت أهدافها على النحو التالي:

- الحفاظ على العادات.
- رعاية مقابر العرب في نوميا ونيساديو.
- توحيد شمل العرب.

انخرط في هذه الجمعية 167 فردا سنة 1975 متوزعون على النحو الآتي:

- عرب بوراي حوالي 60 فردا.
- عرب نوميا حوالي 50 فردا.
- أصدقاء العرب حوالي 60 فردا.

ومن خلال هذه المعلومات استنتج السيد كوليني مايلي:

«لقد عاش المجتمع العربي في الإقليم مهمشا لأسباب يدركها الكل، ورغم ما يُمكن اعتباره تصرفات للدفاع عن الشخصية فقد سار مسارا طويلا في الإدماج.»

«كرست وسائل الحياة العصرية (راديو، وسائل الاتصال والمدارس)، إلى أمد بعيد للاستغلال من طرف الأوساط الأوربية.»

بعد هذه القراءة قررت البحث أكثر، والقيام بكل ما في مقدوري للكشف عن سلالة المنفيين الجزائريين[1].

(1) كوليني (م)، العرب في كاليدونيا الجديدة، كشف شركة الدراسات التاريخية رقم 36 نوميا 1978، صفحة 36، في حقيقة الأمر أنشأت ج ع أ ع سنة 1966.

الفصل الرابع

في طريق اكتشاف عرب كاليدونيا الجديدة

كيف كان يعيش أولئك الذين بقوا هناك؟ لقد شاهدنا كيف كانوا يعيشون بفضل ما كتبه م. كوليني (M. Collinet). وعن أولئك الذين كانوا اكثر حظا وتمكنوا من الاستقرار في العاصمة نوميا، نسرد هنا مثلا جاء ذكره من قِبَل برنارد برو عندما تحدث عن الإحتفالات بخمسينية استعمار كاليدونيا الجديدة. وعند وصفه لنوميا في 1903، يقول: «كانت الإضاءة الليلية بالغاز، وكان موقدو الفوانيس يقومون بعملهم بانتظام: مقراني، البربري أحد المنفيين القدامى هو الذي يتكفل بذلك، وهو ذو قوام خاص أصبح شبحه المسائي معروفا عند الجميع».

وعن هذه الاحتفالات يقول: لقد مضى ستة ايام من الاحتفالات التي لم تنقطع: كانت هذه أول مرة تشهد فيها كالدونيا الجديدة احتفالات بهذا الحجم(...) ومن أهم مراسيم الاحتفال وأكثرها تألقا نذكر ذلك العدو بالاحصنة على طول 100 كلم، ثم مهرجان الفروسية العربية الذي يشرف عليه القايد المقراني. وما من شك أنه من بين كل هذه المراسيم فإن مهرجان الفروسية و العدو الكبير هما اللذان نالا أكبر قدر من تتبع الجمهور واعجابه»[1].

(1) برو (برنار). تاريخ كاليدونيا الجديدة، نشر جمعية الدراسات التاريخية، نوميا 1973 ص 246–258.

وعند تدارسنا لعمل الدكتور يحي بوعزيز ، نجد أن هناك فردين من عائلة المقراني تم اعتقالهما أثناء إحدى الاشتباكات في رحلة هروب القافلة نحو الجنوب، والفردان الآخران هما بومزراڨ وقريبه اللذان قبض عليهما بالقرب من ورڨلة يوم 20 جانفي 1872 . كما تبين لنا أنه في 1895 صدر عفو عن ثوار انتفاضة 1871 وأن بومزراڨ يكون قد عاد إلى الجزائر. وطوال زيارتي إلى نوميا لم يستطع أحد إعطائي معلومات عن هذا المدعو مقراني ولا حتى ابنته المسماة مسعودة.

ماذا يعرف الجزائريون عن المنحدرين من هؤلاء المنفيين؟عددهم؟ وضعيتهم؟ نمط معيشتهم؟ هل ورثوا ديانة آبائهم، الذين وكما رأينا كانوا في عمومهم زعماء، وقادة، ورجال حرب، ورجال دين، وكان أغلبهم علماء وذوي كفاءة؟

هل تم تذويبهم في المحيط الأروبي كما تكهن بذلك م. كوليني (M. Collinet) أم أنهم يبحثون عن أواصر مع المجتمعات الإسلامية الأخرى في منطقة جنوب شرق آسيا؟. وهل زارهم فعلا إخوانهم المسلمون؟ فقد شاهدنا في السنوات الأخيرة نشأة العديد من المنظمات و الجمعيات والوداديات، البعض منها ذو طابع وطني والآخر ذو طابع عالمي أو إقليمي، وكلها تهتم بالمسألة نفسها: وضعية المجتمعات الاسلامية و الأقليات منها على وجه الخصوص .

وحيث أني كنت في السنوات الأخيرة أعمل في مؤسسة مالية إسلامية وأن مهمتي بالذات كانت مساعدة ودعم هذه الأقليات، فإني صببت اهتمامي على هذه المسألة . وقد بدأت بمساءلة أحد الأصدقاء ، كتب مؤلفا عن المسلمين في أوربا وأمريكا نشر في سنة 1976[1] . وقد أخبرني أنه فعلا

(1) كتاني (علي)، المسلمون في أوروبا وأمريكا، باللغة العربية، طبع بجدة في مجلدين 1978.

أدى زيارة لكاليدونيا الجديدة وحتى يضعني في الصورة عن الوضعية، قدم لي مقالا خصصته لهذه الزيارة جريدة محلية بتاريخ 17 أوت 1978 .

الاتصال بالعالم الخارجي .

وقد وضعت الجريدة إلى جانب صورة صديقي العنوان التالي «إنه يدعو الـ 15000 مسلم كاليدوني إلى التكتل . »

ويقول الصحفي في هذا المقال :«إنه يبدو أن المسلمين قد وصلوا إلى الإقليم مع عمليات التهجير التي قام بها نابليون الثالث إنطلاقا من افريقيا الشمالية . »

وعند حديثه عن الزائر، فإن هذا الأخير متيقن: «وحتى إن كان هؤلاء الناس يبدون اليوم نوعا من اللامبالاة فيما يخص الدين، وحتى ان كان بعضهم قد ارتد إلى الكاثوليكية، فإنهم قد بقوا باطنيا وفي عمقهم مسلمين. وقد حافظوا في خلفهم على دين النبي محمد صلى الله عليه وسلم . »

وعن مجتمعهم ككل، يقول: «ويعرف هذا الأخير نوعا من التجديد . فقد بقي ولمدة طويلة مجتمعا معزولا عن باقي العالم لأنه بعيد عن الدول الأم ذات التقاليد الإسلامية وكذلك لكونه مجتمعا يستعمل الفرنسية في محيط عام انجلو سكسوني إلا أنه قد ربط ابتداءا من سنة 1974 بعض الصلات الأولى مع مسلمي زيلاندا الجديدة استراليا . وقد مكّنت زيارة غيث فرعون (Ghait Pheraoun) منذ سنتين(. . .) من اتصالهم الأوثق بالمجتمع الإسلامي العالمي . »

«ومنذ شهر ديسمبر الفارط استقرت هذه الجماعة في مسجد بمنطقة «وادي المستوطنين» (La vallée des Colons) . وقد اتخذت فيما بينها إماما(. . .) وأصبحت جزءا من المجتمع الإسلامي الجهوي لدول الهادئ. وسيشارك ممثلوها مع نهاية السنة في الاجتماع العام الذي سيعقد في أستراليا . »

وفي نفس العدد من الجريدة كُتب «أنظر الصفحة الخامسة»:
«إن الحماس الذي يذكر به المسلمون محمد(صلى الله عليه وسلم) والله! أكثر قوة لأنه أكثر صدقًا.»

ويعطينا هذا المقال الدليل على أن الإسلام موجود بالفعل بكالدونيا الجديدة وأنه قد دخل المنطقة مع أوائل المنفيين الجزائريين و أن هؤلاء قد نقلوه وورثوه لأخلافهم[1].

وإذا كنا لم نجد مؤلفات أو مخطوطات عن أوائل المنفيين الجزائريين إلى كاليدونيا الجديدة، باستثناء المذكرة التي كتبها م. كوليني، فإننا قد استطعنا مع ذلك الحصول على بعض المقالات التي تحدثت عن جو إقامتهم.

«لقد أتى الإسلام الى كاليدونيا الجديدة عن طريق العشرات الأوائل من المنفيين الجزائريين.» إلا أنه. «وفي غياب التأطير الديني الحقيقي والمؤسسات المناسبة، فإن التظاهرات الثقافية المتأثرة بالإسلام قد أصبح لها على المستوى الاجتماعي أهمية أكبر من الشعائر الدينية المحضة.»



القادة العرب وصلوا إلى كاليدونيا الجديدة

(1) جريدة فرانس أوسترال – نوميا 17 أفريل 1978؛ نسخة بالملحق.

وقد وصف أحد الضباط الفرنسيين أوائل المرحلين الوافدين قائلا: «إننا نراهم يهيمون هنا وهناك، وقد اجتمعت فيهم ملامح الاستسلام لقدرهم والجلد والعزة التي طبعتهم وهم يسيرون تحت برانيسهم البيضاء التي تشدها عند الرأس ضفيرة من وبر الجمال. وقد احتفظت عيونهم بتلك الشرارة التي بدأ بريقها في الخمود، فتراهم ينحنون عند مرور أحد المسؤولين الفرنسيين بتلك البساطة والعزة التي تعد من شيمهم. أما مع الغروب فإنك تراهم يركعون ليقبلوا هذه الأرض التي وإن كانت أرض الغيروالعداوة، فإنها تبقى رغم ذلك أرض الله الطاهرة»[1].

بقي هؤلاء المسلمون في جزيرة الصنوبر حتى 1881. ثم اعيد وا إلى الأرض الكبرى (اللسان الأكبر) أين بقوا حتى 1895 تاريخ العفو عنهم، أي بعد 15 سنة من العفو الذي شمل منتفضي بلدية باريس.

وصول منفيين جزائريين جدد .

وقد قدم مسلمون آخرون إلى كاليدونيا الجديدة ضمن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة والذين لم يعرف عددهم بالضبط، لكون ادارة السجون لم تفرق بينهم وبين غيرهم من المساجين الاوروبيين. ولم تكن جناية البعض سوى كونهم اتبعوا القواعد السارية المفعول في مجتمعهم الأصلي، وخاصة ما تفرضه اعراف الشرف . وهكذا فان احدهم وجد نفسه في الأعمال الشاقة لأنه طعن ضابطا فرنسيا أثناء تفتيش عسكري ذلك أن هذا الأخير قد تمادى في تطاوله على خطيبته. ومازال أحفاده الى حد اليوم يشعرون بنوع من الاعتزاز وهم يروون قصته.

---

(1) ريفيار (هونري) Riviere Henri، ذكريات من كاليدونيا الجديدة، طبعة 1981، نوميا، منشورات ص. 75–76.

«وبصفة عامة، تمثل الأشغال الشاقة بالنسبة لهؤلاء المنقولين تجربة أكثر شقاءا وإذلالا مقارنة مع غيرهم من ذوي الأصل الأوروبي وهذا راجع إلى انتمائهم العرقي والديني (...)، فخصوصياتهم العرقية تحكم عليهم فعليا بالتهميش وتجعلهم من المختارين مسبقا ليقتص المجتمع منهم. ويبدو أن العرب المسلمين من الجيل الأول كانوا متقين في تطبيقهم للشريعة وملتزمين بكل التعاليم... وقد ظهروا أمام المسيحية بمظهر الثابت على مبادئه، مع أنه كانت تربطهم علاقات طيبة مع البعثات الكاثوليكية.» إلا أن الصعوبة الأساسية التي عرقلت انتشار العقائد و الواجبات الدينية تكمن في المرأة، فنساؤهم اللواتي كن ذوات أصل أوروبي واللائي كن هن أنفسهن من قدامى المحكوم عليهم تحت طائلة القانون، لم يكن يعرفن العقيدة الاسلامية ولا يشاركنهم إياها. أضف إلى هذا البؤس العام نسبيا الذي كان يطبع ظروف الحياة، والذي قليلا ما يساعد على المواضبة الدينية.

«ولكونهما لم يورثا، فإن كلا من الرصيد الثقافي العربي وإرث العلوم الدينية الاسلامية قد تلاشيا إلى حد ما مع تعاقب السنين»[1].

إن كل المعلومات التي استطعنا الوصول اليها تبين أن الإسلام قد دخل الى كاليدونيا الجديدة مع أوائل المنفيين الجزائريين، إلا أنه وابتداءا من هذا القرن ، فإن مسلمين آخرين قد هاجروا للعيش في هذا الإقليم بدءا من سنوات 1900 ألا وهم الأندونيسيون .

---

(1) كوليرا (م. ج) الإسلام بكاليدونيا. أرستوم، نوميا 1981، 7 صفحات.

الأندونيسيون

بدءا من سنة 1900 التحق بالمسلمين العرب، مسلمون من الهند الشرقية سابقا التي اصبحت اندونيسيا فيما بعد. وقد تم تهجيرهم إلى كاليدونيا الجديدة لتعويض النقص في اليد العاملة بالمناجم و الزراعة الذي سببه التوقف عن إرسال سجناء الاشغال الشاقة.(...) وكان الانتقاء يتم خصوصا بجزيرة جاوا(...) وكثيرون منهم قرروا تمديد اقامتهم بعد انتهاء مدة عقدهم. وهكذا ارتفع عدد الاندونيسيين بانتظام حتى بلغ الستة آلاف. إلا أن البعض منهم قد عادوا إلى اندونيسيا.» و يوجد اليوم في كاليدونيا الجديدة ما يفوق الخمسة آلاف أندونيسيا، منهم ما يزيد عن ثلاثة أرباع ولدوا بعين المكان.

و هم يكنون وديا زبالنياوليس. وثلثا هذه المجموعة يتمع بالجنسية الفرنسية. ويمكن تقدير المنقادين للاسلام منهم بحوالي ثمانين بالمائة.

وهناك مسلمون آخرون هاجروا الى كاليدونيا الجديدة من كل من الصومال وجيبوتي و بعض الافارقة الشماليين الذين يقدر عددهم بحوالي عشرين شخصا قدموا في السنوات الاخيرة.»

الرجوع إلى الاسلام

لقد جعلت جمعية العرب وأصدقائهم -التي أسست سنة 1966- هدفها الاساسي التنشيط الثقافي والديني للمحيط العربي في كاليدونيا الجديدة. وكانت ترتئي ضمن مشاريعها بناء مسجد و تنظيم تعليم القرآن، إلا أنها مع الأسف لم يكتب لها النجاح.

وقد حاول المسلمون ذوو الأصل الاندونيسي تنظيم أنفسهم ولكنهم لم يفلحو «كان لا بد من وصول مجموعة من المسلمين المقتنعين،

الذين يطبقون التعاليم القرآنية بحذافيرها كي يبدأ المجتمع الإسلامي في تنظيم نفسه بمعنى الكلمة.» كما يقول (ريمون دلفال):[1]. وكما نرى فإن هناك الكثير من الخلق الذين يهتمون بالاسلام، فعندما يتعلق الأمر به فالكل يخرج من دائرة اللامبالاة. فهاهنا ما يكتبه المبعوث الخاص لجريدة لوموند الشهيرة.» وهناك في الإقليم مظاهر تيار إسلاموي ينشطه أحد صغار العاملين بالفندقة وهو من أحد معاقل انفصاليي كانالا (Canala). وهذا زالطاهيس، ذي المستوى المعيشي المتواضع يتفاخر بالدعم المالي لملك السعودية ليعلن الشروع في بناء جامعين، أحدهما في نوميا والآخر في نيساديو، وهذا وسط الكالـدونيين ذوي الأصل القبائلي والعربي المنحدرين من منفيي القرن التاسع عشر. ومن المؤكد أن موارده المالية لايستهان بها إذ أن الجمعية التي أنشأها في طور الانتهاء من بناء مركز ثقافي بمنطقة وادي المستوطنين بمدينة (نوميا).

«ونجد هذا السني الحماسي، يعلن بالتدقيق والفخر أنه من بين أعضاء جمعيته، يوجد أيضا» اثنان من سكان كاليدونيا الأصليين اعتنقا الإسلام[2]. وهذا يدفع بنا الى تناول موضوع تنظيم الجماعات البشرية الاسلامية.

وفي الحقيقة فإن صاحب المطعم هذا ليس رئيس الجمعية ولكنه أمين خزينتها، مما جعله يكون على دراية تامة بمصادر تمويلها. وقد تحققنا أنه فعلا يوجد على دفتر مداخيل الجمعية تحويل بمبلغ 6000 دولار أمريكي كعطاء من عند الملك فهد ملك السعودية.

---

(1) دلفال ريمون «Raymond Delval» المجتمعات الإسلامية على تنوعها في المحيط الهادي وإفريقيا، وآسيا العصرية (144). مركز الدراسات حول آسيا وإفريقيا، شارع لوفور، باريس، ص 57 – 58.

(2) غولا ألان «Rollat Alain» جبهة التحرير الوطنية الكاليدونية الاشتراكية تبحث عن استراتيجية جديدة، جريدة لوموند بتاريخ 14 ماي 1986.

الفصل الخامس

تنظيم المجتمع الإسلامي

حاول مسلموا كاليدونيا الجديدة مرارا لم شملهم ولو كانت تلك المحاولات تلقائية ومحتشمة.

والواقع أنه لم ينظم هذا المجتمع حقيقة وبنجاح، الا بعد دخول بعض المسلمين الممارسين لدينهم إلى « نوميبا » وهم جماعة من المواطنين الفرنسيين الذين عاشوا بسايقون في الفيتنام ومن المرجح أنهم تركوا المدينة قبل توحيد البلد. وسيبرز في هذه الجماعة رجلان: الاول، ضابط صف سابق في الجيش الفرنسي من أصل جيبوتي ويتعلق الأمر بالحاج موسى أوبوك الذي لم يتوقف يوما ومنذ وصوله إلى كاليدونيا الجديدة عن خدمة الأقلية المسلمة وإخوانه الفيتناميين، وقد استقر مؤخرا في « ماليزيا » بعدما أضطر الى الهجرة في أحداث « كايو » .

الثاني، موظف سابق في شرطة سايقون من أصل يمني ويتعلق الأمر بالحاج عبدو رباح الذي شغل منصب رئيس جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة بالتناوب مع صديقه حاج موسى أبوك قبل أن يغادر بدوره المكان للعودة الى وطنه الاصلي الاوهو اليمن. حاليا يرأس الجمعية ومنذ 1984 « داوو » وهو مسلم من أصل يوغسلافي. ولنعد الآن إلى الرجلين اللذين ذكرتهما آنفا، فهما يعتبران القاعدة الأساسية التى ترتكز عليها جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة فالأمر هنا لايتعلق فقط بمسلمين ممارسين لديانتهم ولكن أيضا برجلين قادرين على إمامة الصلاة ومنح

تكوين إسلامي أساسي وهذا بالضبط ما كان ينقص المسلمين المهتمين بمعرفة الدين الإسلامي .

وقد واصلت شخصي تقصي المعلومات حول حياة هؤلاء المسلمين باعتبارها جزءاً من عملي وأيضا لأن الأمر يتعلق بسلالة المهجرين الجزائريين.

حيث تسنى لي في شهر جانفي 1984 الإطلاع على جريدة « لوموند » فوقعت عيناي مرة أخرى على مقال يحمل عنوان « العرب في كاليدونيا الجديدة » . كاتبه جزائري ويعطي مجموعة كبيرة من المعلومات حول سلالة المهجرين. قال جون بيير أيفا، وهو من أصل عربي، ورئيس بلدية بوراي ورئيس الجمعية الإقليمية: « زار مؤخرا السيد تجيباو زعيم الحركة الإنفصالية الجزائر وأطلعني على دهشة الرئيس الشاذلي بن جديد عندما علم بوجود نسل عربي في كاليدونيا الجديدة. هذا ما يدل على تساوي جهل الجزائريين المقيمين بفرنسا وبالجزائر الوطن الأصل بوجود مجتمع عربي ترك سلالته في أقصى حدود الأرض[1] .

تستقبل نوميا الكثير من الزوار، و في يوم من الأيام جاء دور أخي وصديقي الدكتور صالح سماري أستاذ بجامغة الملك عبد العزيز بجدة وقد ساندني بدوره بعد زيارته هذه و لقائه مع العديد من ممثلي هذا المجتمع. يقضي الدكتور سماري وقت فراغه في لقاء المسلمين المنتشرين عبر أنحاء العالم الفسيح. لقد عاش في اليابان ما يقرب من العشر سنوات؛ وقد زرنا معا كُلاً من جزيرة رينيون وموريس وإفريقيا الجنوبية وأستراليا وشمال البرازيل وجنوبه.

وباختصار، عاد صديقي إلى نوميا حاملا معه الكثير من المعلومات والوثائق وبهذا تحصلت على الصورة و الصوت. ولم يبق لي سوى ايجاد

(1) عيساوي (جعفر)، العرب في كاليدونيا الجديدة، صحيفة «لوموند» 15 جانفي 1984.

الفرصة المناسبة لتحضير سفري؛ وأخيراً تسنى لي ذلك بفضل دعوة للمشاركة في ملتقى ببورت في أستراليا تحت رعاية منظمة المؤتمر الإسلامي حيث كان عليّ تمثيل الإسلام في الفيتنام والكمبودج .

أول زياراتي الى كاليدونيا الجديدة

بما أن أستراليا لاتبعد كثيرا عن كاليدونيا الجديدة، فقد حصلت على تصريح للمرور بها بعد انتهاء الملتقى، وبعدما تجولت في المدن الأسترالية الرئيسية بحثا عن الجمعيات الاسلامية في هذا البلد الكبير، اتصلت هاتفيا من سيدني برئيس الجمعية الإسلامية لكاليدونيا الجديدة لاعلامه بتاريخ وساعة وصولي إلى نوميا ورجوته توفير اللازم للحصول على التأشيرة في المطار.

وكم كانت دهشتي كبيرة عند وصولي الى مطار « تنتوتا » إذ استقبلني حشد كبير من الناس والعشرات من المسلمين كانوا بانتظاري. وقد تمت اجراءات الشرطة والجمارك بسهولة، وها نحن الآن نتوجه في موكب كبير نحو حوالي خمسين كيلومترا من عاصمة نوميا.

الإجتماع المنعقد في مقر الجمعية

لقد بدأت العمل مباشرة، فبمجرد نزولي في الفندق الواقع في وسط المدينة دخل غرفتي وفد، قصد التعارف، وبعد ذلك توجهنا معا الى مقـر جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة التي تقع في 13 شارع ميرانوا في وادي المستوطنين .

وقد حضر الإجتماع رئيس الجمعية وهو رجل أعمال مهم، عكس ما وصفه الصحفي قائلا « مصلح متواضع ». هو مواطن فرنسي من أصل يمني ومسلم ممارس وعالم بفرائض دينه، وصل الى كاليدونيا الجديدة سنة 1962 .

وقد شارك في الاجتماع أيضا عضوان من جمعية العرب وأصدقاء العرب ومن مكتب جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة، يقطن كلاهما في نيساديو ببلدية بوراي وقد جاءا خصيصا لدعوتي. وحضر أيضا عدد كبير من مسلمين ذوي أصل عربي وأندنيسي يهتمون بالقضايا الإسلامية.

وما جلب انتباهي هو وجود شاب كمبودي متخرج من الجامعة الاسلامية للمدينة المنورة. وهو موجود بنوميا بصفته مدرساً في خدمة هذه الجماعة الكبيرة من الأندونسيين. إنه يخدم الأندونيسيين كثيرا لأنه يتقن لغتهم، كما يتقن الماليزية بالإضافة إلى الفرنسية والعربية. وقد وظفته منظمة «الدعوة الإسلامية» التي يوجد مقرها بطرابس التي أمضى معها عقداً، لمنح تكوين إسلامي لكل من يرغب في ذلك، كبارا أو صغارا وقد كان فعالا جدا.

وصل هذا الشاب إلى نوميا في نفس الفترة التي وصل فيها زميل تونسي متخرج من نفس الجامعة ومن نفس الدفعة. هذا الأخير وظفته رابطة العالم الإسلامي التي مقرها في مكة. جاء بدوره للقيام بالعمل نفسه لصالح المسلمين من ذوي الأصل العربي. لكن التونسي لم يحضر الإجتماع.

وفيما يخصني، وضحت هدف زيارتي وعبرت عن رغبتي في لقاء أكبر قدر من الناس. وقد قدمت بالطبع موافقتي على التنقل للقاء أحفاد الجزائريين من سكان المنطقة. وقد أصررت على لقاء من هم أكبر سنا رجالا أو نساءا. وقد وعدني رئيس الجمعية بأخذي إلى هناك بدءا من صباح الغد عند شروق الشمس.

وفي المساء، ذهبت بمفردي الى منزل رئيس ودادية مسلمي كاليدونيا الجديدة، وهنا أيضا التقيت أناسا كثيرين وتعرفت عن قرب على مسلمي نوميا ووجدت هناك الأندونيسي مسير جمعية ثانية لمسلمي كاليدونيا الجديدة.

ومؤسس هذه الجمعية المنافسة ، ضابط سابق في الجيش الفرنسي لجأ الى نوميبيا منذ 1969. وقد انتهى النقاش في ساعة متأخرة من الليل غير أنني كنت شارد الذهن: كنت أفكر في أحفاد المهجرين العرب.

زيارة نيساديو

غادرت مدينة نوميبيا برفقة رئيس الجمعية و أمين الصندوق – وهو من أب يمني وأمه بنت منفي جزائري –بالإضافة الى مسلم من أصل صومالي، وانطلقنا على الساعة السابعة صباحا لنصل الى نيساديو على الساعة التاسعة والنصف بحيث قطعنا مسافة ما يقارب مائة و ثمانين كيلومترا.

ها نحن الآن في مدينة نيساديو، التي كانت تسمى في السابق «وادي الشؤم»، وجدنا بها حشدا كبيرا من الناس وما يقارب ثلاثين سيارة منهم الرجال والنساء والأطفال وربما فيهم مئات الأشخاص الذين يمثلون ثلاثة أجيال من المهجرين. لويس بوفناش المولود في سنة 1911، العربي فرانسوا المولود في 1905، بن حميش سعيد المولود في 1908 كلهم من أبناء المهجرين. أبناؤهم: عبد القادر بوفناش وصديقه علي بن أحمد لوسيان كلاهما من مواليد سنة 1934 وهما عضوان في جمعية العرب وأيضا في مكتب جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة وقد جاءا كلاهما لاستقبالي ليلة أمس في مطار« تنتوتا» بنوميبيا.

رافقهما هذه المرة، زوجتاهما وأولادهما: الجيل الثالث من المهجرين. وقد تكرم عبدالقادر بوفناش بعجل في وليمة الغذاء على شرف الحضور.

اجتمعنا في مقر التجمع الواقع بالقرب من المقبرة التي دفن بها جثمان بعض المهجرين. وهي أرض تبلغ مساحتها هكتارين تبرعت بها عائلة ميلود.

وقد تحدثت طويلا خلال المأدبة التي أقيمت في قاعة كبيرة خاصة باجتماعات هذا المجتمع و هي مزودة بمطبخ ومخزن توضع به المؤن وأدوات المطبخ بالاضافة الى لوازم المائدة. وغير بعيد عنها، بالقرب من المقبرة، توجد قاعة كبيرة توضع بها الجثث فهذا أول مكان يخلد اليه جسد المفقود قبل أن يوارى التراب.(الصورة في الملحق).

إن أغلبية سكان المحيط: بوراي، نيساديو وبوغن، هم من سلالة المنفيين الجزائريين، ويعتبرون كاليدونيين أي مواطنين فرنسيين. ففي حالة الوفاة، يقضي القانون الفرنسي بأن لا تدفن جثة الميت إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة من وقت الوفاة. ويضع سكان المنطقة النعش في تلك القاعة كما يحضرون إماما من نوميا لترتيل القرآن خلال السهرة ولإمامة صلاة الجنازة عند الدفن.

لقاءاتي بأفراد من سلالة المهجرين

تحدثت طويلا مع أحد العمداء: العربي فرنسوان وهو يحسن العربية، قال لي أنه ولد في 6 أفريل 1905 وأنه يفضل أن نناديه باسم العربي ميسوم بالحاج. «أصل والدي من مدينة الشلف وبالضبط من قبيلة أولاد سيدي يحيا وقد وافته المنية سنة 1917.» لايحتفظ ميسوم من طفولته سوى بذكريات سوداء ومليئة بالحقد وقد قال لصحافي جزائري أنه لايزال يتذكر والده: «لم يكن يعكرسكون العشية سوى جلجلة السلاسل التي تركت آثارها على والدي حتى وفاته. وما يبرر ضغينة ميسوم هي وحشية الحراس.

وفيما يلي نذكر بعض الحالات من وحشية الحراس. يتذكر أحدهم أن سجينا فلت من موت أكيد بفضل مسجون يعمل كطباخ: «لقد سمع الحراس يتراهنون برأسه وعند المساء حذر ذلك السجين الذي استعان بطوق برميل قطع به ثلاثة أصابع بغية نقله إلى العيادة، وقد اعترف للطبيب الذى أنقذه».

«الرحلة الوحيدة التى قام بها ميسوم الى الخارج أخذته إلى الولايات المتحـدة. لم يكـن جديـراً بي أن أتجـه الى أمريكـا بـل إلى أفريقـيا.» وأضاف قائلا وقد اغرورقت عيناه بالدموع: «لدي رغبة جامحة في رؤية إفريقيا قبل أن أموت.»

كما تحدثت طويلا مع شخص ثان مازال بإمكانه التحدث بالعربية وهو بوفناش لويس أو أحمد بنظر والده. وقد أكد أن إسمه أحمد وأنه ولد في 4 نوفمبر من سنة 1911 بنوميبا، وهو ابن لبلقاسم بن محمد كما أنه يجهل مسقط رأس والده .

لقد حدثني عن أولاده وهم ستة ذكور: سعيد ومسعود وبلقاسم وطيب ومحمد وعبد القادر، وبنت واحدة تدعى زهرة. وإذا كان بوفناش قد ولد بنوميبا فقد ترعرع في بوراي، وهو اليوم يعيش في نيساديو مع عائلته تحت سقف منزل مهدد بالسقوط يقع في قلب الوادي، مصنوع من خشب وصفائح معدنية. وقد توفي والده منذ أربع وستين سنة ويعتبر بوفناش الذكر الوحيد في عائلة تضم ثلاث بنات: زينب وزهرة ويمينة،أما زوجته فهي أيضاً بنت منفي جزائري من بريكة واسمه الطيب الذي نفي مثله مثل أبناء بلده لارتكابه جرائم سياسية.

وفيما يتعلق بحياة المهجرين، أطلعنا محدثنا على عقاب كان كثير التداول في تلك الفترة: «كان يضع الحراس السجناء المتهمين بالكسل في أوكار لنمل ذي نهم خاص إذ أنه لا يترك اللحم حتى ينفجر الدم. لم تكن أوكار النمل ناقصة...ولا حتى السجناء الكسالى.

«لم تتوقف هذه التصرفات السادية الا في سنة 1936، رغم أن السجناء بلغوا عنها في العديد من المرات، بعد تحقيق قام به مبعوث خاص من العاصمة .

وفيما يتعلق بالممارسة الدينية، ركز بوفناش في حديثه على اللقاءات التي نظمها أعضاء هذا المجتمع في المقبرة اين يجمعون «الصدقة» وبالتحديد في مناسبة الاحتفالات العائلية أو الدينية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على جهل بوفناش بالدين، ولكن وبطرح أسئلة على زوجته، قالت أن إسمها حليمة وأن والدها الطيب بن مبروك من بريكة، وهي تتكلم بضع كلمات باللغة العربية فأخذت ترتل الشهادة والحمد لله وباسم الله الأمر الذي تفعله على الدوام، كما ذكرت والدها قائلة:«كان يحدثنا عن وطنه بقلب كبير هكذا، وكان الأمر ينتهي دائما بحفلة غير متوقعة إذ يفسح المجال للطبول والناي وكان يسر كثيرا بترقيصنا رقصة العرب.»

كانت تتجه زيارتي المقبلة الى طيب بن مبروك آخر، ولد سنة 1911 وهويجهل مسقط رأس والده، وهولا يزال يشتغل بمهنة الحدادة وورشته تقع على الأرض نفسها التى عليها منزله. بوفناش مقترن بالسيدة بوفناش يمينة التى تحسن العربية أكثر منه كما أنها تحب، مثلها مثل زوجة أخيها، ترتيل الفاتحة والشهادة وتردد دائماباسم الله والحمد لله.

وكان قد رافقني خلال زيارتي، ابن أخيها عبدالقادر بوفناش ورئيس جمعية المسلمين، فطلبت السيدة يمينة من هذا الأخير ترتيل بعض الآيات من القرآن الكريم التى تحب سماعها. وأكد لي رئيس الجمعية أنها بالفعل تكرر نفس الطلب كلما مر بها.

استمررت في تجوالي من بيت إلى بيت، وهذه المرة توجهت الى السيدة أرملة ناصر شيخة المولودة في 12 أكتوبر 1907، إبنة رابح بن عيسى التى لاتزال تقطن بنيساديو كما أنها تتحدث العربية بطلاقة، فطلبت منها إخباري ما إذا كانت تعتبر نفسها عربية فكانت اجابتها:

نعم، وإذا كانت تعتبر نفسها مسلمة فكانت إجابتها نعم أيضا، وهل تصلي؟ فقالت نعم مرة أخرى، وهل بإمكانها أن تريني كيف تفعل ذلك؟ فأجابت: «في المساء لماأخلد للفراش وقبل أن أنام، أرتل الشهادة وأقول أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.»

لقد شرحت لي بأنها عرفت حياة جد قاسية كوالديها المنفيين فمنذ طفولتها اضطرت إلى جلب الحطب وقطعه وجلب الماء، إضافة إلى صعوبة العيش مع أب لا يتكلم إلا العربية وأم لا تتحدث إلا الفرنسية. كما أنها لم تذهب إلى المدرسة شأنها شأن كل أبناء المنفيين.

لم يكن بإمكاني قضاء يوم كامل في نيساديو دون زيارة رئيس بلدية المنطقة الذي يسكن مع أبناء بلده، إسمه عايفة جون بيير وقد احتل منصبه هذا منذ سنة 1977 كما تقلد منصب رئيس الجمعية الإقليمية منذ 1976 هو يعيش في ملكية كبيرة، وكان استقباله لي حاراً جدا.

شرح لي السيد رئيس البلدية أن اسمه الحقيقي الطيب العيفة ابن عيفة العيفة وأن اسم جون بيار ليس بالرسمي، وتوفي والده وهو ابن الثلاث أو الأربع سنوات وهذا الأمر جعله يجهل العربية بما أنه تلقى تربية أمه الفرنسية، وله أختان: هونريات وحليمة وأخ إسمه قادر.

وقد أخبرني بأنه يفعل كل ما في وسعه لمساعدة أعضاء مجتمعه فمنذ أن انتخب رئيسا للبلدية أدخل الماء والكهرباء للبيوت في نيساديو بالإضافة إلى إجبارية مزاولة الدراسة وتوفير حافلة خاصة بالنقل المدرسي. كما وهب أيضا قطعة أرض من 5 هكتارات لبناء مركز أو دار الشباب وفي هذا المركز يأتي الأستاذ التونسي من وقت لآخر لإعطاء دروس في اللغة العربية.

الجـذور

لقد استغرق حديثي مع الطيب العيفة قرابة الساعتين والأسئلة التي كانت تعود دائما تتعلق بالجذور «نحن من سلالة العرب الذين جاءوا من الجزائر، ولكننا لا نعرف الشيء الكثير وكيف يمكننا ذلك؟ ولمساعدته على تحقيق مبتغاه، أهديته كتابين يحملان بين طياتهما الجزائر.

ولمساعدته على حل قضية الجذور، أخبرته بأنه يمكن تجاوز هذا المشكل. كيف ذلك؟ فقلت له أنه يكفيه إرسال شهادة عقد زواج الوالدين، وعلى ضوء هذه الوثيقة بإمكاني رفع الستار عن أصل والده. وبعد مرور ثلاثة أسابيع من هذا اللقاء أرسل لي الطيب العيفة رسالة مرفقة بالوثيقة المطلوبة وبذلك جاء ردي فوريا. فسلّطت الضوء على بعض الأسئلة وواصلت. «فلنرجع إلى قضية الجذور. حسب رأيي شهادة عقد زواج الوالدين ترشدنا إلى الطريق حيث أنها تشير إلى أن سانت أرنو هي مسقط رأس والدك في 1875».

ومنذ استقلال الجزائر غيرت أسماء الكثير من المدن فأعيد إلى سانت أرنو اسمها الحقيقي وهو العلمة.«إذا فيما يخص أصل أبيك فقد حل المشكل. والآن يمكننا إيجاد جذورك من أمك. أمك ليست من أصل فرنسي فهي ابنة المنفي المسمى الطيب بن حسان. وبنفس الطريقة يمكننا إيجاد أصل أمك إذا ماكان بمقدورك إرسال شهادة عقد زواج جدك.

ومرة أخرى أرسل إلي الطيب العيفة الوثيقة المطلوبة وتتمثل في شهادة عقد الزواج المحررة بتاريخ 13 ماي 1905 للطيب بن حسان المولود في 1843 ببني شقران المنطقة الإدارية لمستغانم، وهران، أرمل خيرة بنت علي، وإبن عبد القادر وخضراء بن حسان، وريشارد جون هونريات المولودة في 21 جويلية 1888 في لافوا بكاليدونيا الجديدة .

وبهذه المعلومات عرف صديقنا أصل والده وجده من أمه.

كما قابلت أشخاصًا آخرين خلال هذا اليوم بنيساديو، على سبيل المثال عائلة بلبدرون.

أعترف أن طريقة نطق الاسم فاجأتني، فطلبت رؤية الدفتر العائلي فاكتشفت: بلبدرون ديزيري المكنى علي المولود في 2 مارس 1908، ابن بوبدرون محمد بن صالح، وهكذا فقد حصل في الاسم تحريف، ربما بوبدرونة! وهنا أيضا لا يعرف المعني بالأمر أصل والده شأنه شأن عائلة ميلود. يقطن جيرار ميلود رئيس جمعية العرب وأصدقاء العرب في نوميا، ويعمل كمقاول، كما يعتبر عنصرا فعالا جداً. فقد حضر لمشروع كراء طائرة تقل أبناء المهجرين الجزائريين في رحلة استكشافية للجزائر. ولكن وللأسف لم يتحقق هذا المشروع بسبب الركود الإقتصادي الذي ضرب الإقليم. كما قابلت أيضا إخوانه ميلود مارسيل ميلود ألبير وكلهم أبناء لميلود عبد الله المولود ببوراي. غير أن النقطة الوحيدة التي تجمع بينهم هي كونهم أبناء منفي جزائري.

وبعد يوم مفعم بالنشاط في نيساديو برفقة أبناء المنفيين الجزائريين تناولنا مع بعضهم طعام الغذاء في مكان التجمع ومع البعض الآخر في المنازل، وقد غادرت هذه المنطقة في ساعة متأخرة من الليل للعودة إلى نوميا.

وهنا أيضا سأقضي اليوم التالي في زيارات للعائلات الجزائرية التي تقيم في العاصمة.

رفقة أبناء المهجرين في نوميا.

دائما برفقة رئيس الجمعية وغالب طاهر أمين الصندوق استهللنا زيارتنا بمنزل أم هذا الأخير. والأم تسكن بالحي اليمني. وبالفعل فهناك في نوميا حي يحمل هذا الإسم. فقد آوت المدينة مهاجرين من أصل يمني ويتعلق الأمر برحالة استقروا في البلاد؛ وكانوا يعملون بالميناء وفي المناجم وأحيانا أيضا بالتجارة. وها نحن الآن بمنزل السيدة غالب مسعودة ابنة رابح بن عيسى وأخت العجوز شيخة التي كنت قد التقيت بها ليلة أمس بنيساديو.

هذه السيدة بنت مهجر جزائري وأرملة يمني وكان استقبالها لنا في غاية الود، وهي تحسن التحدث باللغة العربية، كما أنها تهتم أيضا بالدين ولكي تثبت لنا ذلك احضرت اثنين من أحفادها تقل أعمارهما عن عشر سنوات وطلبت منهما ذكر الشهادة، ثم الفاتحة، وهذا ما فعله الطفلان بكل سرور ودون أي تعثر. وكانت السيدة مسعودة تلح كثيرا، إذ همها أن تبين لي مدى تعلقها بأصلها العربي الإسلامي. بعد ذلك، طلبت من ابنها استدعاء أعمامها الذين يقطنون بالحي وما هي إلا لحظات حتى وصل رجلان: أحدهما عجوز محال على التقاعد، خدم في المناجم وكانت تجاعيد وجهه تعبر عن الارهاق والتقدم في السن إلاّ أنه كان هو الآخر يحسن العربية.

اسمه قويدر بن رابح بن عيسى الذي أخبرني بأن عدد أفراد سلالة بن عيسى يبلغ العشرين من ذكور و إناث. أما أخوه فهو أكثر شبابا منه. إنه الطاهربن رابح بن عيسى متقاعد من الجيش الفرنسي، كما شارك في حرب الهند الصينية وأيضا في حرب الجزائر. وقد أخبرني بأنه خدم الحرب ما بين سنة 1957 و1959 بمنطقة سعيدة ومشرية تحت ادارة

بيجار. وهو قليل الكلام بالمقارنة مع أخيه وأخته. كما أراني وشما كان قد رسمه على ذراعه الأيمن قبل الذهاب الى الجزائر وعند النظر إليه تبرز جليا نجمة وهلال وجملة لا اله إلا الله.

لقد رسم الطاهر هذا الوشم لإبرازه في حال ما إذا ألقى المجاهدين القبض عليه، ورغم أنه يحمل اسما ولقبا عربيا إلا أنه لايحسن العربية. فالوشم سيساعده على تحديد انتمائه للدين الإسلامي.

وعلمت وأنا عند هذه العائلة بوجود امرأة جزائرية تقطن بالحي نفسه، فطلبت أيضا من مرشدي الطاهر أخذي الى منزل السيدة مسعودة مقراني.

لم يكن من اللائق زيارة كاليدونيا الجديدة دون التعريج على هذه السيدة التي يحمل اسمها معاني عميقة في نفوس الجزائريين، وخاصة إذا ما تعلق الأمر بكاليدونيا. يمكنني القول بأنني اهتممت بأمر هذه السيدة منذ أن اطلعت على عدد في جريدة لوموند الصادر بتاريخ 15 جانفي 1984.

قبل استهلال الحديث عن لقائي بالسيدة مقراني، إليكم ما كتبه الصحفي المذكور آنفا: «إن السيدة مقراني التي لم يتأكد انتماؤها إلى نسب المقراني زعيم الثورة- تتذكر كل صعوبات تلك الفترة إلا أن اهتمامها كان منصبا على أيام السعادة الغابرة اذ تقول «يعجز التعبير عن وصف صورة العرب وهم يخرجون الخيول لامتاعنا بعروض الفروسية! لقد كانوا الأفضل! واختص البعض بتربية الخيول بالنظر إلى قدراتهم الفائقة في الميدان الفروسي». كما أخرجت بطاقة بريدية عليها صورة استعراض لفرسان عرب يحتفلون بالذكرى الخمسين لكاليدنيا الجديدة.

«كانت أعين السيدة مقراني تبرق من شدة الإفتخار عندما ذكرت قائلة: «كان اختيار نموذج التمثال الذي يتربع في الساحة الرئيسية لنوميا يقع على المرأة العربية».

وقالت أيضا: «أنا أعلم أن العنكبوت مقدس، فقد كان والدي ينهانا عن قتله، وكان يقول أن العنكبوت حمت عيسى حينما لجأت إلى الغار هاربا من مطارديه: لقد نسجت خيوطها عند فوهة الغار لتضليل الجنود.» هكذا شرحت السيدة مقراني الأمر دون أن تعير اهتمام إلى أن هذه القصة لمحمد(صلى الله عليه وسلم)[1].



هذه الصورة من كتاب مهدي العلاوي، وهي نفس الصورة التي كانت عدة السيدة مسعودة في نوميا. وطبعا قائد الفروسية هو بومزراف، وهو يتصدر الخيالة العرب وذلك سنة 1903 بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخمسين لاحتلال كاليدونيا.

(1) عيساوي (جعفر)، مقال بجريدة لوموند المذكور آنفا.

وفيما يخص التمثال، اليكم ما كتب المبعوث الخاص بعد مرور مدة في جريدة «الثورة الإفريقية»: يوجد كذلك وجه أسطوري مقدس وحتى شبه معبود في العادات. لن تتفطنوا إليه أبدا، إنها جزائرية الأصل وهي ابنة مهجر جزائري رحل في أواخر سنوات 1800. لقد كانت في غاية الحسن بل فاتنة ،اذ كانت تهتز لها مشاعر الرجال و غيرة النساء. إنها كالملاك. كما كانت تخفي وراءها سحرا شبه شيطاني تلك السمراء ذات العينين الخضراوين، ويقال الى حد اليوم في نوميبيا أنها أهلكت رجلا بارا. لقد كانت مطمع الكل بدءا من أول الحكام الفرنسيين الذين احتلوا كاليدونيا الجديدة، وكل ما نعلمه بخصوصها أن اسمها سيليست بن يمينة[1].

فلنعد إلى لقاءي مع السيدة مسعودة مقراني، وهي تتحدث باللغة العربية رغم ادعائها نسيانها. هي من مواليد 1921 من مقراني بن سعيد وأجيني ڨليت. وقد توفيت أمها وتركتها صغيرة ، هذا ما جعل تربيتها تقع على والدها والأمر نفسه جعلها تحسن العربية.أخبرتني بأن والدها وصل إلى كاليدونيا بصحبة أحد إخوانه وأنه ترك زوجة وطفلتين بالجزائر. ولمقرني مسعودة أخت تزوجت بمهجر جزائري بنوميبيا، وبعد ذلك عادت في سنة 1936 إلى الجزائر رفقة زوجها ووالدها وعمها.

كما أطلعتني السيدة مقراني على رسالة تلقتها من قبل أختها التى تعيش ببسكرة، بالإضافة الى تلقيها رسائل من جزائريين وحتى تونسيين وذلك بعد نشر المقال بجريدة لوموند ولقد أحضرت لي رسائل للدكتور مقراني عباس من برج بوعريريج ومقراني محمد الهادي من تونس.

وقد كتب الصحفي المذكور آنفا:«لقد كتبت إلى الخالة مسعودة من نوميبيا(...) وأعلمتني بقدومها إلى الجزائر برفقة كاليدونيين برجيي

(1) عيساوي (جعفر)، العرب في كاليدونيا الجديدة، صحيفة «لوموند» 15 جانفي 1984.

الأصل.«كان التفاؤل باديا على الدكتور عباس حفيد المقراني، عندما علم بقدوم قريبة من سلالة الأبراج المهجرين (...) إلى البرج.»

إن أغلبية الذين التقيتهم لا يعرفون جذور أوليائهم الذين جاءوا من مناطق مختلفة من الجزائر. ألم يولد والد أم طيب العيفة سنة 1843 بالقرب من معسكر؟

مسعودة مقراني هي نفسها مسعودة غالب أرملة اليمني سعيد بن علي وأنجبت منه عشرة أطفال منهم أربعة ذكور و ست بنات.

عودة بومزراف المقراني إلى الجزائر

جريدة الجمهورية الفتية (La petite republicaine) تطرّقت إلى موضوع وصول المقراني إلى مارسيليا يوم 2 جويلية 1904 فكتبت تقول: «وصلت بعثة كاليدونيا الجديدة وأستراليا مساء هذا اليوم وهي تضم حوالي 190 شخصا من بينهم بومزراف المقراني الذي تقدمت به السن حيث شارف 75 من العمر، وأصبح وجهه شاحبا لكن ملامحه مازالت توحي بالقوة والانضباط. المقراني الذي يتقن جيدا لغتنا صرّح أنه لم يذق طعم المرض وهو في نوميا (Noumea) لأن جوّها كان يلائمه..»[1].

«وصلت أخيرا إلى أرض الجزائر التي مازلت أحبها كثيرا رغم كل المعاناة والعذاب.. إنني اليوم بين أقربائي من نساء ورجال تركت البعض منهم حديثي الولادة والبعض الآخر أطفالا.. ليس لي إلاّ أن أبادلهم العطف والحنان اللذان افتقدتهما كثيرا مثلما افتقدت أصدقاء آخرين لازلت أتذكر ملامح وجوههم لكنهم للأسف ماتوا. أجد نفسي اليوم أيضًا دون مأوى لأن زوجاتي الثلاث مُتْن ولو عاشت أصغرهن التي تبلغ اليوم 60 سنة لقاسمتني الحديث عن الماضي وإشراقه.. أما إبني، أبناء

---

(1) من كتاب العلاوي مهدي صفحة 119.

أخي، أبناء عمي كلهم أصبحوا أرباب عائلات.. وأنا بين أبنائهم، أعتز بحبهم رغم أنني لم أشهد ولادتهم وذاك أمرٌ يحزّ في نفسي. لكنني متيقّن أنني سأعوض كل ما فاتني بما أنني محاط بكثير من الحب الذي أثلج صدري».



بعد ثلاثين (30) سنة من المنفى في المحيط الهادي، هذه آخر صورة أُخذت للمقراني يوم 3 ماي 1905 بالجزائر وذلك شهرين قبل وفاته.

من هو المقراني بن سعيد؟

أين السيدة مسعودة من المقرانيين؟ كان والدها قد وصل مع أول المنفيين وقد كان متزوجا وله بنتان.

كم كان يبلغ من العمر عند وصوله الى كاليدونيا الجديدة؟ بين خمس وعشرين وثلاثين سنة في 1873، حيث ولدت مسعودة سنة 1921 ويكون قد رحل عن نوميا إلى الجزائر سنة 1936[1].

لطالما شغلني هذا السؤال، من هو المقراني بن سعيد؟ ما هي المكانة التي يحتلها بين رفقاء بومزراق؟ كل هذا جعلني أكتب للسيد رئيس بلدية بوراي راجيا منه ارسال شهادة عقد زواج المقراني بن سعيد لما لهذه الوثيقة من أهمية كبيرة في أبحاثي.

رد على رسالتي السيد رئيس البلدية سريعا. فقد استجاب لطلبي حيث تلقيت الجواب بعد أقل من شهر من مراسلته.

ويتعلق الأمر بعقد زواج حرر في 30 سبتمبر 1912 بين مقراني بن سعيد المولود سنة 1864 في دوار رامرة (بقسنطينة) ابن سعيد بن مسعود وشماكة بنت شامة وبين فاليت أوجان إميلي المولودة في 11 سبتمبر 1882 في نوميا.

والمشكل يكمن فيما إذا كان المقراني هو الإسم أم اللقب؟ بما أنه ابن سعيد بن مسعود.

قبل وصوله إلى كاليدونيا الجديدة ترك وراءه بالجزائر زوجا وطفلتين هذا حسب ابنته مسعودة. إذن فليس من المعقول أن يكون من رفقاء بومزراق بما أن عمره سنة 1871 لا يتجاوز السبع سنوات. الممكن

(1) فايد (مولود)، المقراني، دار الأندلس، الجزائر 1993، ص 174 – 218 صفحة.

هو أنه في الركب الذي أرسل فيما بعد أو أن اسمه مقراني بما أنه كان يكنى مقراني بن سعيد وابن سعيد بن مسعود.

ولإتمام أبحاثي، تنقلت الى مدينة بسكرة، مزودا بالوثائق التي أرسلها إلى السيد رئيس بلدية بوراي وهي شهادة عقد زواج مقراني بن سعيد بن مسعود المولود في 1864 في (دوار رامرة) بولاية قسنطينة. وقد تم هذا الزواج في 30 سبتمبر 1912.

كتب على هامش هذه الشهادة تنويه يقول: يعترف الممتثلون أنهم وضعوا إلى الوجود طفلا من جنس أنثى في 6 أوت 1901 بنوميا. وهو مسجل في سجلات المدينة المذكورة تحت اسم ڤاليت سوزان مولودة ڤاليت أوجين من أب مجهول». وبهذا فقد كان للمقراني بنت سنة 1901 وبذلك فقد وصل قبل بداية القرن.

الوثيقة الثانية التي أرسلت إلي تتعلق بميلاد مقراني بن سعيد فاطمة فرانسواز المولودة في 16 أوت 1918.

أما الوثيقة الثالثة فهي تتعلق بميلاد مسعودة مقراني بن سعيد بتاريخ 15 فيفري 1921. وشهادات الميلاد هذه وعقد الزواج كلها مسجلة في بوراي. وقد توصلت بعد بحث دام ثلاثة أيام إلى حفيد المقراني بن سعيد؛ واسمه عبد القادر خليف المولود في 18 أوت 1932 إبن محمد بن علي خليف وعيشة (عائشة) لويز مقراني بن سعيد.

وهكذا فإن المقراني الذي أبحث عنه كانت له بنت أخرى مولودة في 1916. وهي التي عادت إلى البلاد رفقة أبيها وزوجها وأبنائها الأربعة، بنتين وولدين.

وقد شرح لي عبد القادر خليف أن كل العائلة قد وصلت إلى البلاد في 1937، وليس في 1936. كما أعلمني أن العائلة عندما عادت آواها

ابراهيم بن الطاهر الذي كان رئيس قبيلة جده مقراني بن سعيد، وهي قبيلة غمرة . كما أفهمني أن مقراني كان اسما وليس لقبا.

وعندما كنت أنطق اسم القبيلة رمرة صوبني اهل البلد شارحين أن اسم القبيلة غمرة وليس رامرة.

والكل يعرف أم خليف عبد القادر، لأنها عايشة الرومية. هذه المرأة كانت شجاعة جدا فقد تزوجت صغيرة برجل من مواليد 1860 . وعند عودتها إلى غمرة كانت عايشة لويز أما لأربعة أطفال وبعد سنتين من ذلك توفي زوجها في سن 79 تاركا إياها أرملة في سن 23 وعلى عاتقها عول كل العائلة في محيط يواليها العداء لأنها كانت دائما عايشة الرومية[1]. لحسن حظها فانها ستعيد الزواج.

وسكان بلدية الحاجب وهي المركز الرئيسي لقبيلة غمرة يعرفون قصة ابن عرشهم. لقد كان رجلا عاديا يحيا حياة شبه رحال؛ وكان يعيش على تربية الغنم والجمال كما كان يحب الخيل وله بعض الفلاحة في منطقة بسكرة. وكغيره من أفراد هذه القبيلة فإنه كان متمردا نوعا ما على السلطة الفرنسية وعلى ممثلها بن ڤانة.

ودون إطالة فإن مقراني، إبن سعيد بن مسعود، كان رجلا بدون تاريخ يذكر حتى تلك العشية التي استقبل فيها صديقا من منطقة طولقة. وكان لهذا الأخير قضية مع أحد الغمريين الذي كان أهانه بسبب قضية سرقة بستان والله أعلم. وقد أتى هذا الغمري لتصفية حسابه فقتل الرجل فكان أن حكمت السلطات على مقراني بن سعيد بدلا منه، هذا المقراني الذي لم تكن له أية علاقة مع زعيم الانتفاضة، فهو في 1871 كان ما يزال طفلا بعد.

(1) الرومية اسم يطلقه العرب على المسيحيين. «حسب القاموس الفرنسي لاروس».

وعندما وصل إلى المنفى فإنه قد كان له حظ في الصدفة حسبما روى بعد عودته إلى البلاد. فقد حضر جوا خاصا عندما رأى منزلا يحترق. وقد بدا له الناس ضائعين أمام هذا المشهد وعندما علم مقراني بأن بداخل المنزل طفلة صغيرة، قفز تلقائيا إلى الداخل وتمكن من إنقاذ الطفلة من موت كان يبدو محققا.

وكان صاحب البيت، حسب أقواله، شخصية سامية. وهكذا فقد ألغي سجنه.

وعليه فليس له أية علاقة بالانتفاضة التي حركها المقراني في 1871، ماعدا الاسم الذي يختاره الغمريون عادة للمواليد الجدد.

ولو أن مقراني بن سعيد قد بقي في قبيلته، لاختار عند التسجيلات في الحالة المدنية اسما عائليا من بين ونوغي، طلحي أو علوشي.

ولقد عاد في نهاية المطاف ليموت بين ذويه بعد أن قضى ما يفوق أربعين سنة على ظهر الحصوة.

وإني لأشكر كل أولئك الذين ساعدوني على التعريف بهذا الونوغي. وأن أرفع اللبس الذي نتج عن تسميته. وهم كثيرون: أذكر صديقاً من المركز الثقافي الإسلامي بالجزائر الذي صاحبني، والحاج الطيب طلحي وأبنائه جمال وحاج الطاهر، وخليف عبد القادر الذي قال: «إن أبي قد أنقذنا عندما عاد إلى الوطن، لأن أمي قد تعلمت هنا أن تكون مسلمة، إن عودته هذه وكأنها حجة في ثوابها». وأخيرا أشكر كل عمال بلدية الحاجب وكل من قابلته في هذه القرية .

كما ذكرت السيدة مسعودة مقراني، بحكايتها عن العنكبوت (الرتيلة) وشرحت لها الآية القرآنية التي تذكر هذه المسألة. وعند ذكر الجزائر قالت: «إنني اتمنى أن أذهب لزيارة الجزائر؛ فمن ليس به حب

لبلاده؟ لكنني ليس عندي الوسائل.» وعندما سألتها لماذا لم تذهب مع أبيها وأختها أجابت بأنها انتابها الخوف وقد فضلت البقاء في نوميا.

وقد بدت مسرورة جدا بحديثنا، وعندما طلبت منها أن تذكر لي ما تعرفه عن الإسلام، قالت: «الشهادة، والفاتحة» ولكنها لا تمارس.

ودائما بنوميا،وهذه المرة مع سيدة أخرى، بادرت بالاتصال بي للتحدث عن الجزائريين والجزائر. إسمها السيدة سوتيريو المولودة مستورة ياسمين بنت مستورة أحمد. وهي حالة خاصة إذ أن هذه المرأة قد تابعت الدراسة حتى اصبحت ممرضة ، وقد عملت بدراستها وهي الآن محالة على المعاش .

وللسيدة مستورة ثمانية أخوة بين بنات وذكور. وفي العائلة اتفاق على أن يتقاسم الأبوان الأولاد ما بين كاثوليكي كأمه أو مسلم كأبيه. إلا أنه لا أحد منهم يطبق لا هذه الديانة ولا تلك. ويبدو أن أباها من منطقة بسكرة أصلا، وهي مازالت تراسل أقارب لها في الجزائر؛ وقد أرتني رسائل وصلتها من قسنطينة. ويبدو أن عائلتها قد تأقلمت جيدا مع كاليدونيا الجديدة.

وهي متزوجة مع اندونيسي، كما أن إحدى أخواتها تزوجت تاهيتيا، وأخرى فرنسيا والرابعة إيطاليا. أما إبناها كاتيا وجون موريس فيعتبران نفسيهما كاليدونيين لا غير.

وقد أفهمتني السيدة سوتيريو أن واحدة من أخواتها تسكن استراليا وقد كان لها الحظ في زيارة الجزائر والتعرف على أهل أبيها، وهذا ما يفسر كونها تستقبل حتى الآن أخبار هؤلاء الذين يسكنون بقسنطينة.

ومن بين أقارب السيدة سوتيريو، قابلت: مستورة أحمد بيير، ومستورة أحمد حمو المولود في 1922، ومستورة عايشة المولودة في 1933.

وقد أشارت لي هذه الأخيرة إلى وجود العديد من العائلات الكثيرة الأفراد، وكلها ذات أصل جزائري وتسكن نوميا كعائلات بن علال، وأرزقي، وميلود، وقدور، و بوسنة، وشطاح إلخ...

ولست الوحيد الذي تحدث مع أبناء المنفيين الجزائريين، فقد أورد أحد الصحفيين الجزائريين الذي تحادث مع إبن منفي آخر: «سعيد لويس بن حميش بن أعراب بن سعيد، وهو أيضا ابن أحد المنفيين المبعوثين من قسنطينة.

لقد أتى أبوه مع قافلة من المسجونيين عندما كان يبلغ من السن العشرين، وكان ذلك عقابا على جريمة قتل لم يقترفها. وقد فعل سعيد لويس كل ما بوسعه ليقنعنا ببراءة أبيه.

وهو يقول إن أصله من بلاد القبائل، ومن منطقة بجاية بكل تأكيد. وهو مزارع وأب لخمسة أطفال، ثلاثة منهم فقط شرعيون ولدوا عن زواج مع كاليدونية واسمهم سعيد، و يمينة، وعايشة.

عندما يبدأ سعيد لويس (الذي مازال من حين لآخر يرطن ببعض الكلمات العربية) في التحدث عن أبيه، ينبعث من نبراته دفق عميق من الحنين: «آه يا ولدي لو أنك رأيت أبي في محياه، لقد كان صَلْبًا، وكان صافيا، عربيا بالغ الاعتزاز بأصله، لقد كان كل العالم هنا بنيساديو معجبا به ويقدرونه. إنه هو الذي علمي أن أكون عربيا، ومسلما وأن أحافظ على التقاليد عند مماته.» وممتلكات سعيد لويس في وادي نيساديو متواضعة: حوالي ثلاثون رأسا من البقر، بعض الخيل، وحوالي مائتي هكتار، وكوخ اتخذه منزلا. وقد بقي ابنه لويس معه ليعمل في الأرض نهاية الأسبوع.

أما باقي الأسبوع فموظف في دار بلدية بوراي في مصلحة الصيانة. والطيب العيفة هو الذي وظفه أخيرا ليحسن من مدخول العائلة .

وكل من الأب والإبن اسمهما سعيد، وإذا كان العجوز يمتطي البيجو 504 (طراز 1970) فإن ولي العهد يتحرك ببي أم دابليو 320 بمحرك حقن. وهكذا... جيلان... ومذاقان... وأولويتان.

ويتحدث الصحفي الجزائري عن أبناء آخرين للمنفيين: «لقاء مع عائلة من الكالدونيين، ما بعد الغد وفي حوالي الساعة العاشرة، أوصلنا أحمد إلى مخارج نوميا وفي اتجاه ماجنتا عند عائلة بوعناني. عرب كالدونيون، أجل، إنهم هنا ولا يمكن حتى عدهم. نعم،... هذه زالحاجةس سعدية، استقبلتنا عند مداخل الأكواخ. كلها متلاصقة وعدم النظافة يشتّم على بعد كيلومترات. دخلنا الحضيرة فقدمنا دليلنا بلهجة من يفتخر: «سلام يا شيخة، لقد جئتك بعربي، عربي ومن الجزائر، عربي حقيقي، صافي، ليس مثلنا نحن الهجناء»، وكان بصوته تودد كبير.

حدقت فيه الشيخة سعدية، ومازالت الدهشة في وجهها. ثم لحقها إلى المطبخ ابنها الأكبر، وهو ضخم البنية، كثيف الشعر وبارز الكرش، بلغ الثامنة والثلاثين. أما رب العائلة الذي تجاوز السبعين فثقيل السمع ولم يتفوه ببنت شفة. لقد تزوجت سعدية في 1940 وأنجبت أحد عشر صبيا ست بنات وخمسة صبيان. أما أبوها عبد القادر بوعناني فأصله من أولاد سيدي يحي، وقد نفي إلى كاليدونيا الجديدة لأنه قتل دخيلا، تطاول على خطيبته.

«حكم عليه بالمؤبد! فبعث به ليتذوق الأشغال الشاقة، هناك في أرض الميعاد، جهنم الشقاة اللومانجية، كاليدونيا الجديدة»[1].

وهناك آخرون قد اهتموا بهذه المجموعة البشرية، فها هنا ماكتبه كاتب آخر: «إن المجموعة العربية والتي مازالت ذات أهمية قصوى

(1) حساني رابح، كاليدونيا الجديدة أمام مصيرها، الثورة الإفريقية، من 5 إلى 11 جويلية 1985.

في أيامنا هذه، مع أنها قد هجِّنت إلى حد معتبر، هي من المجموعات الأكثر قدما في كاليدونيا الجديدة».

«إن المسنين في مدينة بوراي مازالوا يتذكرون عبد القادر بوعناني، الذي كان يضع شاشيته عند ذهابه إلى حفلة الجبانة، في الأيام التي يحتفل فيها بالموتى، فيذبح العجل وتقدم حبات التمر لتصاحب عصير الفواكه واللحم المشوي.

«لقد كان ابن مرابط. وفي الحقيقة فإن عبد القادر هذا قد نفي إلى المعتقل لأنه قتل عسكريا كان قد سرق منه إحدى نسائه(...) وقد أعطى للبلد ثمانية عشر طفلا، كلهم ذوي حدقات سوداء وأعين مشرقية: فاطمة، علي، خدوج، يامينة، حمو وآخرين غيرهم، وكلهم قد تجذروا في المدن الكاليدونية، فارينو، نوڤيل، كاتيرانيون، أو بوراي. لقد كان رجلا شيطانيا هذا الجزائري، كان في مقدوره أن يفقد توازن اثنين من الفحول بمجرد شدهما من الشعر[1].

(1) سينيس جاكلين، الحياة اليومية في كاليدونيا الجديدة من 1850 إلى أيامنا الحالية، باريس، هاشيت، 1985، ص 84.

الفصل السادس
النتائج المستخلصة من هذه الزيارة

أ - الجماعة المسلمة

إن للجماعة المسلمة بكاليدونيا الجديدة أصولاً مختلفة مما يجعل من الصعوبة بمكان توحيدها وتنظيمها، وما يمكن تأكيده هو أنّ كاليدونيا الجديدة تعرف جماعة مسلمة يمثل تعدادها عشرة بالمائة (10٪) من إجمالي السّكان، ويقدرهم البعض بـ 25000 مسلم.

والشيء المؤسف في هذا كلّه أنها متشابهة في العديد من البلدان، فهي بعيدة عن التماسك، والسواد الأعظم لأفرادها يجهل العناصر الأساسية للتعاليم القرآنية. فقد يرتفع عدد من يعتنقون الدّين الإسلامي، غير أن من يواظبون على آداء واجباته يظلون أقلّ عددا، ولعلّ إحدى علل هذا التشتت تأتي نتيجة كون هؤلاء الأفراد قد وطئوا هذا الإقليم في ظروف خاصة كما يمكن القول إنهم يمثلون عدة مجموعات.

المجموعة الأولى: هي من أقدم المجموعات، تنحدر من سلالة المنفيين الجزائريين عقب ثورة 1871 بالدرجة الأولى ثم من تبعهم، وبالفعل فقد استمرت فرنسا في نفي المحكوم عليهم من الجزائريين خلال ما يربو عن نصف قرن. وقد يكون آخرهم من فترة ثورة الأوراس لعام 1916.

وعاش أبناء هؤلاء المنفيين الذين يعتبرون كاليدونيين متفرقين على مراكز شتى من جنبات الجزيرة، يعيشون فيها على حرف مختلفة وكانت

العاصمة نوميا تضم عدداً هائلا منهم، ولكن التمركز الأكبر لهم كان في محيط بوراي وبوغن ونساديو وهي في مجملها منطقة عرب.

كم يبلغ عددهم؟ ليس هناك من يمكنه إعطاء أرقام مضبوطة، فبعضهم يقترح معدلاً يتراوح بين عشرة وخمسة وعشرين ألفاً، ما الذي استبقوه من الإسلام؟ فقط الشيء اليسير، كالأسماء العربية كحليمة أو يمينة أو زهرة أو عبد القادر أو الطيّب أو أحمد، لكن الحظّ لم يسعفهم ليتعلمّوا دين آبائهم، فكبار السِّن لم يزالوا يتذكرون الأعياد الدينية والشهادة ويقرون بأنهم عربٌ ومسلمون إلاّ أنهم ظلّوا بمعزل عن العالم الإسلامي ولا يعرفون كيف يؤدون واجباتهم.

ومنذ إنشاء جمعية العرب وأصدقاء العرب في عام 1966 تهافتت الغالبية العظمى لتعلم أداء الواجبات الدينية.

وكان معظم أولئك الذين جمعني وإيّاهم لقاء شخصي في نوميا أو في بوراي لاسيّما فئة الشباب منهم يرغبون في تعلّم اللّغة العربية حتّى يتسنى لهم إلمام أكبر بتطبيق الإسلام، غير أن هذا المسعى الذي يمكن تصوره له قطعا أثر عرقي في بحثه عن الجذور أكثر من كونه اهتماماً دينياً خاصاً.

المجموعة الثانية: بدأت رحلة الأندونيسيين نحو كاليدونيا الجديدة مع مطلع هذا القرن بعد توقيع اتفاق بين القوتين الاستعماريتين الفرنسية والهولندية، وقد كانت أندونيسيا حينها تئن تحت وطأة الاحتلال الهولندي. وقد قدم سكان جزيرة جاوة إلى كاليدونيا الجديدة قصد العمل في ميدان الاستغلال المنجمي والتحق بهم آخرون في العام 1931 بينما استقدم الباقون عائلاتهم في آخر المطاف، غير أنّ هذه لم تكن حال المنفيين الجزائريين الذين لم يستطيعوا الحفاظ على همزة الوصل بينهم وبين أصولهم، فكانوا ضحايا غير مباشرين للإبادة العرقية.

يصل عدد الأندونيسيين إلى عدة آلاف، وقد غادر بعضهم الجزيرة مع استقلال بلدهم الأمّ، ولكن العدد لم يتأثر فظل مرتفعا.

عدد ثلث أحفاد المنفيين الجزائريين يرتفع - حسب زيارتي ووفقا لتقدير إحصائي - إلى 5319 ثلاثة أرباعهم ذوو جنسية فرنسية، ويعرفون تحت تسمية ناوولي، وهم سكان الإقليم الأصليين. بمرور الوقت فقدوا هم بدورهم تطبيقات الإسلام حتى وإن استمسكوا ببعض العادات أو الأعياد الدينية، وإن حدث أن أعلن 400 إسلامهم، فإن القليل منهم فقط هم الذين يطبقونه.

ويُعدُّ الأندونيسيون، على خلاف غيرهم من ذوي الأصول العربية أكثر انتظامًا، ويراقب نشاطهم في الحقيقة ممثل من أبناء جلدتهم، ونجد في نوميا قنصلية أندونيسية، وقد علمت أثناء محادثاتي هناك، أن العديد من القناصل قد توالوا على العاصمة نوميا.

فكان أوّلهم وهو الذي فتح القنصلية، من خريجي جامع الأزهر الشريف، ويتقن اللغة العربية، فكان يسهر بنفسه على أن يؤُمّ الناس بنفسه في صلاة الجمعة.

ولمّا استبدل به قنصلا آخر، كان هذا أكثر تشدّداً منه، إذ طالب مواطنيه بالحضور لصلاة الجمعة في مقر القنصلية، كما أصرّ أيضا على أدائهم صلاة التراويح خلال شهر رمضان المعظم، لقد كان مواظبًا على أداء فرائض الشريعة، وطلب من الأندونسيين اتباع سيرته.

وأخيراً جاء الثالث الذي كان متزوجًا من امرأة مسيحية، ولم يهتم البتة بالمسائل الدينية، فكان حضور الأندونيسيين إلى القنصلية مقصوراً على الأعياد الدينية أو الوطنية، فكان الناس يقصدون النادي فقط من أجل الاحتفال والرّقص، ولم يتعدّ انشغاله المراسيم الاحتفالية إلى الاهتمام الدّيني.

وكان معظم السكان يتمثلون في عمال المناجم أو الفلاحين شأنهم شأن العرب، فهم إذن ذوو مستوى تعليمي ضعيف، مع استثناءٍ حالة واحدة هي تلك التي نجح فيها شاب في تحصيل مستوى دراسي استكمله بفرنسا ليعود إلى وطنه متأبّطًا شهادته كطبيب.

وعليه، فقد كان الأندونيسيون أوفر حظًا لتحقيق وحدتهم الدينية لأنهم منذ عام 1982 وبفضل الدعوة الإسلامية الليبية استقبلوا رجل عبادة يتحدث بلسانهم فضلاً عن اللغتين العربية والفرنسية، ويتعلق الأمر بالكمبودي الذي التقيته خلال اجتماعي الأول لدى وصولي إلى نوميا، وقد استفاد مسؤولو هذه الجماعة من مواعظ هذا الكمبودي أيما استفادة.

المجموعة الثالثة: اليمنيون. إن كاليدونيا الجديدة شأنها شأن أي جزيرة مهمة تستقبل العديد من البحارة، وفي خضم هؤلاء وصل اليمنيون، فاستقر منهم عدد، بعضهم من أجل العمل في المناجم، وبعضهم الآخر من أجل التجارة.

وإن كنا لا نعلم عددهم، فالشيء الأكيد هو أن حيًّا يمنيا يوجد في نوميا، وفي هذا الحي بالذات تقطن السيدتان مسعودة مقراني ومسعودة غالب، وكلتا السيدتين سليلة منفيين جزائريين، وكلتاهما ترملت من زوجين يمنيين، ويعتبر حاليا كل هؤلاء السكان كاليدونيين، وفي سياق زياراتي لنوميا، قابلت شيخا يمنيا كان يعيش في مصلّى شارع ميرانو عند واد المعمرين وهو أب لعدد من الأطفال أضحوا كباراً ولايزال والدهم يعيش بالمسجد غير أننا لا نستطيع أن ندلي بأي رقم عن عدد الكاليدونيين من أصل يمني.

المجموعة الرابعة: تتكون هذه المجموعة من عدة عائلات يعود أصلها إلى جيبوتي، ونعني بها مثلا الصوماليين واليمنيين الذين كانوا

يعيشون بسايغون عاصمة الفيتنام الجنوبية والذين هجروا البلاد قبل توحيدها، ولقد وقع اختيارهم على جزيرة كاليدونيا لأنهم يعتقدون أنها إقليم فرنسي في ما وراء البحر، ولأنهم كانوا جميعًا ذوي جنسية فرنسية فإن استقرارهم بنوميا لم يطرح مشكلا بالحدة نفسها التي طرحها بالعاصمة.

وتتباين هذه المجموعة بوضوح عن المجموعات الثلاث الأخرى، ومعظم من ينتمي لهذه المجموعة كانوا يعيشون في سايغون حياة إسلامية طوعًا، كان كثير منهم مؤديا جيّداً للواجبات الدينية، وكان منهم اثنان على دراية واسعة بالمسائل الدينية، وكان كلاهما كفؤا ليؤمّ الناس للصلاة فضلا عن كونهما يتمتعان بمكانة اجتماعية مرموقة قبل قدومهما إلى كاليدونيا الجديدة، لقد أتمّا شعائر الحج بمكة المكرمة واستمرا في الاهتمام بالمسائل الدينية.

إن أفراد هذه المجموعة الذين عمدوا بعد استقرارهم إلى تنظيم الجماعة المسلمة، سيّما في نوميا، وقد خلقوا من أجل إنجاح ذلك اتصالات وأقاموا علاقات مع مسلمي البلدان المجاورة، كزيلندا الجديدة، وأستراليا وجزر فيجي وخاصة ماليزيا، وفي هذا البلد بالذات وبفضل المنظمة الإسلامية التي أنشأها الفقيد تانكو عبد الرحمن، الأب الرّوحي لاستقلال ماليزيا، ضاعف أفراد المجموعة اتصالاتهم مع المؤسسات الدولية مثل صندوق التضامن الإسلامي تحت وصاية منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، أو رابطة العالم الإسلامي الكائن مقرها بمكة المكرمة أو الدعوة الإسلامية بطرابلس.

وليس من المبالغة في شيء القول أن زعماء هذه المجموعات كانوا هم العناصر الأساسية لإعادة إحياء الإسلام بكاليدونيا الجديدة.

وبالإضافة إلى المجموعات المذكورة، فإننا اكتشفنا عناصر أخرى قَدمَت بعد 1962، تتمثل بالدرجة الأولى في نحو عشرة من الحَرْكَة جاءوا كلاجئين إلى هذه الجزيرة البعيدة. كانوا يعيشون لوحدهم ويمارسون حرفًا مختلفة. شخص من هذه المجموعة كان مثيراً للمشاكل، إذ تسبّب في مشاكل للأعضاء المتزعمين لهذه الجماعة المسلمة. كان هذا الشخص ضابطًا سابقا في الجيش الفرنسي، فهو نقيب متقاعد من أصل جزائري قَدِم للعيش في نوميا.

بالنسبة لمدينة صغيرة كهذه، فهو يمثل شخصا مهما، لذا أراد أن يكون له شأن بها، فانضم إلى مكتب جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة، وبما أنه كان ذا مَلَكَةٍ في الكتابة فقد بدأ بمراسلة المؤسسات الإسلامية الدولية المختلفة. وقد أدى نشاطه هذا إلى انقسام الأعضاء المسيرين للجمعية، مما جلب أيضا اهتمام السلطات المحلية وتدخل القضاء.

بالإضافة إلى هؤلاء الحَرْكَة القدامى، كان هناك مغامرون آخرون خاصة الشباب، رجال ونساء جزائريون أو تونسيون أو مغاربة، وكلهم على العموم بعيدون كل البعد عن اتمام الواجبات الدينية، لكن في وسط متكون من أشخاص مختلفي الأصول العرقية والدينية، كان عدد منهم يحاول مساعدة النقيب الحَرْكي حتى يصبح ممثلا للإسلام رغم أنه لا معرفة له به ولا يطبقه أبدا.

خلال مقامنا بنوميا وجدنا كذلك أوربيين مهتدين إلى الإسلام، بل حتى من ذوي أصل مسلم، كرجل الأعمال اليوغوسلافي الذي يعرف الإسلام حق المعرفة، ويفعل كل شيء من أجل وحدة المسلمين. ولقد كتب عنه الصحفي الجزائري الذي زار نوميا فقال: «هذا اليوغوسلافي ليس كاليدونيًا (...) إنه يبقى يوغوسلافيًا مسلمًا».

وهناك أوربي مسلم آخر، إنه فرنسي اهتدى إلى الإسلام منذ ثلاثين سنة، جاء من المغرب الأقصى. يشارك في كل اجتماعات جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة منذ إنشائها، أي منذ أن بدأ المسلمون في نوميا يهتمون بالإسلام، وهو محافظ على صلاة الجمعة دائما.

انخرط في الجمعية، وكان يريد أن يصبح عنصرا فعالا فيها، لكن القائد الحَرْكي الذي قام بالدسائس حتى يتولى إدارة الجمعية رفض أن يتدخل في المناقشات مهتد جديد لا يعرف الإسلام.

فلنحاول التعرف على هذه المنظمات الإسلامية حديثة النشأة.

ب - المنظمات الإسلامية:

1 - جمعية العرب:

كانت أول جمعية أسست بكاليدونيا الجديدة، هي الجمعية التي أنشأها وقادها منذ تأسيسها سليلو المنفيين الجزائريين، وكانت تهدف إلى الحفاظ على العادات والتقاليد وصيانة مقابر العرب في نوميا ونيساديو، والعمل من أجل بناء مسجد بنوميا، وتوثيق عُرَى الروابط بين العرب.

فهل حققت أهدافها؟ بالنسبة للملاحظ الذي اكتشف حديثا وضعية الإسلام في هذا البلد، فإن هذه الجمعية لم تحقق سوى النقطتين الأولى والأخيرة من أهدافها المنشودة.

لكنها لم تستطع العمل حتى يتسنّى لأعضاء الجماعة المسلمة التعرف على آباء سليلي المنفيين، لأنه ما من عضو في الجمعية تلقى تربية أو تكوينا في الديانة الإسلامية، لم يكن أحد منهم ممارسا للشعائر الدينية، ولم يتلقوا أية مساعدة للتعرف على العالم الإسلامي، ولا حتى على الجزائر بلد أجدادهم.

قيل لنا إن رئيس الجمعية قرر تنظيم رحلة إلى الجزائر لعدد لابأس به من سليلي المنفيين من العرب، كما تم تعيينهم، لكنه لم يتمكن من تحقيق مشروعه، لأن استئجار سفينة ليس بالأمر الهيّن بالنسبة لجماعة بقيت فقيرة ماعدا بعض الحالات الاستثنائية، فضلا عن الأزمة التي واجهتها المنطقة.

لم تهتم المنظمات الإسلامية الدولية بمسلمي هذه الجزيرة البعيدة في المحيط الهادي، إلاّ بعد وصول اللاّجئين من سايغون وتأسيس جمعية مسلمي كاليدونيا.

2 - جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة:

تأسست سنة 1975، قادها منذ البداية اللاجآن القادمان من سايغون واللذان قد تم ذكرهما سلفا، ولقد بقيا فيها دائما كعضوين، والجمعية مفتوحة لجميع من يرغب في الانضمام إليها: سليلي المنفيين الجزائريين والأندونيسيين والكاليدونيين، فالقاسم المشترك بين الأعضاء هو الإسلام.

ولقد نجح مسيرو الجمعية في إقامة علاقات مع المؤسسات الإسلامية الدولية الرئيسية إقليمية كانت أم وطنية، كما عرَّفُوا بأنفسهم وقُبِلَتْ مشاركتهم في الندوات أو الاجتماعات الأخرى في جزر فيجي وأستراليا ونيوزيلندا وماليزيا. ويعتبر على الأخص الراحل تانكو عبد الرحمن الأب الروحي لهذه الجمعية الأولى لمسلمي كاليدونيا الجديدة.

وبفضل النشاطات التي قاموا بها، فلقد تلقوا المساعدة من جيرانهم مسلمي جزر فيجي، وكانت المساعدة في بادئ الأمر مادية، وبهذه الأخيرة تمكنوا من الحصول باسم الجمعية على مقر مع ملحقات عديدة، وهكذا تحصلت الجماعة المسلمة لأول مرة على بيتها الخاص، وكان موقعه في العاصمة نوميا، أين أصبحت تقام صلاة الجمعة وتقدم الدروس القرآنية للراغبين فيها.

ثم تلقت الجمعية مساعدة ثانية تمثلت في صك بمبلغ 20.000 دولار أمريكي، وهبها إياه صندوق التضامن الإسلامي. لكن هذه الأموال جلبت للجمعية الأطماع والحسد والنزاع والمشاكل، مما أدى في آخِر الأمر إلى الإنقسام. عاشت الجمعية كل هذا مع القائد الحَرْكِي.

في 1982 تلقت الجمعية مساعدة أخرى من رابطة العالم الإسلامي الكائن مقرها بمكة، والتي عينت شابا تونسيا يتحدث الفرنسية، كان قد تحصل حديثا على شهادة ليسانس من الجامعة الإسلامية بالمدينة، فهو إذاً أهل لتولي منصب إمام وتوفير تعليم ديني لمسلمي كاليدونيا الجديدة من صغار وكبار. وبما أن هذه المؤسسة هي التي عينته وتكفلت به كليا، فسيلتحق بنوميا ليكون تحت تصرف جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة.

وُعِدَت الجمعية بمساعدات أخرى، ويرجع الفضل دائما لرجلي الأعمال هذين، الأول من أصل يمني والثاني صومالي، مؤسسا الجمعية، لكنه للأسف ستواجه الجمعية مشاكل عويصة.

3 - رابطة مسلمي كاليدونيا الجديدة:

أسس هذه الرابطة أندونيسي يعيش في نوميا منذ سنين طوال، مسلم يؤدي الشعائر الدينية، ويحظى باحترام الجميع.

يدير الرابطة مكتب متكون من ستة أعضاء، ثلاثة رجال وثلاث نساء كلهم من أندونيسيا.

كان رئيس الرابطة إنسانا طيّبا بإجماع الكل، لكنه للأسف لا سلطة له، إذ لم يكن للرابطة مقر وكان أعضاؤها يجتمعون بمنزل الرئيس.

بدا أن الرابطة مستقلة، لكنها لا تملك الإمكانيات للقيام بنشاطات لصالح أعضائها. وكان رئيس الرابطة عضوا كذلك في جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة، لكن بالنسبة للأندونيسيين ما كان يجب أن تكون المنظمة الوحيدة.

4 - جمعية «الدعوة الإسلامية»

تأسست بطلب من القنصل الأندونيسي بنوميا، وهي مفتوحة لجميع سكان كاليدونيا الجديدة من الأندونيسيين، سواءً أكانوا مواطنين فرنسيين أم أندونيسيين.

أغلب أعضاء هذه الجمعية لا يعرفون عن الإسلام إلا النزر القليل مثل سليلي المنفيين الجزائريين، ولا يؤدون الشعائر الدينية، لكن معظمهم كان يستفسر عن الإسلام ويهتم به.

يبدو أن تأسيس هذه الجمعية نتج عن تلقي قنصل أندونيسيا خبراً من سفير أندونيسيا بجدة مفادُه أن البنك الإسلامي للتنمية قد خصص إعانة مالية تقدر بمليون دولار لصالح المسلمين الأندونيسيين في كاليدونيا الجديدة وسورينام.

دَعَا القنصل في شهر أوت من عام 1983 مجموعة من الأندونيسيين المقيمين بنوميا، فرنسيين كانوا أو محافظين على جنسيتهم الأصلية، ليطلب منهم تأسيس هذه الجمعية من أجل «الدعوة الإسلامية»، وتسجيلها وتكوين ملف تقني لبناء مسجد في نوميا بعد الحصول على الاعتماد، وأخيرا إرسال الملف فور استكماله إلى البنك الإسلامي بجدة للاِستفادة من هذه الإعانة المالية.

ولقد تلقيت أنا شخصيا- بصفتي مسؤولا عن هذا النشاط - ملف هذه الجمعية في شهر ديسمبر 1983، الذي كان يهدف إلى إنشاء مسجد للجماعة المسلمة الأندونيسية بنوميا.

بلغ الكشف التقديري 714,437 دولار أمريكي، وبما أن البنك الإسلامي للتنمية لم يكن يهتم بتمويل بناء المساجد، فإن الطلب لم يتلق أي رد.

الجمعية الثانية لمسلمي كاليدونيا الجديدة:

لم تجعل الإدارة أي مشكل عند تلقيها طلب الاعتماد من الجمعية الجديدة رغم أنها تحمل نفس إسم الجمعية المؤسسة في عام 1975 المعروفة في العالم الإسلامي الذي تلقت منه إعانات مالية، مادية ومعنوية. من أجل هذا قرّر أحد الذين شغلوا منصب نائب الرئيس في الجمعية الأولى تأسيس جمعيته الخاصة بعد حدوث مشاكل مع زملائه. ولتكوين مكتب الجمعية وتحضير الملف للإدارة، كان يكفي إيجاد خمسة شركاء.

شكل النقيب المتقاعد للجيش الفرنسي –والذي سبق وأن تحدثنا عنه– فريقه المتكون من:

شاب جزائري يعيش في نوميا منذ زواجه مع كاليدونية التقاها بفرنسا، يصبح فيما بعد نائب الرئيس.

شاب وشابة مغربيين شغلا منصبي كاتبة الجمعية وأمين الخزينة، وشاب تونسي ملاكم وخليلة الرئيس أكملا عدد أعضاء مكتب الجمعية.

كتب الضابط المتقاعد، مستعملا في ذلك لقبه كضابط في الجيش الفرنسي وتمكنه من الكتابة، فراسل مختلف المؤسسات الإسلامية الدولية للحصول على:

– مساعدة مالية، وصك محرر، وكتب دينية، وأيضا دعوة مع التكفل الكامل للإقامة بمكة أو الكويت أو دبي أو حتى كوالالمبور لشرح وضعية المسلمين في كاليدونيا الجديدة لهذه العواصم.

اكتشف الوضع، وفهم المعني بالأمر أن لعبته ستفشل، خاصة وأنه لا يؤدي الشعائر الدينية، ولا يربطه شيء بالإسلام إلا الإسم الذي يحمله.

زيادة على قضيته مع القضاء المحلي ضد الجمعية الأولى، انتهت بإعدام طموحاته.

الفصل السابع

ماذا في وسعنا عمله من أجل أبناء المنفيين الجزائريين ؟

ماذا في وسعنا عمله من أجل هؤلاء المنسيين «سواء في فرنسا وهم من مواطنيها أو في الجزائر موطنهم الأصلي؟».

الجزائر في بداية الأمر... دامت إقامتنا بكاليدونيا الجديدة من 29 سبتمبر إلى 2 أكتوبر 1984 وحددت سلسلة من الأعمال.

إن المشكلة التي ارتأينا حلها أكثر استعجالا تخص العلاقة التي تربط بين أبناء المنفيين الجزائريين والجزائر، البلد الأصلي. كيف لا نتأثر لدموع هذا الشيخ العربي فرانسوا.

زأنا لست فرانسوا، أنا ميسوم، كان خيرا لي لو ذهبت إلى إفريقيا عوضا عن أمريكا...كم أتمنى لو أرى إفريقيا قبل أن أموت».

وحتى مسعودة المقراني التي «ترغب هي الأخرى في الذهاب إلى الجزائر، فمن لا يحب بلاده؟ لكنني لا أملك الموارد». حال عودتي، ألححت على السلطات الجزائرية في هذا الشأن.

وأشير هنا إلى أنني خلال إحدى زياراتي قبل بضعة أشهر، كنت قد أعددت ملفا مستوفيا حول المسألة وأحلته على مختلف السلطات التي قد تهتم بالأمر.

التدخلات لدى السلطات الجزائرية:

في 6 أكتوبر 1984، وجهت الرسالة التالية لأذكّر بملفي السابق: زمثلما كان مقررا، قضيت أربعة أيام بكاليدونيا الجديدة رفقة أبناء المقراني ورفاقه المنفيين خلال القرن الماضي. قف، إنهم كثيرون جدا وفخورون

بانتمائهم إلى الجالية المسلمة والجزائرية رغم البعد والابتعاد عن الجذور. قف، بمناسبة الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة، أقترح دعوة العربي ميسوم ومسعودة المقراني المولودين في سنتي 1905 و1921 وكذا علي بن أحمد وعبد القادر بوفناش. قف، لم ينس الأولاد اللغة العربية وبإمكانهم التحدث بها.[أما] الأخران فمنحدران من الجيل الثاني لكنهما جد متعلقين بأصلهم وبالإسلام وهما عضوان نشطان في جمعية العرب وجمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة. أما عن السفر، فهناك رحلتان شئيا نوميا – باريس يومي الثلاثاء والخميس. أبقى تحت تصرفكم لكل معلومات إضافية.»

جاء الرّدّ عن طريق التيلكس كذلك يوم 22 أكتوبر.

«تبعا لبرقيتكم المؤرخة في 6 أكتوبر 1984، ننهي إلى علمكم بأننا قمنا بالإجراءات اللازمة وأرسلنا نسخة من برقيتكم إلى المصالح المعنية التي، نظرا لقرب الذكرى الثلاثين للثورة، ستحدد لهم بعد الاحتفالات، تاريخا ستبلغون به. تحيات أخوية.

وقّع هذا النص الأخ عبد الرحمن شيبان، وزير الشؤون الدينية آنذاك – كنت مسرورا بسرعة ردّ السلطات الجزائرية.

رسالة من نيساديو

تلقيت رسالة مؤرخة في 22 أكتوبر وَرَدَ فيها مايلي:

«على إثر إقامتكم في قريتَيْنَا نيساديو وبوغان، يسُرني أن أرسل لكم هذه الصور التذكارية القليلة لعرب هاتين القريتين».

كان مراسلي يخبرني في رسالته أن أبناء أحد أبطال ثورة 1871 يعيشون في كوني وأن ضريح بطل آخر يوجد بمقبرة نيساديو، ويتعلق الأمر بمحمد والي.

فأجبت على الفور:

«أشكركم جزيل الشكر على ما فعلتموه لتسهيل اتصالاتي مع أولئك الذين أُسميهم: زأبناء الأبطال الجزائريين للقرن الماضي».

«لاشك أن ذلك لا يعني شيئا بالنسبة لكم ذلك أن أباكم ولد في هذه الأرض البعيدة للغاية وقبر جدّكم هناك، فأنتم بذلك كاليدونيون، وأنتم على حق، لكن بالنسبة لي، فالأمر غير ذلك كذلك لأنني في بلدي، أنا وأبناء جيلي وكذا الأجيال الموالية نقوم بالتعرّف على القبور ونجعلها تُحدّث بأسرارها، قبور الذين ضحوا بحياتهم لتكون جزائرنا حرة، عربية مسلمة، كما قال الإمام عبد الحميد بن باديس في سنة 1930 أمام أولئك الذين كانوا يتحدثون عن زجزائر فرنسية»:

«الجزائر بلادي،

العربية لغتي،

الإسلام ديني».

«لاحظت منكم أنكم اخترتم السبيل الأحسن ذلك الذي يجعلكم تدركون المعارف وتتحكّمون فيها بحفظ اللغة العربية، لغة جبريل لتبليغ رسالة الله الأخيرة إلى البشرية على لسان خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم.

«رأيت أنكم تبذلون جهودا كبيرة، جزاكم الله خيرا».

«بخصوص الزيارة إلى الجزائر، لقد قمت بالواجب وتلقيت جوابا إيجابيا».

التقرير عن المهمة

يجب تحرير تقرير يضم الملاحظات والتوصيات على إثر كل مهمة.

حرّرتُ إذا تقريري عن مهمتي في كاليدونيا الجديدة وأودعته لدى ديوان رئيس البنك.

بعد دراسته لهذا التقرير، طلب مني الرئيس إحالته على لجنة تدرس جميع جوانبه وترى إذا ما كان الوضع السائد في هذا الإقليم يسمح بتدخل مؤسستنا.

بالفعل، الوضع السياسي في حالة غليان حسب وسائل الإعلام، أما أنا، فأعترف أنني لم أحاول إطلاقا دراسة هذه المسألة في بعدها السياسي لشدة تحمسي بالأحداث. فالنؤجل إذا المشروع إلى وقت أنسب. هذا ما كتبته لمراسلي الوفي.

«بخصوص تمويل المشاريع، أنا في عجز تام بسبب الأحداث التي تجري عندكم. تحتل كاليدونيا الجديدة صدارة الصحف وتتناول يوميا القنوات التلفزيونية في العالم كله موضوع جزيرتكم.

«أنا مضطر لتعليق مشروعي في انتظار وقت أنسب أرجو ألاّ يطول علينا إن شاء اللّه».

كنت بالتالي شديد القلق بخصوص الأحداث في كاليدونيا الجديدة وبحاجة إلى معلومات تأتيني من داخل البلاد ويعطيني إياها شخص يعيش تلك الأحداث ويمكنه إفادتي برأي موضوعي.

ماذا يجري في كاليدونيا الجديدة ؟

لم أنتظر طويلا قبل أن تأتيني أخبار تقول أن «بوراي كانت لمدة ثلاثة أشهر مشهد هيجان سياسي مع اليمين المتطرف». يجب الإحتراس من التجاوزات والسهر على تفادي المواجهة. لا أعرف إن كان هذا سيستغرق وقتا طويلا. مطالبة السكان الشرعيين باستقلال البلاد والأغلبية البيضاء التي ترفض التفاهم؛ نحن إذا بين كتلتين، البيض الممثلون للأغلبية في حزب RPCR، ثم تيار ؤآؤ عاصمي، ويمثل المصالح الكبرى والأثرياء.

«ما يقارب مائة وخمسين عائلة تقابل الـ F.L.N.K.S، وهو تيار متشدّد تحرُّري، وهناك من يمثلون الوسط، وهم المعتدلون الذين يرون أن الحوار يبقى سبيل الحكمة، هو الـ K.L.S و U.L.D. وتبقى مكانة العرب في هذا الإقليم مرهونة بتسوية هذه المشكلة».

بهذه الرسالة، اطلعت على رأي أحد أبناء البلد الذي عاش الأحداث وهو قريب من مختلف الدوائر. كما أعطاني مراسلي الآخر كذلك أخبارا وردّا على رسالتي:

«إن رغبتكم في تعليق مشروع بوراي تبدو لنا أمرا في غاية الحكمة نظرا للجو السياسي المضطرب السائد حاليا في كاليدونيا الجديدة بالنسبة لغير الكاناك مثلنا».

وبشأن المشكلة التي تشغل باله، فهو يكتب: «نحن غير راضين عن أستاذ العربية. قال لنا أنه سيأخذ عطلة في شهر نوفمبر لكنه لم يرجع. وهو يطلب منا أن ندفع له مصاريف النقل. إنه إبن المدينة ولا يستطيع التكيف مرتان في الأسبوع، هذا لا يكفي. إنها خيبة أمل لدى عرب نيساديو إذ لا يمكنهم تعلم العربية والدين.

كان لشبابنا عن الذهنية العربية فكرة مغايرة تماما فقد أصغوا للشيوخ الذين أعطوهم رؤية أخرى لحضارتنا. لهذا السبب فهم يلحّون على أن يوفد إليهم أستاذ جزائري يكون أقرب إلينا وإلى تصورنا لآبائنا».

مدينة الجزائر، مكّة الثُوّار كما كان يقول عليها حاكم غينيا بيساو، الفقيد أميلكار كابرال، كان لا يمكنها أن تبقى دون إكتراث وهذا مادفع بالمسؤولين إلى إرسال ممثل الصحافة الجزائرية إلى كاليدونيا الجديدة كي يتقدم للقُراء الجزائريين فكرة عما يجري في هذه المنطقة.

لقد وصل الصحفي الجزائري إلى نوميا يوم 16 ماي 1985 وسيقضي عدة أيام في الكايو ويزور مناطق عديدة. سيترتب عن هذه الزيارة سلسلة مقالات تنشرها الأسبوعية «الثورة الإفريقية» في أعدادها من 28 جوان إلى 4 جويلية، من 5 إلى 11 جويلية ومن 12 إلى 20 من نفس الشهر.

لقد أقبل كل ممثلي الكاناك حين علموا بوجود صحفي جزائري.. صحفي جزائري بكاليدونيا! الحمد لله! جاء الكُلّ إلى هنا ماعدا من الجزائر، إنها لحقا مفاجأة. على كل حال، أرجو أنك لن تسأم فهناك مشكلات كثيرة».

ويحصل صحفينا على رخصة مرور صحفية تحمل رقم 168.

«كنا إذا ممثل الصحافة الـ 168 الذي يزور سلطات كاناكري والـ F.L.N.K.S. أما الـ 167 الآخرون فقد قدموا من كافة جهات العالم، مجملهم من فرنسا والباقي من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان وأستراليا وزيلاندا الجديدة وبلدان عديدة من آسيا والشرق الأقصى وحتى من العالم العربي» [1].

إنشغالات أبناء المنفيين

كان المراسل الذي أعطاني أخبارا عن الوضع العام قد أضاف مايلي: «بشأن جاليتنا العربية، يؤسفنا أن نعلمكم بوفاة ميسوم العربي الذي ووري التراب هذه الأمسية بمقبرة العرب بنيساديو.»

«نرجو، أنا ومسلمي نيساديو، أن تأخذوا في الاعتبار طلبنا. منذ شهرين تقريبا لم يأت أستاذ العربية، لقد أدركتم رغبة مواطنينا في تعلم لغتنا لاسترجاع ثقافتهم.» إنهم يتمنون تدخّلكم ليكون لبوراي ونيساديو

(1) حساني رابح، الثورة الإفريقية، جريدة سبق ذكرها.

أستاذ في اللغة العربية، جزائريا إن أمكن الأمر ومتزوجا لكي يستقر. إن القسم الذي يتسع لثلاثين تلميذا متوفر وجاهز ويمكنه استقبال الصغار والكبار. نتمنى أن يتمكن الأطفال الصغار من تعلم اللغة العربية قبل دخولهم إلى المدرسة الفرنسية».

ذلكم هو انشغال سليلي الجزائريين الذين كانوا منذ بضع سنين فقط يعتبرون كالدوش ومسيحيين واندمجوا تماما في مجتمع البيض.

سنة بعد زيارتي لكاليدونيا الجديدة، ماهو الوضع؟ لقد جاء رئيس جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة إلى جدة وزارني. أخبرني أنه كلّف الأخ اليوغوسلافي لينوب عنه على رأس الجمعية. إنه رجل أهل للاعتبار وكفيل بتقديم الخدمات. بخصوص مواطنينا، دائما نفس الانشغال؟ أستاذ العربية؟

«إن جاليتنا متعطشة لاستعادة لغتها وثقافتها. لقد تخلى عنا الأستاذ فهو يفضل المدينة والعيش في نوميا؛ كما أنه لم يعد يرغب في الاشتغال في كاليدونيا الجديدة.»

بخصوص الأحداث، «لقد أظهرت إنتخابات سبتمبر 1985 أن F.L.N.K.S يمثل 80٪ من السكان الكاناك وأن لهذا الحزب الأغلبية المطلقة في ثلاث مناطق من بين أربعة؛ وإن لم تسو المشكلة مع تجيباو فستصعب تسويتها أكثر مع الشبان الثوريين الكاناك».

لقد تلقيت رسائل كثيرة، يجب الردّ عليها. هاهي إحدى أجوبتي بتاريخ 15 جانفي 1986.

ماهو الوضع؟ لقد هدأت وسائل الإعلام. أرجو أن يتم إقرار الحل الذي إقترحته الأغلبية وينتصر السلم. بشأن صديقنا، لا أدري إن كان تسلم تذكرة السفر.

إني أنوي إقتراح منح إعانة مالية لبناء وتجهيز مدرسة تضمن ثلاثة أقسام وقاعة متعددة الاستعمال وسكنًا للمعلم. هل يمكن إرسال وفد لتقييم مشروع نيساديو؟» الآن يكتب إلى رئيس جمعية العرب:

يشرفني أن ألفت انتباهكم إلى مشكلة تعليم اللغة العربية في كاليدونيا الجديدة وعلى وجه الخصوص بالنسبة لجاليتنا في بوراي حيث استقر الكثير من مواطنينا منذ خمسة أجيال الآن.

«نحن نطالب لصالح جاليتنا في بوراي التي تتشكل في معظمها من أبناء جزائريين، بتعيين معلم جزائري يكون متزوجا إن أمكن. ولقد حالفنا الحظ منذ ذلك الحين بمجيء ح. ع وهو متزوج وسيقيم هنا حتى شهر مارس 1986 بما أنه حصل على تأشيرة مدتها ثلاثة أشهر.

«مما سيسمح لجالية بوراي، اعتبارا من هذا الأسبوع، بالاستفادة مجددا من المعرفة التي يزخر بها هذا المعلم الذي سيبقى في بوراي من يوم السبت إلى غاية يوم الخميس مساء. وسيتجه إلى نوميا ليؤمّ الناس لصلاة الجمعة لكونه إماما. لقد بعث أملا جديدا في قلوب إخواننا ونرجو أن يتم تعيين هذا الأخ في بوراي.

«نحن في حاجة ملحة إلى استرداد أصلنا وإتقان لغتنا واكتشاف ثروتنا الثقافية. فلن يتم استرداد ذلك إلا باستعادة جاليتنا للغتها؛ وهنا باستطاعة أستاذنا الجديد إعطاءنا ما نحن في انتظاره منذ زمن بعيد».

نفس المشكلة دائما ونفس الصرخة. إذا كان رئيس جمعية العرب قد أرسل رسالته في 6 جانفي 1986، فإن عمدة بوراي كتب رسالته يوم 23 جانفي من نفس السنة ليقول لي:

«أخي العزيز، أتوجه إليك بأحر التمنيات بمناسبة حلول عام 1986 وأنتهز فرصة سفر قادر لتبليغك هذه الرسالة ملتمسا منك المساندة وحسن الالتفات إزاء معلم اللغة العربية.

لقـد وصـل السيـد ح. ع إلى البـلـد منـذ شهرين تقريبا وساعدته على الحـصول على تـأشيـرة مـدتـهـا ثلاثـة أشهـر وصالحة إلى غايـة شهر مـارس 1986. إن ح. ع لأخ حقا؛ فسرعان ما اهتم بجاليتنا الجزائرية في بـوراي. إنه يسكن غـرفـة هُيئـت مؤقتا في مدرسة نيساديو القديمة، مما يرضيه في الحالة الحاضرة إذ هو بمفرده في كاليدونيا الجديدة لأن أسرته بقيت في البلاد.

«ما نتمناه أنا وأصدقائي هو أن تبذل قصارى جهدك لكي يتم تعيين السيد ح.ع مع عائلته في بوراي. فقد يخدم جاليتنا ويلقي دروسا في العربية.

«إنه يعلم منذ أسبوع ما يقارب عشرين من شبابنا اللغة العربية والثقافة؛ وكلهم ينحدرون من العرب. تُلقى هذه الدروس التي يحضرها كذلك بعض المسنين كل يوم ابتداء من الساعة الخامسة مساء باستثناء يوم الجمعة، يوم الصلاة والراحة. أما أنا، فسأحضرها من الأسبوع القادم بكامل المثابرة والاهتمام طالما تسمح لي بذلك التزاماتي المهنية.

«لقد أرسل الله إلينا السيد ح. ع كنا ننتظر رسولا وها قد جاء».

«أخـي، تصـرف بحيـث يظـل بيننا ممـا يعـود بالخيـر والمنفـعـة على جاليتنا التي هي في حاجة إلى تعلم لغتها ومعرفة ثقافتها وأصلها والتشبع بحكمته ليتاح لنا استرجاع ما فقدناه من جراء الاستعمار. مثلنا اليوم كمثل الأبكم الذي يتشهى الكلام. بإمكانك أيها الأخ العزيز مساعدتنا وإنقاذنا باتخاذ الإجراءات اللازمة كي نتمكن من إبقاء ح. ع وعائلته في بوراي.

« أشكرك مسبقا أيها الأخ على حسن الاهتمام الذي ستوليه لرسالتي وعلى كل ما ستقوم به لصالح جاليتنا العربية في بوراي على الخصوص وفي كاليدونيا الجديدة بصفة عامة. جاليتنا العربية التي ستكن لك دوما عرفان الجميل».

عمرة لحفيد أحد المنفيين

في الرسالة أعلاه، يقول الكاتب: «أنتهز فرصة رحيل قادر لتبليغك هذه الرسالة» ربما وجب تفسير هذا الرحيل.

بفضل المنصب الذي كنت أشغله ومساندة بعض الأصدقاء، نلت من فخامة الأمين العام للجامعة الإسلامية وعدا بدعوة عدد من إخواننا في كاليدونيا الجديدة ومن بينهم قادر، هذا الرجل الذي كدّ ليتمكن أعضاء جاليته من العودة إلى الأصل وإلى دين الله. فتلقى دعوة للقدوم على نفقة هذه المؤسسة وقضاء 15 يوما بالعربية السعودية وآداء العمرة في مكة وقضاء بضعة أيام في المدينة المنورة. وهكذا قدم قادر في نهاية شهر جانفي 1986 رفقة الأخ داود، ذلك اليوغسلافي رئيس جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة بالنيابة. لقد قدم هذا الأخير على نفقته وكنت جد مسرور باستقبالهما ومرافقتهما خلال إقامتهما بجدة وبمكة. في نهاية الإقامة، سلمت قادر رسالة موجهة إلى عمدة بوراي ردا على رسالته.

«أخي العزيز،

أخيرا كان لأخينا قادر أن يحقق أمله. لقد جاء وكان له الحظ في آداء العمرة، أي الحج الصغير إلى مكة. كما زار المدينة المنورة، عاصمة الإسلام الأولى وصلى في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.

«قدمتهما هو والأخ داود للدكتور عبد الله نصيف، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي وتحدثنا عن مسألة أستاذ العربية. لا يطرح هذا أية مشكلة.

«سوف نسعى ليتم تعيين هذا المعلم الشاب في بوراي. لقد كان لي أن أشاهد الشريط وأتتبع طريقته في التعليم، ويبدو أنه بيداغوجي جيد. عليه فقط أن يعد ملف التوظيف العادي.

«إنني متفائل لأن هذا السيد يبدو، وأنتم على صواب، الرجل المناسب. تحيات أخوية.

حال استلامه رسالتي، ردّ عمدة بوراي كاتبا رسالة طويلة هذا جزء منها:

«هاهو ذا قادر يرجع إلى البلد وقد تغير تماما فلقد عاد عليه هذا السفر بالمنفعة وسمح له باكتشاف الإسلام ومشاهدة عالم آخر. إنه راض للغاية ويتحدث بقلب مبتهج عن هذا السفر وعن العمرة التي أداها.

الحج لصالح كالدوش آخرين

لم يكن قادر الوحيد الذي استفاد من السفر إلى مكة؛ فقد أتيحت الفرصة لاثنين آخرين هذه المرة لآداء فريضة الحج، وهما قسمان النياولي، رئيس النداء الإسلامي وطاهر غالب.

إن قسمان من أب أندونيسي. أما طاهر فأبوه يمني وأمه إبنة منفي جزائري: (مسعودة، تلك المرأة التي زرتها في نوميبا وقدمت لي حفيدين علمتهما تلاوة الفاتحة). لقد أصبحا حاجين لأنهما قاما بآداء مناسك الحج في موعدها. ولمعرفة انطباعاتهما، هاهي الرسالة التي بعث بها إلى الحاج طاهر: «مرة أخرى، أشكرك على كل ما فعلته من أجلي. لن أجد أبدا متسعا من الوقت كي أدعو الله أن ينعم عليك بالخير والبركة.

لقد تمكنت من زيارة العربية السعودية وكان لي الحظ في القيام برحلة لم يتمكن أبي من القيام بها. استطعت جلب أحجار وبعض من الرمل وضعتهم فوق قبره لأنه لم يستطع العودة إلى وطنه.

سوف يجده ثانية بين الحصى... وطنه... وطننا... ولأنّه لوطني.

كل ماشاهدته هناك، كل ما فعلته هناك، كل صلواتي هناك... لا يصدق وكان أبي معي.

«لقد أحسست به وكان الله في هدايتنا شكرا وثم شكرا... إني فخور بعروبتي، إني مسلم».

لقد أبيت إلا أن أذكر شهادة شاب كان أبعد من أن يفكر في الإسلام قبل 1984. كان كالدوشا ويسكن كانالا بكاليدونيا الجديدة.

إمام جزائري في نيساديو

شهادة أخرى من قبل عربي من كاليدونيا الجديدة: «يبدو أن الوضع هادئ... بخصوص أبناء المنفيين، يكتب مايلي: «لقد عانت جاليتنا الكثير من الاستعمار. كانت نظرة الفرنسي للعربي دوما نظرة استياء. لقد قاسى آباؤنا وطالما كانت معاملتهم كمعاملة العبيد. وإن تخلص جلهم من كل ذلك، فهذا يعود إلى الشجاعة والثبات وقوة الإرادة في العيش والنجاح التي استمدوها من الله والإسلام، فقدماؤنا كانوا يعرفون القرآن.

«بشأن مجيء وفد، لا يطرح هذا أية مشكلة. بالعكس، سيتمكن من معاينة حاجيات جاليتنا والتطورات التي طرأت منذ زيارتكم... خاصة وعي الشباب والكبار منذ قدوم ح. ع؛ وعى الذين تجاوزوا عشرين عاما معنى الإسلام. فمنذ بضعة أسابيع ترى الشبان يحمدون الله وإنهم يتعلمون الصلاة.

وبدأ القدماء هم الآخرون يتعلمون الصلاة كل مساء بعد عودة قادر.

لقد استجاب الله لدعائنا وأرسل لنا ح. ع لينتصر الإسلام في هذه المنطقة من العالم».

وهكذا تنتهي رسالة مراسلي. الكل يهتم بالأستاذ الجديد الذي يبدو أنه الرجل المناسب لهذه الجالية. هذه المرة يتدخل اليوغسلافي المكلف بالإنابة في جمعية المسلمين: «بخصوص ح. ع، لقد انتهت إقامته في شهر مارس لأن صلاحية تأشيرته انقضت. أقنعته بالذهاب إلى «فيدجي» حيث الناس مسلمون صالحون، مسلمون طيبون.

«رحلنا يوم 11 مارس واحتضنه الفيدجيون على الفور. إنهم جد راضين عنه وعرضوا عليه الإقامة عندهم ليدرس ويؤدي مهمة إمام ويتقاضى أجرا مثل المعلمين الآخرين.

«لكنه يفضل الاستقرار في بوراي حيث سكان هذه المنطقة في أشد الحاجة إليه لأنهم لا يعرفون شيئا عن الإسلام. بالفعل، منذ قدومه تعلم سكان منطقة بوراي الكثير وهم يريدون مواصلة تكوينهم الديني بفضل ح. ع الذي أرسله الله لهم.

«لقد أهدت الجزائر تذاكر الطائرة للمسلمين كي يزوروا البلاد، سيمكن لأولئك الذين لهم أحفاد من عائلاتهم لقاؤهم. ومن بين الذين سيرحلون هناك عيفة الطيب، وأعتقد أن هذا المسعى يعود إلى المبادرات التي قمتم بها وقد كانت لها نتيجة. جزاكم الله خيرا والله أكبر.

« إن كان في وسعكم نيل وعد توظيف ح.ع فالرجاء منكم تبليغي نسخة من عقد التوظيف وإرسال النسخة الأصلية إلى المعني بالأمر عند السيد سياد رسول PO .BOX 9317 ناندي.

«سوف تستعمل جمعيتنا هذه الوثيقة لاتخاذ الإجراءات اللازمة للحصول على تأشيرة الدخول وبطاقة الإقامة».

جماعة من أبناء المنفيين تزور الجزائر

يتناول الأخ داود في رسالته الزيارة إلى الجزائر. فالنتطرق إذن لهذه المسألة. إثر تدخلي، تلقيت من مراسلي برقية مفادها مايلي:« تبعا لبرقيتكم المؤرخة في 6 أكتوبر 1984، ننهي إلى علمكم أننا اتخذنا الإجراءات وبلغنا نسخة من رسالتكم إلى المصالح المعنية التي، نظرا لقرب الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة، ستحدد لكم بعد الاحتفالات تاريخا يتم إطلاعكم عليه».

لم يأتني أي خبر آخر، فالقدر وحده ساقهم في طريقي. في شهر ماي 1986 توقفت بمدينة الجزائر وأنا عائد من مهمة قمت بها إلى بعض بلدان إفريقيا الغربية. جاء لزيارتي أخي أحمد الذي يشتغل في قطاع الثقافة في داخل البلاد، سألته عن تاريخ عودته إلى منصبه فأجابني: «أنا محصور في الجزائر العاصمة لأن إدارتي طلبت مني البقاء لأرافق وفداً سيأتي غدا من كاليدونيا الجديدة». وهكذا وجدت نفسي غداة ذلك في قاعة استقبال نزل الجزائر عندما دخل الوفد. كانت المفاجأة للجميع وطبعا لم يكن يعلم بالمسعى الذي تُوِّج بهذه الزيارة سوى أنا والزوار.

لا أدري ماذا حدث. كنت قد اقترحت وفدا من أربعة أشخاص وأستدعي 14. يتواجد 13 منهم بالجزائر وواحد فقط غائب، هو سعيد بن حميش لأنه مريض ولم يستطع السفر. لقد توفي منذ ذلك الحين، تغمد الله روحه برحمته الواسعة.

استقبل الوفد بحفاوة وتجول من تلمسان إلى عنابة. وكانت لمسعودة الفرصة لأن تحتضن أختها التي لم ترها منذ رحيلها من كاليدونيا الجديدة سنة 1936. خمسون سنة من الفراق؛ سالت دموع كثيرة، دموع الفرحة كما ذكره لي أخي.

شهر مرّ بعد ذلك، يقول لي طيب العيفة أنه وجد عددا كبيرا من أبناء العم والخال وأنه جلب معه كتذكار، شتلة من حدائق العلمة ليغرسها في ضيعته ببوراي. لقد تجولوا كثيرا وعثر العديد منهم على آثار أجدادهم وأقربائهم وبدأ الكثير منهم مراسلات جديدة. أخيرا سقط الجدار الذي كان يفصلهم عن أصولهم؛ إنهم كالدوش، لكنهم في الأصل عرب ومسلمون. بطبيعة الحال، استطعت مشاطرتهم هذه الفرحة والحمد لله. سوف أزورهم الآن في نوميبيا وأنا يراودني الشعور بأنني ساهمت في إعادة جمع أجزاء هوية ممزقة.

زيارتي الثانية إلى منطقة المحيط الهادي

إذا كنت قد توجهت بمفردي إلى كاليدونيا الجديدة في الفصل الأخير من سنة ، فقد سافرت هذه المرة رفقة صديقين واكتفينا بزيارة العاصمة نوميا.

وأدت بنا هذه الرحلة إلى ملبورن وسيدني وكامبيرا وأخيرا إلى بريزبان في أستراليا. من بريزبان، توجهنا إلى أوكلاند بزيلاندا الجديدة ثم نحو نادي، عاصمة جزر فيجي. إن هذه المحطة مهمة لأني التقيت في هذه المدينة الأخيرة بالمعلم الجزائري الذي كثيرا ما حدثوني عنه والذي كان محل عدد كبير من التوصيات. لم أكن في حاجة إلى البحث عنه إذ كان يوجد في لجنة الاستقبال التي كانت تنتظر وفدنا بمطار نادي. تناقشت طويلا مع هذا الشاب الجزائري. من هو؟

اللقاء مع الإمام الجزائري الشاب

التقيت بهذا الشاب الجزائري. هو ابن شهيد؛ وعلاوة على تلقيه تكوينا عاما كلاسيكيا، فإنه حائز على شهادة ليسانس في الرياضيات وله تكوين ديني جيد. فحفظه للقرآن عن ظهر قلب يسمح له بأن يعطي بسهولة تعليما إسلاميا متماشيا مع التعليم الكلاسيكي. ألم يدرس لبضع سنوات الرياضيات والفرنسية بمدرسة خاصة تابعة لبعثة كاثوليكية في أحد بلدان الشرق الأوسط؟ لقد سافر هذا الشاب كثيرا. أولا، إلى بلدان أوروبية عديدة ثم إلى بلدان عربية وأخيرا إلى آسيا، من باكستان إلى أندونيسيا وماليزيا حيث وجهته «جمعية الشباب المسلم» إلى كاليدونيا الجديدة.

لقد تلقى تكوينا عاما جيدا وإضافة إلى إجادته للغة العربية فهو متمكن من اللغة الفرنسية والأنجليزية. وبذلك حل بكاليدونيا الجديدة حيث

تحصل بالمطار على تأشيرة صالحة لمدة ثلاثة أيام والتي تم تمديدها بفضل تدخل عمدة بوراي إلى ثلاثة أشهر. ولقد حظي برضى الجالية العربية في هذه المنطقة. هؤلاء السكان المتعطشون للمعرفة (العلم) وهذا ما يبرر التوصيات العديدة من أجل أن يستقر عندهم. لقد تكلمنا بصراحة وسلمني بعد أن طلبت منه ذلك تقريرا كتابيا يشرح مراحل حياته منذ أن غادر الجزائر، ومدعما بوثائق وشهادات حية، وكذا نسخ من شهاداته وأوراق الحالة المدنية. وهذا لكي أهتم بتعيينه وتتكفل به رابطة العالم الإسلامي. تتكفل هذه المؤسسة بخريجي الجامعات الإسلامية الشباب لتعينهم لدى الجاليات المسلمة لمختلف بلدان إفريقيا وأوروبا وآسيا وأمريكا.

إثر المناقشات التي دارت بيننا خلال اليومين اللذين قضيتهما في ناندي متزودا بالوثائق التي سلمني إياها هذا المعلم الشاب، توصلت أنا أيضا إلى خلاصة مفادها أنه الرجل المناسب حقا وهو الرجل المنتظر.

وعدته إذن بأني سأهتم بتعيينه في بوراي عند عودتي إلى جدة. بعد انتهاء مهمتنا بناندي ركبنا الطائرة في اتجاه نوميا التي تقع على بعد قرابة ساعتين من عاصمة جزر فيجي.

زيارتي الثانية إلى نوميا

عند وصولنا إلى عاصمة كاليدونيا الجديدة، كان في استقبالنا أناس كثيرون وعلى رأسهم طيب العيفة عمدة بوراي، وقادر الوفي وإخوانه من نيساديو دون أن ننسى الأخ داود، رئيس جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة وأصدقاء كثيرين من نوميا. إن عمدة بوراي هو الذي تكلف بإجراءات الشرطة والجمارك بمطار تونتوتة؛ ثم توجهت القافلة المتشكلة من عدة سيارات إلى نوميا التي تبعد عن المطار بخمسين كيلومترا. لقد كان من المقرر أن نقيم هذه المرة بالنوفوتال. كنت أتمنى هذه الزيارة

رفقة عضو مجلس إدارة البنك لأننا كنا مكلفين باختيار المشاريع المحتمل تمويلها في نوميا وكذا في بوراي. لقد درسنا المشاريع المعروضة وأجاب مخاطبونا على أسئلتنا وانتقينا أخيرا تلك التي كانت تبدو لنا أكثر فائدة. وحال انتهاء مهمتنا عدنا إلى جدة.

المشاريع التي عرضت على البنك

عند وصولنا إلى جدة قمنا بتحرير وتقديم تقريرنا مع الاقتراحات. وأدرج رئيس البنك على الفور المشروعين في الاجتماع الأقرب لمجلس الإدارة قصد الموافقة. وهكذا، وافق المجلس بعد النقاش على تمويل المشروعين المعروضين ويتعلق الأمر بمنح إعانة قدرها 200.000 دولار أمريكي لصالح جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة للسماح لها بتأسيس مركز ثقافي إسلامي يتكون من قاعة كبيرة متعددة الاستعمالات وقاعة للصلاة، وأربعة أقسام ومكتبة وسكن، على قطعة أرض تمتلكها الجمعية متواجدة في 13 شارع ميرانو بنوميا.

أما المشروع الثاني فكان لصالح جمعية العرب وأصدقاء العرب، وهو يرمي إلى منح إعانة قدرها 130.000 دولار أمريكي قصد تأسيس قاعة متعددة الاستعمالات وقاعة للصلاة، وثلاثة أقسام ومكتبة وسكن على قطعة أرض منحتها البلدية للجمعية في نيساديو.

لقد تمت الموافقة على هاذين المشروعين على الفور وبفضل نشاط أخينا داود، رئيس جمعية المسلمين بالإنابة، تم إنجاز مشروع نوميا في وقت قياسي. لسوء الحظ، لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لمشروع نيساديو الذي لايزال معلقا بسبب عدم خبرة إخواننا وكذلك عامل البعد (تقع نيساديو على بعد حوالي 180 كلم من العاصمة)، لذلك يصعب إيجاد شركة تقبل التكفل بمشروع بهذا الصغر. تبقى مسألة المعلم الذي ينبغي تعيينه في بوراي.

توظيف الإمام الجزائري الشاب لصالح عرب نيساديو

للوهلة الأولى، تبدو المسألة بسيطة، لقد شهدت الجالية العربية مجيء مرشد يظهر أنه مقبول، يرتضي بالعيش في نيساديو، يمتاز في تدريس اللغة العربية ويتقن الفرنسية إلى جانب ثقافته الإسلامية. وهو يحظى بمباركة كل الذين يولون اهتماما للتربية الإسلامية. يتعلق الأمر طبعا بعبد القادر. ح. الذي التقيت به في نادي (فيجي). خلال لقائنا، كان قد سلمني ملفا كاملا مرفقا بتقرير كتابي مطول عن وضعيته منذ مغادرته للبلاد. مزودا بهذا الملف وبعد نقاش مع صديقي الدكتور صالح السامرائي، قمنا بتوقيع توصية سلمناها مع الملف إلى الدكتور عبد الله ناصيف، الأمين العام للجامعة الإسلامية العالمية التي أعطت موافقتها لرابطة العالم الإسلامي.

طلبنا من ح. ع الرحيل إلى جدة في أقرب وقت لإمضاء عقده واستلام تعيينه في بوراي.

أجاب ح.ع فورا وانتهز الفرصة إذ تحصل على تأشيرة لأداء العمرة في مكة وزار مسجد النبي (صلى الله عليه وسلم). وأخيرا، يمضي عقد توظيف بصفته إماما في بوراي لمدة سنة قابلة للتجديد، فاستلم تذاكر السفر له ولأسرته من مكان سكناه بالجزائر إلى نوميا بعدما يتحصل على تأشيرة الدخول من السلطات الفرنسية إلى كاليدونيا الجديدة.

إن كاليدونيا الجديدة أرخبيل متعدد الأعراق، وهذا الوضع من صنع إدارة الاستعمار الفرنسي السيادية، فمن البديهي أن السلطات تسهر بجد على سيطرة الثقافة الفرنسية. وإنه من الأفضل أن تتجنب السلطات تعزيز مختلف المجموعات العرقية خارج إطار الثقافة اليهومسيحية. ولاشك أن ذلك هو السبب الرئيسي لرفض السلطات الفرنسية لطلب التأشيرة الذي

قدمه ح.ع والذي كان يستجيب لمتطلبات القانون. والحال أن القانون والسياسة يختلفان أحيانا وفي هذه الحالة على القانون أن يتراجع !

أما أنا، فلقد بلغت نسخة من العقد إلى الإخوان في نوميبيا للسماح لهم بالتدخل بدورهم قصد تعجيل إجراءات طلب التأشيرات. عند وصوله إلى الجزائر، اتصل ح.ع بقنصلية فرنسا وبعد أن أقبل وأدبر مرات عديدة، طلبت منه هذه المصالح تشكيل ملف يضم عقده للعمل مترجما إلى اللغة الفرنسية من قبل مترجم محلف. وهكذا، وبعد الاستماع إليه طلب منه تسليم جواز سفره الذي احتفظت به الشرطة. الوداع أيها الحلم، ليس لديه الموارد لمغادرة الإقليم ولا السبل للمطالبة بالتأشيرة، لأنه لم يعد يملك جواز سفر. وفي الأخير إنه في بلاده: ماذا سيفعل؟.

كلمني في الهاتف وشرح لي وضعيته لأساعده في إيجاد مخرج. بعثت له إذن برقية لإعلامه أن إخواننا في نوميبيا قد أخبروني أن سلطات هذه المدينة كانت قد تلقت طلبه للدخول إلى الإقليم وأنه تم قبوله. سوف يمنح بالتالي تأشيراته بسرعة ويلتحق بكاليدونيا الجديدة.

طلبت منه أن يمثل بلاده أحسن تمثيل أمام أبناء المنفيين لكي يجعلهم يكتشفون أصلهم ويرجعهم إلى دين أجدادهم.

أرسلت في الوقت نفسه نسخة من هذه البرقية إلى السيد وزير الشؤون الدينية بمدينة الجزائر، متوسلا إليه أن يساعد ح. ع في الرحيل إلى كاليدونيا الجديدة في أقرب وقت للقيام بهذه المهمة الشريفة.

لقد اهتم برسالتي لأنه تم استدعاء المرسل إليه، انطلاقا من العنوان الوارد في البرقية، إلى الجزائر. وحال شرحه لوضعيته، طلب السيد وزير الشؤون الدينية من المصالح المعنية أن تعيد جواز السفر إلى ح. ع، وهو الذي تم على الفور. غير أن قنصلية فرنسا أجابته بأن طلبه للإقامة في

كاليدونيا الجديدة كان مرفوضا! لم يتردد ح. ع وطلب من قنصلية العربية السعودية تأشيرة لصالحه ولأسرته الصغيرة. وبعد وصوله إلى جدة، تصرفت كي يغير تعيينه. فاختار جزيرة صغيرة بالقرب من كاليدونيا الجديدة. إنه يأبى إلا أن يكون بجانب الأهالي التي تبنته. تدعى هذه الجزيرة تونڤا. إنها مملكة صغيرة تضم مائة ألف نسمة وتقع تحت حماية مملكة بريطانيا وتستعمل فيها بالتالي اللغة الإنجليزية. وأبى إلا أن يلقن تعاليم الدين في هذه الجزيرة التي من جميل الصدف أنها لا تبعد عن نوميا إلا بنحو ساعة.

وبالتالي، سمح له قربه من كاليدونيا الجديدة بزيارة أصدقائه في بوراي في كل فصل لإقامة تدوم 72 ساعة كل مرة.

لم يكن له نفس الحظ، فالكنيسة ذات التأثير الكبير لم تقبل وجوده. هاتفه دائما تحت التصنت، مراسلاته تحت الرقابة، صعوبات كثيرة، منسي من مستخدمه، الذي يتلقى أخبارا من كاهن يدعي أنه مسلم. وهكذا فاستسلم وتوقف عن كل شيء فلم أعد أقدر حتى أنا أن أقدم له المساعدة التي كان بحاجة إليها لأنني عدت إلى الجزائر.

سوف يغادر تونڤا إذن ليستقر في أوكلاندا، تلك المدينة الجميلة المضيافة في زيلاندا الجديدة حيث يكلمني بالهاتف بمناسبة الأعياد الإسلامية. حظ سعيد يا ح. ع في حياتك الجديدة.

وضعية إخواننا في بوراي

سوف أذكر وضعية إخواننا في بوراي بعد سنة 1988، لأنني عندما عدت نهائيا إلى الجزائر في سنة 1987 لم أعد أتلقى أخبارا، إلى أن جاءتني في ذلك اليوم رسالة من رئيس جمعية المسلمين مؤرخة في 2 جوان 1988، اطلعت فيها بسرور على مايلي: «إننا جد مسرورين بكتابة

هذه الرسالة التي نرجو أن تجدك بخير وبصحة جيدة، لقد أنجز مركزنا الإسلامي والحمد لله.

بشأن المركز الإسلامي لبوراي، نحن نواصل المساعي لدى بلدية نوميا لإيجاد مقاول جديد لتنفيذ الأشغال.» بالرغم من مراسلاتنا العديدة، لم يأتنا أي جواب بخصوص تعيين إمامين معلمين، متزوجين بالنسبة لنوميا وخاصة لبوراي. ولهذا السبب نرجو منك السعي إلى تحقيق ذلك.

نرسل لك، أنا شخصيا والجالية المسلمة بأكملها، السلام ونشكرك على كل ما فعلته من أجلنا».

يرسل إليّ رسالة أخرى مؤرخة في 2 غشت 1988 يقول فيها: «إنني في اتصال دائم مع ح. ع الذي لازال يرغب في المجيء إلى كاليدونيا الجديدة وهو يتمنى أن تتدخل لدى الشيخ عباس حتى تقضي حاجته.

إذا اتضح أن هذا المسعى إيجابي سألتمس مدرسا لنوميا ذلك أنه يسر أخ ح. ع كثيرا التدريس في بوراي». إن هذا الشاب الذي كثيرا ماذكرته يدعى في الحقيقة عبد القادر حيداس، المولود في 1958 بمعسكر وابن شهيد. في أواخر سنة 1989، قادر هو الذي أخبرني أن إدارة الأملاك الوطنية توقف إنجاز مشروع بوراي مع أن الإجراءات سارية.

كما انتهى إلى علمي أن الإمام الكامبودي الذي كان في خدمة الجالية الأندونيسية في نوميا لم يتحصل على تجديد بطاقة إقامته وأنه اضطر إلى مغادرة الإقليم. كما يسرني خبر استتباب الهدوء في الجزيرة. وتبقى مسألة الوعاظ.

عليّ الاعتراف أنني حقا كنت قد اتخذت إجراءات في ذلك الوقت لدى المرحوم الشيخ عباس، عميد الجامع الكبير لباريس وكذا

لدى مستخلفه أخينا الدكتور تيجاني هدام الذي كنت قد أرسلت له ملفا مستوفيا قصد الحصول على تأشيرة دخـول وإقامة لصالح الإمام ح. ع. لكن لسوء الحظ لم تنجح المساعي التي قمت بها.

رسالـة مؤرخـة في شهـر غشـت سنـة 1989 أرسلها إلي مراسلي الوفي ويذكر فيها:

«أبيت إلا أن أخبرك أن كل الشباب العرب في نيساديو وعيفة أقمنا فنتازيا حقيقية في بوراي بمناسبة العيد الكبير. وهتف الجميع لملابسنا وخيولنا، فمنذ أكثر من خمسين سنة لم تقم أية فنتازيا. وتلقينا التهاني...

بخصوص المركز الثقافي، كتب إليّ: «سوف ننتصر بإذن الله وبمساعدتك فلن أتخلى عن مشروعنا».

أرفقت بهذه الرسالة صورة للفانتازيا نشرتها يومية نوميا التي صدرت في 16 أوت 1989.

وهاهنا برهان آخر على أن فرنسا، وطن الحريات، تكتفي بالشكل الفولكلوري لهوية الآخرين.

الخلاصة

لقد حاولت في الصفحات السابقة أن أعرف بفترة من تاريخنا وآمتداداتها في الوجه الآخر من العالم. إن الكتب المدرسية تتحدث عن انتفاضة 1871، التي قادها الباش أغا المقراني، لكن ظمأنا يبقى على حاله عندما نريد معرفة أسباب هذه الانتفاضة، ومدى اتساعها، والشخصيات التي قادتها والذين كانوا كثيرين، وبالخصوص النتائج التي تحملوها بعد انهزامهم.

لقد وصف الصحفي الجزائري الذي ذكرته الحالة قائلا: «وقد نفي بعض القادة إلى كاليدونيا الجديدة، وألقي بهم في وسط الخلاء دون إمكانية في الرجوع.»

أين توجد هذه الجزيرة؟ توجد على بعد اثنين وعشرين ألف كيلومترا من الجزائر و بفارق زمني يقدر بعشر ساعات عن الجزائر العاصمة! السكان يقولون زالحصيةس (Le Caillou) للإشارة في حديثهم لهذه الجزيرة. لقد أدخل الأوروبيون الأوائل الذين وطئوا هذه الجزيرة؛ الخنزير والكلب، ولكنهم أدخلوا أيضا النبيذ والديانة المسيحية. أما المنفيون الجزائريون فقد أدخلوا الإسلام، والنخيل، التي يسميها احفادهم شجرة البلح. وبالفعل، فقد لاحظت أنه في كل قطعة أرض زرتها كانت هناك واحدة أو اثنتان من النخيل، نخيل التمر. وهذا ما يثبت أن المنفيين قد قدموا من كل جهات الجزائر، ليكونوا خير شاهد في أقصى الأرض على ذلك العشق للحرية الذي مازال الشعب الجزائري يقدسه عبر كل العصور.

ونخيل التمر لا يوجد إلا في جنوب الجزائر، وهذا ليس بغريب إذ أن الانتفاضة التي فجرها الباش أغا المقراني سرعان ما امتدت. لقد كان مخاضها من بن عكنون، سور الغزلان ومجانة ثم امتدت إلى أولاد نايل بالجلفة، وبوسعادة، وبسكرة. دون ان ننسى بجاية وصدوق أين أعلن الشيخ الحداد على أتباعه الجهاد.

لقد اشتعلت القبائل برمتها حتى وصل القايد الهمام علي أوقاسي إلى بودواو المشرفة على العاصمة. لقد كان المجاهدون يفدون من كل بقاع الجزائر، وقد سجلت أسماء منفيين أصلهم من ناحية وهران، وقد استغلوا في إبان ثورة الكالدونيين في 1878. فجد الطيب عايفة ولد في 1843 ببني شقران على مقربة من مدينة معسكر .

وهذا ما يثبت أن انتفاضة 1871 هذه قد مست الأغلبية العظمى من ربوع الجزائر؛ ولهذا فإنها قد دامت قرابة السنة وهذا بالرغم من الوسائل الضخمة البشرية منها والمادية التي جندها المستعمر للقضاء عليها. وقد كان الاضطهاد والقمع ضد الأهالي شرسا بغية قطع المجاهدين عن قواعدهم الخلفية .

وقد بقيت فرنسا وفية لسياسة الأرض المحروقة التي طبقها الجنرال بيجو (Bugeaud) ضد الأمير عبد القادر فوقعت في تكرار نفس تلك الأساليب.

وفي الأخير الهزيمة فالعقوبات ومصادرة أراضي وكل ممتلكات جميع من شك في كونه قد شارك أو ساعد المجاهدين، وأخيرا الحكم بالنفي لأغلبية النخبة إلى أقاصي الأرض في جزيرة كاليدونيا الجديدة.

لماذا النفي؟ «لقد بات نفي الكمونيين مرتبطا في الذهن بنفي العرب. فالفترة هي نفس الفترة والصور مازالت ترسم معتقل العرب في جزيرة الصنوبر.» وفي كتابه يقول ب. برو: «وقد لحق آخرون كانوا أيضا

مساجين سياسيين منفيين . فكبرت بهم صفوف المائة والخمسين مسلما المتزمتين (أصلا!) حسب الأب بلاتيني قسيس المعتقل».

هكذا كان ينظر إلى هؤلاء القادة القمائم، قادة انتفاضة 1871. ويستمر برنار برو المذكور سابقا قائلا: «مع أن عرب كاليدونيا قد اندمجوا طوعا؛ وقد اصبحت غالبيتهم كاثوليك و ذابوا في السكان حتى أصبحوا من أهل الجزائر الفرنسية إبان الأحداث الأخيرة»[1].

وفي وثيقة أخرى عن النفي إلى كاليدونيا الجديدة ، حررت أساسا عن منفيي أحداث بلدية باريس الذين وصلوا والجزائريون في فترة واحدة، كتب «وليس مما يدهش أن ينفى عرب إلى كاليدونيا الجديدة، إلا أنه تنقص التفاصيل التي قد تسمح لنا بالتعرف على الأسباب العميقة التي أدت إلى نفيهم. الشيئ الذي نعلمه هو أنهم قد نسوا في إجراءات العفو سنة 1880 وبقوا في كاليدونيا الجديدة. وقد انتهى بهم الأمر إلى أن عفي عنهم سنة 1895، لكن العفو جاء متأخرا، ومعظمهم بقوا في كاليدونيا الجديدة»[2].

الأغلبية منهم بقوا في الجزيرة. وقد رأينا في أية ظروف عاش خلالها أولئك الذين كانوا مجاهدين، وقادة و زعماء... يقول ر. كوليني:«لقد أرادوا أن يتزوجوا، ونظرا إلى أنهم كان يستحيل عليهم الزواج من بنت جنسهم، فقد لجؤوا إلى دير أخوات القديس جوزيف في كلوني ببوراي... فكان أنْ اختاروا... (هم) ... نساءهم».

كيف سيكبر الأطفال عندما يكون أبوهم غريبا مقطوعا عن جذوره، وعن نمط حياته، وتكون الأم سجينة قانون عام «ذات أخلاق مشبوهة في

(1) برو برنار، تاريخ كاليدونيا الجديدة م.س.ذ. ص 150–151–152.
(2) النفي إلى كاليدونيا الجديدة، دليل المعرض التذكاري حول النفي، نشر جمعية دعم مؤسسة نوميا، 1977، ص 31.

أغلب الأحيان؟» وفي ظروف حياة من أصعب ما يكون و بدون مدرسة. والمدرسة التي أنشئت في 1928، لم تبدأ في القيام بوظيفتها وبقدر محتشم إلا سنة 1957 بقسم لم يستقبل إلا 24 تلميذا.

كل الذين قابلتهم خلال زياراتي إلى كاليدونيا الجديدة كانوا جد قريبين من الأمية. البعض منهم يبرزون عن الأغلبية: الطيب العيفة، وياسمين مستورة تابعوا الدراسة ولم يتعدوا الدور الأول من التعليم الثانوي. وقد تمكن العيفة من متابعة تكوين تقني والعمل، ثم انخرط في نشاط نقابي وسياسي بينما تمكنت الثانية من متابعة تكوين كممرضة. وبعد معاناة بحث ذكر لي شاب تمكن من الوصول إلى نهاية التعليم الثانوي وقد نجح في أن يصير مدرسا في التعليم المتوسط.

نحن الآن بعيدون عن «أبناء قدماء المنفيين» الذين أصبحوا في أيامنا هذه شيوخ بلديات ومدراء بنوك، وسياسيين فعالين ورجال أعمال ذوي هيبة»، مثلما أورده صحفي «الأمة». إذا كان البعض القليل من الجيل الثاني قد تلقى تكوينا في المدرسة الابتدائية، فلا المرحوم العربي ميسوم، ولا السعيد بن حميش، ولا أحمد بوفناش، ولا قويدر بن رابح أو أخوه العريف الطاهر بن رابح قد استفادوا من محاسن مدرسة الجمهورية، مدرسة جول فيري (Jules Ferry) !

إنهم أبناء منفيين وقد عوملوا على هذا النحو، وتربوا كأبناء محبوسين. لكنهم جميعا احتفظوا بشيء يجمعهم، شيء ورثوه عن آبائهم: إنهم عرب ومسلمون.

نحس بهذا التوكيد والتأكيد، وكأنهم أقسموا جميعا أمام آبائهم انهم سيظلون مسلمين عربًا. فهذا هو الشيء الذي يطبعهم جميعا والكل متمسكون به.

وعلى كـل حـال فهـم مواطنــون فرنسيون ويتصرفون وفق ذلك، وفي مجملهـم يعتبرون انفسهـم كاليدونيين قلبا وقالبا.

وخلال زهاء قرن لم تعرض عليهـم المؤسسة الفرنسية الهدامة للشخصية أي معوض. إلا أن ذلك الظمأ للرجوع إلى الأصول ظل متوقدا تحت الرماد.

عـرب ومسلمون؛ إنهم يريدون الوصل بجذورهم، كما أنهم يريدون تعلم اللغة العربية ليتعرفوا أكثر على الإسلام ويتحكموا في فهمه، وهكذا يصبحون مسلمين كاليدونيين مثاليين، مثل جيرانهم في جزر الفيجي وأستراليا وزيلاندا الجديدة. إنهم يعيشون على هذه الجزيرة كأقلية وسط محيط كاليدوني أين تنحدر غالبية السكان من آباء فرنسيين، إيطاليين، برتغال، هولنديين، يابانيين، صينيين، ڤيتناميين، تاهيتيين، ومن جزر واليس والكاريبي وحتى من اليمن أو أفارقة في بعض الأحيان. والكل يعتبرون أنفسهم كاليدونيين.

وفي المراسلات التي مازلت أتلقاها، تتردد دائما نفس الأسئلة: متى سيبنى المركز الإسلامي في نيساديو؟ ومتى سيصل المعلم الجزائري ليعلم السكان اللغة العربية وتعاليم الإسلام؟ إن أراد الله فإن هذا الدعاء سيستجاب. وهناك قوى خفية ظلامية تكثف من عراقيلها، أمام هذه الإرادة المبعوثة في(إسترجاع) أواصر الهوية، والحفاظ عليها، وتطويرها.

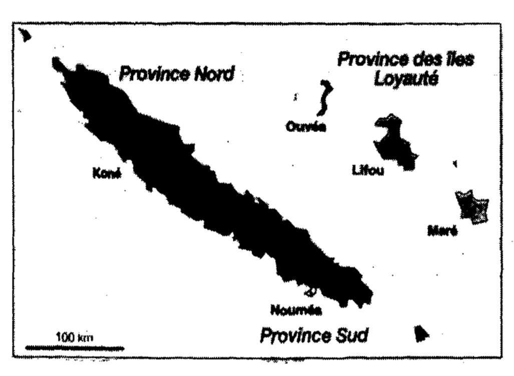
مهما تكن هذه القوى، فإن بي إيمانًا راسخًا بأن ذلك الشعور الباطني بكون الإنسان مسلما كاليدونيا ذا أصل جزائري سينتصر و يزدهر. وليس الأمر أني من دعاة «التمييزية» لكنه يتهيأ لي أن الإنسان لا يمكن أن يحس بنفسه عنصرا مسؤولا وشاعرا بالإنسانية إلا إذا كان في «جلدته الأولى» وألا يتنكر أصلا لأحسن ما نملك في ذات أنفسنا وذاك بالنسبة لهؤلاء الكالدونيين هو إسلاميتهم .

الصديق .تاوتي.

الملاحق

الملحق الأول: أرقام بيانية

المســاحة : 18 575 كم^2
السكان : 164.000 نسمة، 65.000 نسمة في نوميا (حسب إحصاء 1989) .
ينقسم السكان إلى :
45٪ ميلانزيين
34٪ أروبيين
21٪ أعراق أخرى
66٪ من ميلانيزيين لازالوا يعيشون في إطار قبيلة، ويتواجد معظمهم في مقاطعة الشمال وجزر لوايوتي.
توزيع الأصوات في انتخابات المقاطعات 1989 :
RPCR : .... 44٪
FLNKS : .... 29٪
اليمين المتطرف : .... 14٪
أحزاب أخرى : .... 13٪
الناتج الداخلي الخام : 68.500 فرنك فرنسي للفرد الواحد .



كاليدونيا الجديدة منذ 1988 (اتفاقيات ماتينيون)

الملحق الثاني:
دعوة الأستاذ كتاني مسلمي كاليدونيا الجديدة
الـ 15000 إلى التجمع

فحسب رأيه، الاتحاد وحده كفيل بأن يمنحهم المسجد والمقبرة.

الأستاذ علي كتاني عضو بجامعة البترول والمعادن بالظهران بالمملكة العربية السعودية، لقد غادر أمس الإقليم، يرجع أصله إلى المغرب الأقصى، وهو مقيم عند الملك خالد. يقول إنه جاء إلى كاليدونيا الجديدة للالتقاء بأصدقائه المسلمين أو إخوانه لأن كل مسلم يلتقي مسلما آخر فهو أخ له.

قَدّم الأستاذ علي كتاني نفسه على أنه أستاذ في تكوينه، مسلم في اعتقاده. ولكونه مسلم يعتز بإيمانه فقد سخر وقته الحر ليلتقي من يشاركه عقيدته. زد على ذلك فلقد وجّه اهتمامه نحو الجماعات المسلمة التي تشكل أقليات عبر العالم. فكرس لها منذ عشر سنوات الكثير من الأعمال والعديد من الكتب ستنشر له دار النشر نيطؤض بلندن كتابا جديدا خصصه لمشاكل الأقليات المسلمة.

وبطبيعة الحال، فإنه عند وصوله إلى نوميا، تعرف على جمعية مسلمي كاليدونيا الجديدة حتى يدرس معها اهتماماتها ومشاكلها والصعوبات التي تواجهها.

900 مليون مسلم

باختصار فإن علي كتاني قَدّم المسلمين باعتبارهم أصحاب ثاني ديانة في العالم بعد المسيحيين – باختلاف مذاهبهم– البالغ عددهم

حوالي مليار و200.000.000 في العالم. ونجد البوذيين في نفس الصف مع المسلمين الذين يبلغ عددهم 900 مليون، منهم 600 مليون في البلدان المسلمة رسميا، ومنهم 140 مليون في البلدان العربية وهم مستقرون في جميع أرجاء العالم بدون استثناء. يقول علي كتاني في هذا الشأن باعتزاز: «ما من بلد في هذا العالم إلا وتوجد به جماعة مسلمة».

اللّه الواحد الصمد

بالنسبة للأستاذ علي كتاني فإن للمسلم صفتين أساسيتين:

1) الإيمان بالله الواحد الصمد.

2) الإيمان بالقرآن الكريم وبآخر النبيين محمد الذي يقترن اسمه دائما بعبارة «صلى الله عليه وسلم».

ينصح المسلم دائما بالتسامح، فهو شيء جوهري عنده، إنها مسألة إيمان، فحسب علي كتاني هذه الصفة هي التي جعلت الإسلام يرعى ويحمي دائما الأقليات المسيحية أو غيرها (أهل الذمة) التي تعيش في البلدان الإسلامية.

القضية العكسية للإقليم

لم يُخْفِ الأستاذ علي كتاني رغبته في أن تطبق نفس المعاملة مع المسلمين الذين يعيشون كأقلية في كاليدونيا الجديدة، وقدّر الجماعة المسلمة بهذا البلد بنحو 15000 شخص.

كان الأستاذ صريحا عند قوله: «حتى وإن بدا هؤلاء الناس بعيدين عن الدين اليوم، وإن اتجهوا أحيانا إلى الكاثوليكية فإنهم يحتفظون بالإسلام

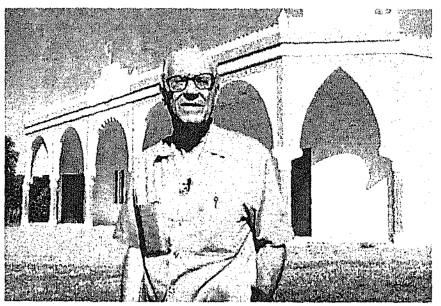
في أعماقهم، ولقد صانوا لأحفادهم دين النبي (محمد صلى الله عليه وسلم)، إنه اليوم جوهر الجماعة المسلمة.

يجب ألاّ ننسى المسلمين من الجنسيات الأخرى: 5000 أندونيسي ومن 2000 إلى 3000 من الصومال والسنغال وفيتنام وأروبا وميلانيزيا.»

تعيش هذه الجماعة المسلمة مقسمة إلى يومنا هذا، لكن توجد بعض الجمعيات والرابطات تضمهم، لذا دعاهم الأستاذ علي كتاني للاتحاد في جمعية واحدة ووحيدة للجماعة المسلمة.

الملحق الثالث:

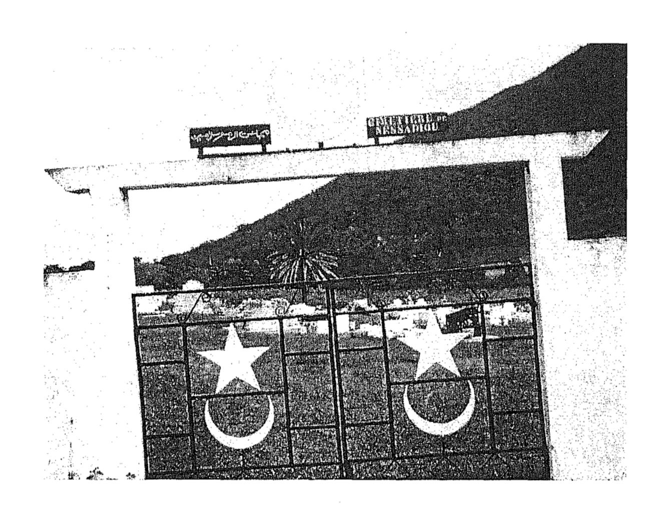




تمثّل هذه الصورة المركز الثقافي الإسلامي بمدينة نيساديو (بوراي)

ويحمل الآن اسم المرحوم (الحاج الصديق تاوتي) الظاهر على الصورة

الملحق الرابع:



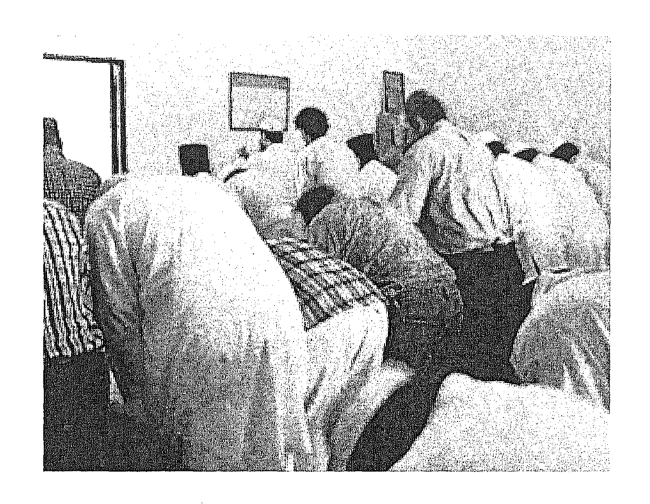
عند وصولنا إلى نيساديو، كان أو شيء جلب انتباهنا هو هذه البوابة الكبيرة التي رسم عليها النجمة والهلال، إنها مقبرة العرب في بوراي.

الملحق الخامس:



تمثل الصورة مأدبة غداء أقيمت على شرف الكاتب، وكان الحضور قوياً من الجيل الثاني والثالث وحتى الرابع من سليلي المنفيين.

الملحق السادس:



تمثّل هذه الصورة بعض المصلين وهم يؤدون صلاتهم
بمسجد المركز الثقافي الإسلامي بمدينة (نيساديو).

الملحق السابع:



الدكتور الصديق تاوتي في ضيافة عائلة من أحفاد المنفيين

الملحق الثامن:



الكاتب يقرأ فاتحة الكتاب على قبر سيدي مولاي، الزعيم الديني لهذه الجماعة، والذي مات غرقا في العام 1917. إنه أول قبر لعربي على قطعة الأرض هذه ذات الهكتارين والتي منحها للجماعة المسلمة أحد أبنائها السيّد ميلود.

الملحق التاسع:



يقوم العرب لأول مرة باستعراض الخيل في ساحة العرض بتيني.

تلقيت في يوم من عام 1989 رسالة من عبد القادر بوفناش
مرفقة بصورة من جريدة محليّة يمكن أن نقرأ تحتها:
يقوم العرب لأول مرة باستعراض الخيل في ساحة العرض بتيني.

الملحق العاشر:



استقبال حار وجده الدكتور الصديق تاوتي في مطار نوميا
عند زيارته الأخيرة إلى كاليدونيا الجديدة

الملحق الحادي عشر:

جمعية الفروسية La Gourmette .

السبت 10 سبتمبر 1994، الشباب الرياضي نيساديو - بوراي.

مهرجان الخيل وعرض عربي من إعداد: قادر بوفناش.

- **الفرسان:**

كبير: .... ناصر صالح.

بايوب: .... طيب العيفة.

جبل: .... نذير بوفناش

تونير: .... اسماعيل العربي

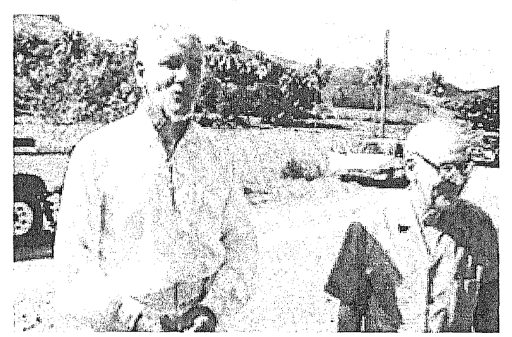
داود: .... جون ميشال علي

وهران: .... إيريك براتي

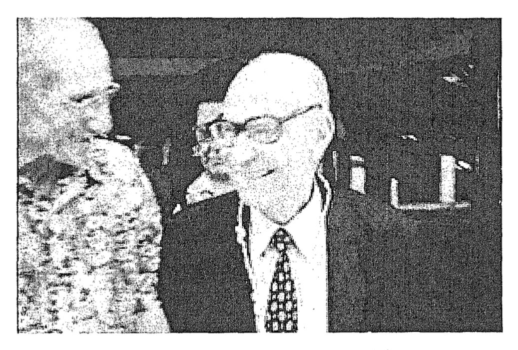
جيجل: .... قادر بوفناش

راسلت إخوة من بوراي لأجل كتابي هذا فتلقيت منهم كثيراً من الصور للفرسان العرب بنساديو وبوراي، وكذلك الوثائق التي نشرت بمناسبة هذه الفنتازيا.

الملحق الثاني عشر



الدكتور الصديق تاوتي مع صديقه الطيب العيفة.



الدكتور الصديق تاوتي مع صديقه بوفناش.

الفهـــرس

الجـــزء الأول

الفصل الأول:

الأسباب الرئيسية لانتفاضة 1871

الفصل الثاني:

الحركة الثورية لسنة 1871

الفصل الثالث:

الانتفاضة

الفصل الرابع:

دور بومزراق في ثورة 1871

الفصل الخامس:

عواقب الانتفاضة

الفصل السادس:

معلومات جديدة حول المحاكمة

الجـــزء الثاني

الفصل الأول

كاليدونيا الجديدة، الوضعية الجغرافية

الفصل الثاني

الخبر السعيد

الفصل الثالث

العرب في كاليدونيا الجديدة

الفصل الرابع

في طريق اكتشاف عرب كاليدونيا الجديدة

الفصل الخامس

تنظيم المجتمع الإسلامي

الفصل السادس

النتائج المستخلصة من هذه الزيارة

الفصل السابع

ماذا في وسعنا عمله من أجل أبناء المنفيين الجزائريين؟

طباعة دار الأمة

2007

ص.ب 109 برج الكيفان 120 16 الجزائر

هاتف / فاكس: 04 22 20 021



«... فالموضوع الحقيقي لهذا الكتاب هو تلك المأساة التي عاشها بعض إخواننا في الوطن بعد انتفاضة المقراني والشيخ بالحداد. فالنظام الاستعماري الفرنسي انتقم منهم وقرر كإجراء انتقامي أن ينفي كل من شاركوا في انتفاضة 1871 إلى جزيرة بعيدة، وقد كان أغلبيتهم من القادة البارزين والمقاومين الممتازين.

ولقد كان الدافع إلى تأليف هذا الكتاب مصادفة عجيبة، فأثناء مهمة قصيرة له بماليزيا قابل الكاتب لاجئين مسلمين كمبوديين من الذين أفلتوا من اضطهاد الخمير الحمر. وقد استرعوا انتباهه، وأثناء حديثه معهم أخبره سائح أسترالي عن المنفيين الجزائريين في كالدونيا الجديدة والذين لم يهتم بشأنهم أي إنسان. فكان ذلك نقطة انطلاق هذه المغامرة الاستكشافية التي نسج الكتاب حولها...»

من التقديم بقلم: الدكتور أبو عمران الشيخ

«... يعتبر كتاب «المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة، مأساة هوية منفية...» لمؤلفه: الأخ الفاضل الدكتور الصديق تاوتي، وثيقة هامّة، استكشفت وكشفت الغطاء عن حياة وتاريخ شريحة جزائرية هامة وأصلية طردها جيش الاحتلال من بلادها، ونفاها وأبعدها على مراحل، منذ منتصف القرن التاسع عشر، إلى كاليدونيا الجديدة في أقصى شرق المحيط الهادي...»

«... وقد تنوسي أمر هؤلاء المبعدين والمنفيين هناك هم وأبناؤهم وأحفادهم قرنا ونصف القرن، إلى أن كشف الغطاء عنهم، وعن مآسيهم، وحياتهم الشاقة، وأوضاعهم المتدهورة، الدكتور الصديق تا[illegible] هذا الذي صدرت طبعته الفرنسية عام 1995م، وهاهي طبعته [illegible] اليوم وتقدم معلومات جديدة ومهمة عن حياتهم وأوضاعهم [illegible] ينسوا أصلهم وبلدهم الأصلي، وأجدادهم، ودينهم الإسلام[illegible] وتقاليدهم، رغم بعد المسافة، وطول المدة الزمنية، وقساوة [illegible] ووجهوا بها طوال قرن ونصف القرن...»

من مقدمة الترجمة العربية بقلم: الدكتور يحيى [illegible]



ISBN 978-996167203-7